

# هَذَا مَكَانُ الْعَرَبِيَّةِ

## التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام

طبعة جديدة ومصححة

24



اتصفتون: النعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام.

تأليف: الشيخ/ محمد الغزالي .

إشراف عام: داليا محمد إبراهيم .

تاريخ النشر: الطبعة السادسة يناير 2005م .

رقم الإيداع: 2003/ 1636

التعريف الدولي: ISBN 977-14-2056-9

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابي - المهندسين ، الجيزة  
ت: 021 3466474 - 021 3472664 فاكس: 021 3462516 - ص ب 21 إنبيا  
البريد الإلكتروني لإدارة العامة للنشر: publishing@nahdetmisr.com

إنتاج: 80 انشطة المدسعة الرابعة - مينة السادس من أكتوبر  
ت: 021 8490281 - 021 8190289 - فاكس: 021 8330296  
البريد الإلكتروني للطبع: press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيس: 18 ش كامل صمغى - العجالة .  
القاهرة - ص . ب . 96 الفجالة - القاهرة  
ت: 021 5909877 - 4021 5908845 - فاكس: 021 5901195

مركز خدمة العملاء - الرقم الجاني  
08002226272  
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: sales@nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طبريق الحرية (رشدي)  
ت: 031 5240569

مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام - منزه  
ت: 0501 2759675

موقع الشركة على الإنترنت:  
www.nahdetmisr.com  
موقع البيع على الإنترنت:  
www.enahda.com



احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)  
وتتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع  
www.enahda.com

جميع الحقوق محفوظة © لشركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع  
لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بآلة أو وسيلة إلكترونية  
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة

هذا بحث استكرهتني أعداء الإسلام على خوضه ، وهم لم يحسنوا إلى أنفسهم إذ فتحوا هذا الباب - كما ظنوا - ولا أساءوا إلى الإسلام - كما أحبوا - .  
فالمسألة لا تعدو أن أحقق غرته الأمانى فجاء يناوش القلاع الشمّ ، فأصابته قذيفة أودت به ودمرت عليه مكمته ، وبقيت القمم كما هي ترد الطرف ، وعاد المغرورون إلى أوكارهم الهشة فإذا بها مسوأة بالرغام .  
لقد كنا سكوتاً عن طمأنينة ، مسالمين عن قوة ، نخدم ديننا وأمتنا في بُعد عن الجدل و إثارة للمودة .

حتى جاء من يحاول - بغباوته - استفزازنا ! وم ؟ بالهجوم على الإسلام ، ونبيه ، وصحابته ، وتاريخه منذ ظهر إلى اليوم . . !!  
ولم ؟ لأنه يلمح في الأفق بوادر تجمع حول الإسلام وإيقاظ لدولته ، وإحياء لأمته ، فهو يحول دون هذا كله ؛ بغية إنقاذ العالم من مغبة عودة الإسلام إلى ميدان الحكم والتشريع والسياسة .

وما العالم الذي يرى إنقاذه من الإسلام ؟  
ألعله يريد إنقاذ الأمريكان وأحلافهم ، والروس وأشياعهم ؟  
إن الإسلام ليس خطراً على أمة بعينها أو جنس بذاته .

إنما هو خطر داهم على الإذلال والتعصب والمحتل ، وما يخاف شعب شريف الغاية من عودته ، ولا جنس نقيّ النية من دولته ، وإننا لنجزم بأن كل عائق يوضع في طريق هذا الدين الكريم ، إنما هو لحساب القوى الغاشمة ، والسلطات العفنة ، مدنية كانت ، أو كهنوتية .

\* \* \*

ليس لي في هذا الكتاب أكثر من سَوقِ الحقائق مجردة عن أهواء المغرضين  
وأكاذيب المدلسين .

وهو جهد - وإن كان يسيراً - إلا أن الناس فقراء إليه . فإن لبس الحق بالباطل عمل برع فيه كثيرون ، وفضل به الأكثرون ، ولذلك يقول الله لأخبار اليهود : ﴿وَلَا تَلْبَسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾<sup>(١)</sup> .

ولا يحسبن القارئ أنى - فى هذا الكتاب - ضخمت شيئاً ثم هدمتها ، أو عنيت بحملات تافهة ثم رددتها .

لا . لقد أبصرت طلائع هجوم منظم على الإسلام ، وكيد متين لأمته ، فأحببت أن أسحق الظليعة الجريئة حتى أشرد من خلفها ، وأعلمها ألا تُهيج مرة أخرى أسباب المنايا عليها ، وإلا . . . فهى التى بحثت عن حتفها بظلفها .

\*\*\*

وأذكر أن الرجل<sup>(٢)</sup> الذى كلفنى بكتابة هذا البحث ، قد طلب إلى أن ألتزم حسن العرض ، وأن أكتفى بتنحية القذى عن طريق الإسلام ، دون غضب أو تحذير .

وقد بذلت الجهد فى إجابة نصحه ، وإن كنت شعرت أحياناً بسوزات الغيظ تملكنى وتجرفنى ، إذ أجد حقاً يغطى الهوى وجهه المبين ، وعسفاً يراد فرضه على الصراط المستقيم ، وما كان الإسلام ينتظر من أحسن إليهم فى أرضه أن يتربصوا به ويعينوا عليه أو يتلمسوا لأهله الأبرياء شتى العيوب .

وعلى أية حال ، فقد رأينا فى تحامل المغرضين على الإسلام فرصة مواتية لتجلية دعوته وشرح تاريخه وتفنيد المفتريات الموجهة إليه .

ومثل هذه الدراسة تلذ للنقاد المجريدين ، فقد سئل عالم : ما سعادتك ؟

قال : « فى حجة تنبخر انضاحاً ، وشبهة تتضاءل افتضاحاً » .

\*\*\*

لقد كتبت هذا البحث ، وأنا مسلم أحترم دينى وأتمسك به ، ولم يكن اعتناقى للإسلام حجاباً عن تلمس الحقيقة فى مظانها ، والتقاطها حيث وجدتتها .

ولست أعرف ما يكون وقعه عند أصحاب الأديان الأخرى ، ولكنى أعلن أنى

(٢) المستشار حسن الهضيبي .

(١) سورة البقرة : ٤٢ .

أتلقي بقبول حسن كل نقد عذمي يعتمد على الحق وحده ، كما أعلن أنى - وكثيراً من إخواني المسلمين - ما اعتدنا ، بل رددنا العدوان ، وما تحدثنا حتى حملنا غيرنا على الكلام . وربما كانت أحقائق مرة في بعض الحلو ، ولكن ما حيلتنا ، وقد أراد نفر من الناس تشويه وجوه الأبطال ، فكشفت الأقدار عما يصيغ وجوههم من غبار!

\* \* \*

إن الأحقاد الطائفية والحروب الدينية غريبة على أرض الإسلام . فقد ألفت هذا الدين منذ بدأ أن يعاشر غيره على المياسرة واللفظ ، وأن يرعى حسن الجوار فيما يشرع من قوانين ويضع من تقاليد . وهو - في ميدان الحياة العامة - حريص على احترام شخصية المخالف له ، ومن ثم لم يفرض عليه حكمه أو يقهره على الخضوع لشرائعه . بل ترك أهل الأديان وما يدينون .

خذ مثلاً الخمر والخنزير ، إنهما - بالنسبة للمسلم - لا يعدان مالا له قيمة ، بل الحكم بحرمتهما ورجسهما معروف ، ومع ذلك فالمذاهب ترى أنهما بالنسبة إلى النصراني مال متقوم يصبح تملكه وتمليكك ، ومن ثم تعترف بالتعامل فيهما . وانظر إلى ما يقوله أئمة الفقه الإسلامي في كتابي «البدائع» و«المغنى» : إن أنكحة غير المسلمين لها أحكام الصحة . لم ؟ لأننا قد أمرنا بتركهم وما يدينون .

ويبلغ من احترام الحرية الدينية عند المسلمين أن يقبلوا زواج الجوسى من ابنته ما دامت شريعته تبيع له ذلك .

وفى «المغنى» مجوسى تزوج ابنته ، فأولدها بنتاً . ثم ماتت عنهما فلهما الثلثان!! إن الإسلام لم يقم بنتاً على اضطهاد مخالفيه أو مصادرة حقوقهم أو تحويلهم بالكره عن عقائدهم ، أو المساس الجائر لأموالهم وأعراضهم ودمائهم . وتاريخ الإسلام فى هذا المجال أنصع تاريخ على وجه الأرض . وليت التواريخ الأخرى تقترب من ليونته وسماحته .

أقول : تقترب منه ، ولا أقول : تشابهه ، لأن الواقع المقبض فيما حفظته الدنيا من حروب التعصب وغارات الإبادة والتجنى ؛ يجعلنا لا نشطع مع التمنى ولا

نسرّح مع الخيال . وفي الحروب الدينية التي عرفها التاريخ الأوروبي دلالات يخزى لها أولو الضمائر .

\*\*\*

والغريب أن نفرأ من المستشرقين والمبشرين تعامى عمداً عن هذه الحقائق ، وأراد أن يتعامى عن تاريخه القائم ، لا . . بل أراد أن يلصق بالإسلام مفتريات لا عهد له بها في تاريخه القديم والحديث .

فقام يتهم الإسلام بأنه أساء إلى مخالفيه وأنه صنع بهم كذا وكذا<sup>(١)</sup> .

وكأنه يريد بذلك - إلى جانب إهانة الإسلام - خلخلة ثقة أهل الكتاب في الكثرة المسلمة التي تعيش معها في سلام منذ أجيال .

ونحن على يقين من أمرين :

أولهما : أن حبل الباطل قصير ، وأن تعاليم الإسلام لن تتأثر أبداً بمحاولات الكذب والاختلاق .

وسيبقى مسلك هذا الدين مثلاً أعلى لأروع ضروب الاعتدال والتسامح مهما اجتهد المرجفون ونفتوا في أفقه الدخان .

وأخرهما : أن عملاء الاستعمار لن يتحقق لهم أمل في استغلال الأقليات الدينية ، وربط عواطفها بالغرب الصليبي ، وإن بدا لهم أن ذلك ميسور الإدراك .

وقد تيقظ العقلاء لهذه الخيانات ، وتجمعوا - مسلمين ونصارى - ضد العدو المغير ، ورأوا ألا بد من رده على أعقابه وتطهير البلاد من يلودون به ويعتمدون عليه .

ولعلنا في كتابنا هذا نكون قد أنصفنا الحق وكشفنا الغطاء عن أمور ذات بال ، ما ينبغي أن تغيب عن الأذهان .

## مهد الغزالي

(١) نحن في هذا الكتاب نرد على حشد كبير من الادعاءات التي صنعها الدس الاستعماري الفرنسي ، وحاول فيها إثارة اللغط حول سياسة الإسلام ضد مخالفيه ، وقد استرسلنا في الحديث كي نهتك الستر عن وجوه الكذبة وتدعهم عبرة للمعتبرين .

(١)

الإسلام

بين عدوئِهِ . . العصبية والتعصب

## هذه العصبيات :

مع غلبة الأوهام وانتشار التفاهات يستكثر الصغار من الأمجاد الكاذبة ، ولم لا يستكثرون منها ، وهى لا تغرمهم ثمنًا ، ولا تكلفهم جهدًا ؟

إن اختلاف البشرة فى ألوانها يعطى البيض فضلاً ليس للسود .

وميلاد المرء فوق قطعة من الأرض دون أخرى يجعل وطنًا أرقى من وطن .

وتكوين جنين فى بطن معين من نطفة معينة يخلق نسبة أشرف من نسبة .

فإذا اصطنع أقوام من هذه الأحوال وأشباهاها فروقًا يتشبهون بها ، ويدورون حولها ، فماذا عليهم ؟!

لقد صفرت أيديهم من الجلد فملأوها بالهزل ، ثم شقوا طريقهم فى الحياة ، وعلى حدودهم صعر ، وفى قاماتهم تطاول .

وشأن عالمنا هذا غريب ، لو أنه يتوقف عن المسير كما تتوقف السيارة حين ينفد وقودها فتتطلب مزيدًا تستأنف به رحلتها .

إنها لن تسير إلا بوقودها الصحيح . . أما عالمنا هذا فهو مستعد لأن يسير ، ولو وضعوا له بدل الوقود ترابًا أو قمامة ، إنه يسير مهما اضطربت وجهته واختلت حركته .

وهل اندفاع العالم بالعصبيات المحضة - بعد تنكره للمثل العالية - إلا ضرب من هذا السير المجنون ؟

عصبيات للأسر ، وعصبيات للأوطان ، وعصبيات للأجناس .

أما الحقائق الكبرى التى تعلو هذه النزعات الطائشة ، وتحكمها بحزم ، فإن العالم فى جاهليته القديمة أو الحديثة لا يلقى باله إليها ؛ لأنها تعكر عليه نعيم الأمجاد الزائفة التى ينتجها فى ظلال هذه العصبيات .

إن ناسًا يريدون أن يسودوا ، لأن فروج الأمهات يوم قذفت بهم إلى هذه الحياة أضفت عليهم هالة خاصة .



أصبح جيلاً .. إنهم أشرف .

فلو غربلت التراب السافى عن رفات آبائهم الداهيين ، ليرق بالمواهب الدفينة التى ستنتقل حتماً من الأجداد إلى الأحفاد ، فيجب أن نحضى الهام إجلالاً .

وهؤلاء .. إنهم الجنس الأبيض الممتاز ، لقد نضح صفاء قلوبهم على لون جسامهم ، فكساهم شمائل لا تبلى من الفضل والإيثار .

فلنفسح الطريق أمام الجنس المختار ، ولنُدفع الأجناس الأخرى إلى الخلف بمقامع من حديد .

ثم هؤلاء الذين ولدوا معنا فى صعيد واحد ! إن لهم حقاً أكبر ، وأولئك هم مواظونوا الأعداء ، يجب أن تُرجع رابطتنا بهم كل رابطة أخرى .

إنجلترا فوق الجميع ، ألمانيا فوق الجميع ، مصر فوق الجميع ..

لكن من هم الجميع الذين يجب أن يهبطوا إلى تحت ؛ لنتنصب فوقهم الأوطان الخاصة ببعض البشر ؟

إن العصبية لا يعنىها أن تجيب ؛ لأن العصبية لا تعرف منطق العقل المعتاد .

إن العصبية حماس يشتعل وليست حقاً يضى .

### الدين والعصبية :

هذه العصبية - برغم ما يساندها من قوانين وتقاليد - هى فى نظر الدين حماقة كبرى ، والاعتراف بها هدم للأركان الأولى من الرسالات التى أنزل الله هداية للعالمين ، إذ قوام هذه الرسالات أن الإنسان مسئول بنفسه عن نفسه ، يقدمه ما اكتسب من خير فحسب ، ويؤخره ما اكتسب من شر فحسب .

ولا مكان فى هذا الميزان القسط لتدخل بشر ، كبير أو حقير .

ولا حساب فى تقويم شخص ما لوضئه أو نسيه .

ولا اعتبار البتة لما تواضع الناس عليه من شارات الرفعة أو الخسة .

ابن النبى أو ابن اليعقى سيان .

إن تأخر الأول فى سباق الصالحات لم ينفعه حسيه .

وإن تقدم الأخير لم يضره نسيه .

وقد أوضح الله هذه المبادئ لا في قرآن محمد فحسب ، بل في كتب الأنبياء  
الأولين كذلك :

﴿أَمْ لَمْ يَنْبَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ \* وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ \* أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ  
أُخْرَىٰ \* وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ \* وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَىٰ \* ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجِزَاءَ  
الْأَوْفَىٰ﴾ (١)

وتلك قاعدة تليها العدالة المجردة .

ومن ثم فهي قديمة مع الأزل ، مسترسلة مع الأبد ، لا يلحقها نسخ ، ولا يחדشها  
استثناء :

﴿مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ  
أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (٢)

ولما كان الظن قد يسبق إلى أن اصطفاء الله لبشر ما كيما يحمل أعباء الدعوة  
إليه ، ربما أشعر باختصاص يخرج عن هذه القاعدة ، فإن الله كذب هذه الظنون  
وبين أن المرسلين كغيرهم أمام هذا القانون العام :

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ  
مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا \* لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا  
أَلِيمًا﴾ (٣)

وحدد الله سبحانه صلة الأتباع المستجيبين ؛ بالنبي الذي علمهم ، فكان هذا  
التحديد القاطع رداً للأقارب والأباعد إلى القانون الذي لا يهتم بقربى ولا قرابة ،  
قانون العمل والجزاء الذي لا يستطيع نبي أن يغير من نتائجه لتطيش براجح  
أو ترجح بطائش .

وإيماء لهذه الحقائق أمر الله رسوله أن : ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا  
شَاءَ اللَّهُ...﴾ (٤)

(١) النجم : ٣٦-٤١ . (٢) الأسراء : ١٥ . (٣) الأحزاب : ٨٠٧ . (٤) الأعراف : ١٨٨ .

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾<sup>(١)</sup>.

﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾<sup>(٢)</sup>.

هذه الأوامر الصريحة تهدف إلى إفهام كل بشر، أين كان، ومتى كان، إلى أن تخليقه أو إسفاهه ضوع إرادته الخرة، وأنه وغيره سواسية في جو طيق رحب، وأن كافة ما اختلقه الدجالون من تفاضل بأوطان أو أنساب أو ألوان هراء في هراء.

هذا هو الحق في حساب المثوبة أو العقوبة يوم الدين.

وهو الحق في مقياس الرذيلة أو الفضيلة في الدنيا.

ولا تحسبن ذلك مقياساً خاصاً لضبط أعمال الأفراد، وتسجيل ما تبلغه الأنفس من نقص أو كمال.

أما سياسة المجتمعات والدول فلها قانون آخر!

ذلك هو الضلال البعيد.

إن الله شرع دينه نظاماً للنفس والمجتمع والدولة جميعاً.

وما اعتبره شراً في أحوال النفس هو شر مضاعف يوم يقوم عليه مجتمع، وتبنى عليه حكومة.

وما دام قد أهدر الأنساب والألوان والأوطان في تقدير النفس، فالحرى أن يهدرها في تقدير الدول والشعوب.

ومن ثم فأساس الدولة المحترمة عنده أن تنهض على دعائم من الخير والصلاحية لا على مزاعم من الانتفاخ الأجوف والعصبية العمياء.

فالمبدأ، والتعارف عليه، والاقتراب منه، هو أساس الحكم، لا قطعة الأرض، والمعيشة عليها، والجوار فيها.

(٢) الأحقاف : ٩ .

(١) الأنعام : ٥٠ .

والحق الذى تكمل باعتناقه - وأنت فرد - هو الذى تكمل باعتناقه وأنت دولة .  
إن الحق ليس الشمعة التى تضيئك من الداخل فقط ، بل هو الشعاع الذى تبصر  
عليه طريقك فى الحياة كذلك .

وقد جعل الله من دينه رابطة تقرب البعيد ، ورحمًا تعطف الأفتدة فقال :  
﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (١) . «وَأذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ  
قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا» (٢) .

وتربط الجماعة المؤمنة ليس عصبية من النوع الذى نعيناه ، وحاشا أن يكون كذلك !!  
فإن أول خصائص المجتمعين على الحق أن يسوسوا به أنفسهم وغيرهم ، وإذا قلنا : إن  
الإسلام عروة وثقى بين أتباعه جميعًا ، فإن ذلك التناصر فى حدود دستور الإسلام  
القائل : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ (٣) . وأى  
مسلك ينافى ذلك من منتسبين إلى الإسلام ؛ فهو خروج على الإسلام .

إنما احتقرنا العصيات كلها لأن قانونها الهوى .

واحتفينا بالدين ؛ لأن الذى شرعه أخذ به أتباعه أولاً ، فهم محكومون به قبل  
غيرهم من الناس .

وعندما قام نبي الإسلام يدعو إلى الله ، تنكر له مواطنوه وآله وأقوام .

فقرر أن يقطعهم ، وأزره على دينه قبيل غرباء فوصلهم وحق بهم .

ومن المؤمنين بالإسلام - على اختلاف منازلهم الأولى - قامت دولته الكبرى ،  
قامت على أساس الانحلاع التام من دعوات الجاهلية .

إن رجالها كانوا يبصرون الناس على ضياء الإيمان ، كما تبصر نحن الأشخاص  
والأشياء على ضوء الشمس .

ولم لا؟ وقد علمهم الله أن وزن الأمور بغير ذلك ضرب من الردة .

روى المفسرون أن « شاس بن قيس » اليهودى - وكان شيخًا عظيم الكفر شديد

(٣) الثالثة : ٢٠ .

(٢) آل عمران : ١٠٣ .

(١) اخراج : ١٠٠ .

الطعن على المسلمين - مر بنفر من الأوس والخزرج وهم في مجلس يتحدثون ، فغاظه ما رأى من ألفتهم وصلاح ذات بينهم في ظل الإسلام ، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية .

فقال : اجتمع ملأ بنى قبيلة بهذه البلاد ! والله ما لنا معهم - إذا اجتمعوا - من قرار ! فأمر شاباً من اليهود كان معه فقال له : اعمد إليهم واجلس معهم ، ثم ذكرهم يوم « بعث » وما كان قبله ، وأنشدهم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من أشعار !

وكان «بعث» يوم قتال مرير بين الأوس والخزرج انتصر فيه الأولون على الآخرين ، ففعل الشاب اليهودي ما كلف به ، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا ، وتفاخروا ، حتى توائب رجلا من الخييين على الركب .

وقال أحدهما : إن شئتم - والله - رددناها الآن جذعة !! وغضب الفريقان جميعاً وقالوا : قد فعلنا : السلاح السلاح ، موعدكم الظاهرة - يعنون حرة المدينة - .

فخرجوا ، وانضمت الأوس والخزرج بعضهم إلى بعض على دعواهم في الجاهلية فبلغ رسول الله ﷺ ما حدث ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين حتى جاءهم ، وقال : «يا معشر المسلمين ، أبدو عوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ أبعث إذ أكرمكم الله بالإسلام ، وقطع عنكم أمر الجاهلية ، وألف بينكم ، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً؟» .

الله الله . . . فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فألقوا السلاح من أيديهم ، وبكوا ، واعتنق بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول الله سامعين مطيعين ، ونزل قول الله :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ \* وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١١٠﴾

إن اليهودي الحاقد على الإسلام أراد أن يمكر بأهله ، فلم يجد أسرع - في نقض غزلهم - من إثارة العصبية القديمة بينهم .

(١) آل عمران : ١٠٠ ، ١٠١ .

والحق أن تعصب اليهود ضد الدين الناجح لم يكن شرأ عليه من استجابة أتباعه  
لوساوس العصبية البائدة .

وانظر فيما أصاب المسلمين - بعد - من متاعب ، يدل على أن العصبية التي  
قسمت وحدتهم في الداخل كانت أنكى بهم من تعصب أعدائهم ضدهم .

### عودة الجاهلية :

في العالم الحديث عصبية عنصرية وجنسية لا ضمير لها ، تنور بين الخين  
والخين لتوقع المظالم بالمستضعفين من أجيال الزنوج والهنود وأشباههم .

وفيه تعصب لما ألف من أفكار ومبادئ ، وتعصب ضد ما جهل من أديان وتواريخ ،  
وحديثنا الآن لا يتناول هذه الأنحاء المتشعبة .

إنما حديثنا عن العصبية التي تسود أرضنا ، فإذا انتهينا منها تحدثنا عن التعصب  
الكامن في بعض الأنفس ضد إسلامنا .

ذلك أن الإسلام اختنق - أو كاد - بين عصبية المستحتمقين من أتباعه ، ثم  
تعصب الناقمين على امتداده القديم من أتباع الديانات الأخرى .

ما العصبية التي تنتشر في بلادنا ؟

إنها نزعات بدائية سمجة ، قسمت الجماهير في القرى والمدائن إلى قطعان  
متاحرة ، وقبائل متنافرة ، وركام من الأشياع يزيدو ألوههم وينقصه الوهم ، وتصرفه  
قيادات همجية عفنة لا دين لها ولا دنيا .

إنها عصبية قامت ودامت مع قيام الجهل ودوامه ، وتطاول لياليه وتراخى أيامه .  
فإذا بأرض الإسلام معرض مشحون بالسخرات .

وحدته الصغرى القرية التي تتنازع سيادتها أسر معينة ، ووحدته الكبرى الدولة  
التي تتنازع حكومتها أسر معينة .

فإذا نظرت إلى الحرب والمعمر من أرض الله ، واستعرضت القارات الخمس  
الحافلة بالأحياء ، لم تلبث أن ترى هذه البلاد الإسلامية مدموغة بهذا الطابع  
المخزي . . مدموغة به وحده .

فهى فى ميدان السياسة العالمية حقل العصبىات التى تتضخم فتأكل دولاً ،  
أو تتضاءل فتأكل جملة قرى .

وقد اختفت قيمة الفرد - كإنسان - وهانت قيمة الأمم - كراى عام - وسط هذه  
الأغوال الكاخة من العصبىات الكبرى والصغرى .

لقد استطاعت الهند - وهى أمة وثنية - أن تتخلص من أوزار لم تزُ بعض بلاد  
الإسلام تعاني قيودها .

وأنواع العصبىات والتعصب التى تشيع فى العالمين - الشيوعى والرأسمالى -  
أرقى من الضور البدائى الذى يغلب على أرضنا .

فرييس الولايات المتحدة - مثلاً - وصل إلى منصبه بعد أن تقلب فى ماضيه  
بين مهن تافهة - على ما نفهم - أو وضعية - بتعبير أبناء البيوتات الأصيلة (!) .

ويستحيل على مثله لو كان بين ظهرانينا أن يحوز معشار هذا النجاح ، لأن  
الانتماء إلى أسرة رفيعة العماد شرط الترشيح لرياسة إقليم صغير فى بلادنا العزيزة ،  
وإن لم يكن شرط التقدم لرياسة الدولة الأولى فى العالم أجمع .

وهذا مدى فهمنا ، وفهم غيرنا لحديث محمد بن عبد الله ﷺ : «من أبطأ به  
عمله لم يسرع به نسبه» .

وقوله لابنته : «يا فاطمة بنت محمد لا أغنى عنك من الله شيئاً» .. وتحذيره  
لأسرته بقوله : «لا يأتينى الناس بأعمالهم وتأتونى بأنسابكم» !!!

\* \* \*

وقد تكونت فى بلاد الإسلام عقدتان شنيعتان كأثر حتمى لتغلغل العصبىات  
فى كيانه ، وهيمتها على مقدراته :

أولاهما : هوان الكفايات الخاصة وكساد سوقها ، وإحساس الكثير أنها لمن تصل  
فى جدواها ما يصل إليه الحظ المواتى ، يمهده نسب عريق أو جاه وثيق .

وقد تخلخل ضغط هذه العصبىات قليلاً مع تقدم العلم وشیوعه .

ومع ذلك فإن رجلاً يقضى فى تحصيل العلم عشرين سنة ، قد يسبقه رجل يجىء  
بشهادة ترفع نسبه إلى فلان .

ولن تكون مناعته الاجتماعية على كل حال مناعة رجل ذى أسرة ضخمة .  
والعرب يقولون : إذا كان الرجل أبا عشرة ، وأخا عشرة ، وحال عشرة فقد عز !!  
وفى قبائل العرب ، وقرى الصعيد ، بل عندما كنت فى قطاع غزة ، بقية ما أبقى  
الأقوياء من فلسطين المأكولة ، كنت أنظر محسوراً إلى هذه العصبيات المتنايزة  
بالألقاب المعترزة بالأحساب .

ثم ألقىت النظر إلى أحوال اليهود داخل إسرائيل حيث لا عزوة ، ولا أسرة ، ولا  
سناد ، إلا الكفاية الخاصة ، يجيء بها الإنسان مطارداً من الدنيا ، فيأوى فى هذه  
البيقع إلى جهده وكده فحسب .

مع هذا كانت أفواه تفتتح - وددت لو حشيت بالنعال - تقول : نحن أبناء  
الاشاوس . . . أولئك شذاذ الأفاق الـ . . . ما هذا العمى ؟

لقد اغتاظ نبي الإسلام أشد الاغتياظ من هذه النزعة السخيفة عندما قال :  
« ليتهاين أقوام عن الفخر بأبائهم الذين ماتوا ، إنما هم حطب جهنم أو ليكوننَّ  
أهون على الله من الجعل الذى يدهده الخراء بأنفه . . إن الله أذهب عنكم نخوة  
الجاهلية وتعظمها بالآباء » .

ما قيمة شريف من بنى هاشم ثقافته فك الخط ، إلى يهودى اخترع الغازات  
الخانقة ؟

وبأى أصل فى دين الله أو فى دنيا الناس يستحق هذا أن يشرف ؟ وهذا أن  
يتضع ؟ إذا كان حظ هذا من الإسلام أن يحفظ اسم أبيه ، وحظ هذا من اليهودية أن  
يتعلم ؟

وما زلت أذكر مساخر الحرب الأخيرة بين العرب واليهود ، كانت الصحف تنشر  
أسماء قادتنا الكبار ، ومن بين يديها ومن خلفها مجموعة ألقاب !!

والغريب أن الذين هزمهم رجال يعدون فى الجاهيل ، لم يطنطن بهم أحد ، لأنه  
فى المجتمعات السليمة تتقدم الأعمال أولاً ثم يُذكر - بعدئذ - أصحابها .

أما فى المجتمعات المنحطة ، فإن الأسماء تذكر أولاً ثم تتصيد لها الأمجاد .

هذا هو منطق العصبيات المسيطرة !!

\*\*\*



وثانية العقدين اللتين خلقتهما العصبيات : التواؤم على كتمان الحقائق  
وتضخيم التوافه وتعميم الفساد .

ففى كنف هذه العصبيات المجرمة تفهم الأمة الأسور فهما مقلوبًا ، فتشبه راكب  
القطار الذى يعتقد أن الأشجار والأنهار على كلا الجانبين تجرى ، وأنه واقف فى  
مكانه ، وهذه الجهالة المركبة أفقدت أمة الإسلام خصائصها الجلى .

فإن الله لما أثنى على المسلمين بخير ما فيهم قال : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ  
لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (١)

أى إن إحقاق الحق وإزهاق الباطل وإقرار الإيمان هى صفاتنا التى تتميز بها .  
لكن الذى يحدث الآن ، أن هناك جرائم خلقية واجتماعية وسياسية لا يجرؤ  
العتاة على ارتكابها فى أى بلد من بلاد العالم ترتكب فى بلادنا دون تكبير ولا  
محاذرة ، والشياطين الخرس مكلمو الأفواه !!

وإن هناك أنظمة ومناهج هى الإصلاح المصفى ، لا يوجد فى أقطار الدنيا قطر  
أحوج إلى تطبيقها منا .

ومع فقرنا الملح إليها فإن مردة العصبيات يعوقون انتفاعنا بها .  
وليت الشياطين الخرس بقيت مكلمة الأفواه . فلم تأمر بمعروف ولم تنه عن  
منكر .

لقد اشتغلوا بحرق البخور ، وإدارة مجامرها لتعطير مجالس الظلمة .  
والحق أن التعلق بهذه العصبيات ضرب من الوثنية الطاغية ، وأن إضراره بعقيدة  
التوحيد لا يقل عن تعلق الجاهلية بـ «ود» و «سواع» و «يغوث» .

\* \* \*

أو ليس من المضحك أن تسمع بعدئذ عن دعاية للإسلام فى الخارج ؟ وتبشير  
ببإدائه ، إن أمتنا تأخرت فى داخل حدودها برغم أنف دينها .

كم من منكر اجتماعى وسياسى توظفت بيننا أركانها . . . !

وكم من معروف اجتماعى وسياسى مُسحت عندنا معالمه . . . !

(١) آل عمران : ١١٠ .

إن المراحل شاسعة جداً بين «كُتِّمَ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ»<sup>(١)</sup> وبين الأوضاع المزرية التي تضطرب فيها أمة تقسّمتها العصبية ، وأنامتها تحت وطأة رجعية مخرفة ملتأثة . . هي والجاهلية الأولى سواء .

وقيل أن بنجاح حكماء الإسلام في إنقاذ دينهم من براثن هذه النزعات ، ويخلصوا أمتهم من طغيانهم المحتاح ، هبت على أرض الإسلام عاصفة أخرى عقيب سقوطها في أيدي المحتلين الأجانب ، وسعيها الجاهد للتحرر من هذا الاحتلال .  
فقد تيقظت نزعات وطنية حادة لمقاومة الأعداء الدخلاء .

ورأى الوطنيون الجدد أن يجعلوا من مشاعر القومية الخالصة أساساً لبناء الدولة الحديثة في الشرق الأوسط المجاهد .

### الإسلام والوطنية :

ونحن نفهم أن يحتشد المواطنون صفاً واحداً لمقاومة خصم لدود ، لكننا لا نفهم أبداً أن يتم ذلك على حساب الإسلام .

فبأى وجه ، ولأى حكمة ؟ يُطلب من المسلمين أن يتجاهلوا قرآنهم ، ويجحدوا أحكامه باسم الوطنية؟!!

وبأى وجه ، ولأى حكمة تجرح عقائدهم ويلوث تاريخهم ، وتصور رسالتهم على أنها نهضة ظهرت في العصور الوسطى ثم اختفت . . . وأن تطور الزمن وارتقاء الحياة يجعل الحديث عن العمل بها لغواً؟!!

إننا نتهم النوايا الدفينة وراء هذه الحملات السفيفية ، وهي نوايا لا صلة لها بوطن .

وإذا كان لا بد من بيان صلتها فستكلم كثيراً عن سلسلة التآمر الصليبي ضد الإسلام وأهله ، وحكمه في شتى العصور .

(١) آل عمران : ١١٠

إن المسلمين يعرفون دينهم على أنه عقيدة نفسية وشرعية اجتماعية ، وكتابهم ينص على هذه الحقيقة الكاملة .

والنصارى يعرفون دينهم على أنه عقيدة نفسية فحسب! وهم لا يزالون - بعد بذل الضمانات حفظ عقائدهم - أن يحكموا بشرع روماني أو إسباني أو أمريكي .

فأية غضاضة في أن يتركوا المسلمين يطبقون شرائعهم ليعيش الجميع في ظلها ؟ يعيش المسلمون في ظلها وقد أحسوا أنهم أدوا واجبهم نحو ربهم . ويعيش النصارى في ظلها لأن الشرائع لديهم سواء .

فلماذا يعترضون على أمر ينفع غيرهم وليس فيه البتة ما يضرهم ؟ إن اخكم الإسلامى لا يصادر عقيدة أخرى ولا يعطل عبادة أخرى ؛ لأنه يقبل في يسر أن تجاوره أديان أخرى ، وأن يعيش مع أتباعها في سلام .

لذلك نحن نستنكر أن يثار غبار مفتعل حول عودة التشريع الإسلامى . وأن يملأ الجو بالأراجيف كلما طالب المسلمون بتنفيذ أحكام القرآن .

ولنفرض جدلاً أن التشريع الإسلامى قاس فى عقاب بعض الجرائم ، فما دخل الآخرين فى ذلك ، وهو سينفذ فى أرض تسعة أعشارها مسلمون ؟ أعنى أنه فى كل مائة مجرم يقعون تحت طائلة القانون ، سيكون نحو التسعين من المسلمين ؟

فالقسوة المزعومة فى هذا التشريع ستنصب على رؤس أتباعه قبل غيرهم . فما معنى الاعتراض بعد ذلك على عودة الشريعة الإسلامىة ، من أبناء المثل الأخرى ، أجنبى كانوا أم مواطنين ؟

إننا مكرهون بإزاء هذا الموقف التابى ضد التشريع الإسلامى إلى تقرير عدة حقائق ، لقد حدث فى الثورة الاستقلالية سنة ١٩١٩ أن اتحد المصريون جميعاً ضد الإنجليز .

ويظهر أن الاتفاق بين زعماء المسلمين والنصارى يومئذ كان على أن ينسى الجميع أديانهم فى سبيل طرد العدو المشترك ، وهو اتفاق غريب ! وتنفيذه أغرب !

أما أن الاتفاق غريب ؛ فلأن المسلم لا ينبغي أن ينسى دينه ، ولا أن يكلف غيره  
بنيان دينه ، ومجاهدة الغاصبين من المستعمرين لا تتطلب شيئاً من هذا .

وأما أن التنفيذ أغرب ؛ فلأن الذى حدث هو أن الزعماء القوميين من المسلمين  
نسوا الإسلام والتصرانية جميعاً .

وأما الزعماء القوميون من النصارى فقد نسوا الإسلام فقط ، وذكروا التصرانية  
جيداً .

فلم تخلص سنوات قلائل على إبرام الاتفاق الروحي بين الفريقين حتى كانت  
الإدارات المصرية تعج بكثرة ظاهرة من الموظفين النصارى !! . . .

\* \* \*

أهذا اتفاق شريف بين مواطنين مخلصين ، أم خديعة لإقصاء الإسلام وتغليب  
غيره عليه .

إننا نعترف بأن للحكم الدينى سمعة سيئة ، ولكن . . . أى حكم ؟ وفى أى دين ؟  
كتب دولة السيد « محمد ناصر » رئيس وزراء إندونيسيا السابق كلمة يجيب بها  
عن هذا التساؤل قال فيها :

« كلما نادينا بحكومة إسلامية فى أى مكان من العالم الإسلامى انزعج لذلك  
غير المسلمين ، وفهموا أننا نريد حكماً غامضاً رهيباً كالحكم الإلهى الذى عرفته  
أوروبا المسيحية فى القرون الوسطى .

إن ذلك فهم خاطئ للإسلام ، ولمعنى الحكومة الإسلامية كما يدركه  
العاملون لها .

فليس فى الإسلام قديون ، ولكن هناك علماء وفقهاء فى مختلف شئون  
الدين .

وهم ليسوا قديسين يؤدون الشعائر باسم الكهنة ، إنما هم أئمة بين يدي شريعة  
واضحة ، يستطيع كل مسلم - إذا تعلم واجتهد - أن يعرف أحكامها .

ثم إن الأئمة الرسميين ليست إمامتهم فرضاً في هذا الدين ، ولكنها تنظيم إداري اقتضته الحاجة انعملية للمسلمين .

ليس هناك في هذا الإسلام الذي تؤمن به قديس باسم السلطة الكهنوتية ، ولا سلطة قديسية لها دور خاص في الحكم أو التشريع أو الإدارة أو القضاء .

وأوضح من ذلك أنه لا يوجد في الإسلام كنيسة ذات كيان مستقل داخل الدولة . بل يجب أن يقوم الإسلام - كعقيدة - في كل ناحية من حياة المسلمين الفردية والجماعية ، الشعبية والرسمية .

وهكذا يحتضن الإسلام حياة الأمة كلها ، ولا يعترف بالفصل بين الدين والمجتمع والدولة ، ويظل مع ذلك بعيداً كل البعد عن الحكم المقدس البيغض .

لست أعتذر عن الإسلام ، فالإسلام أعز من ذلك ، وهو لا يحتاج إلى من يعتذر عنه .

وإنما أردت فقط أن أزد شبهة عميقة الجذور في أذهان الغربيين ومن ذهب مذهبهم .

أما إذا كان المقصود أنهم يعيبون علينا تديننا ، فليسمحوا لي أن أكون صريحاً .

إن أكثر الأمريكان يفكرون في بلادهم وأنفسهم كمسيحيين ، ورئيسهم الراحل « روزفلت » كان مسيحياً سافراً . وكان لا يغفل المسيحية في أي خطاب وجهه إلى العالم في أثناء الحرب العالمية الأخيرة .

والإنجليز كذلك مسيحيون ، دولتهم مسيحية ، وملكهم هو رأس الكنيسة وحامي الإيمان المسيحي ، ولذلك فإن طقوس الكنيسة الدينية تحتل مكاناً كبيراً من اهتمام الدولة .

والهولنديون مسيحيون ، اشترطوا في دستورهم أن يكون الملك بروتستانتي العقيدة ، بل إن هولندا حكمت حكماً كنسياً من ١٦٠٣ - ١٩٤٠ .

هذه الدول كلها ، ومعها غيرها من دول أوروبا المسيحية - حتى فرنسا البعيدة عن الدين في جهازها الرسمي - قد ظهرت النشاط التبشيري المسيحي في آسيا وأفريقيا وأستراليا ، وخاصة في البلاد المستعمرة وشبه المستعمرة .

حتى أنه ظل يقال إلى القرن التاسع عشر : إن وسائل « أوروبا » في حكمها الاستعماري ثلاث : « التجارة ، والتبشير ، والحرب » .

غارة على الإسلام :

بيد أن الإسلام - ولما يستشف من جراحات العصبية القديمة - هوجم في رقعته الرحبة بهذا اللون الجديد من الوطنيات المحدثة .

والقصد البين من وراء هذه العصبية الإقليمية الإتيان على ما بقى من تراث الإسلام وكيان أمته الكبرى حتى تذهب بدءاً مع الأمس الدابر .

وهذه العصبية الوطنية المبتدعة تخالف الشعبوية التي ظهرت قبلاً في تاريخ الإسلام ، واعتبرت حرباً عليه .

فإن الذين حركوا النزعات الجنسية في بلاد الإسلام يمزجون قوميتهم المنتحلة بالإسلام نفسه .

فإن افتخر أحدهم بعربيته أو فارسيته أو تركيته ضمّ إلى هذه النعرة الفارغة أنه مسلم متمسك بتعاليم الإسلام .

أى إنه كان يخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً على نحو ما قال مهيار :

وأبى كسرى على إيوانه ! أين فى الناس أب مثل أبى ؟  
قد ضمنت المجد من أطرافه ، سؤدد الفرس ودين العرب

وهذا منطق لا يعرفه الإسلام .

فكسرى أو رمسيس أو النعمان لا يشرفون أعقابهم ، ولا معنى للفخر بهم .

والرجل يعتد بعمله وإنتاجه وكفايته فحسب .

والإسلام ليس دين العرب ، إنما هو دين البشر قاطبة .

فليس عنصر أولى به من عنصر .

وأياً ما كان الأمر ، فإن هذه النزعة الشعبوية الباطلة ما كانت تجرؤ على هجر الإسلام ومعاداة أحكامه ، كما تريد النزعة الوطنية الحديثة فى أرض الإسلام فى هذه الأيام .

وقد رأيت أن هذه النزعة الوطنية تخالف كذلك قريبتها في أوروبا .

فليس مفروضاً عنى الوطنيين هناك ولا على الساسة المحترفين أن يشمئزوا - كفريق من وطنيين الأحرار وساستنا الكبار - من الاتجاه الإسلامى ، وتهيج ثائرتهم كلما طالب المخلصون لدينهم بتطبيق الشريعة الإسلامية فى الداخل ، واحترام الجامعة الإسلامية فى الخارج .

ونحن نؤكد أن هذه الوطنيات المبغضة للإسلام هى صناعة غربية بحته ، وأنها مظهر لتجاح الغارة الكبرى التى شنتها الصليبية الحديثة على ديننا .

وقد اضطرت هذه الصليبية الحديثة أن تكشف النقاب عن وجهها الكالح لما رأت بوادر تقرب شديد بين المسلمين هنا وهناك .

إنها أعلنت حرباً سافرة على الجامعة الإسلامية<sup>(١)</sup> ، وبعثت فى طريقها العواتق ، واستأجرت أبواق الدعاية لتلقى على الوحدة الإسلامية المنشودة ظلالاً من الريب ، وتتهمها - قبل ميلادها - بأنها أداة لكذا وكذا!

\* \* \*

وقد راقبنا طلائع هذه الحُمَلات المديرة ، فوجدناها تعتمد على صنفين من الكتاب : صنف لا يزال يحمل اسمه المسلم - وإن كان لا يدري عن الإسلام شيئاً - وهو يستمد أصول تفكيره من مذابح أوروبية خالصة .

ويغلب على مسلكه وإدراكه التنكر للأديان جملة .

وهو منطقى مع نفسه فى هذا التنكر ، ولكنه ليس منطقياً مع نفسه حين يُسخر محاربة الجامعة الإسلامية لحساب جهات يهملها القضاء على الإسلام وحده ، حتى يبقى الميدان خالياً للدول المسيحية وإسرائيل .

وقد سخر هذا الصنف بتجاح .

(١) تعود فكرة الجامعة الإسلامية إلى جمال الدين الأفغانى . . فقد سعى إليها ليضم كافة الشعوب الإسلامية تحت راية جامعة ، وقد تحمس لها السلطان عبد الحميد ، لكن سيطرة المستعمر وغزوه انقضى والعسكرى وقفا حائلاً عن فكرة الجامعة الإسلامية وحركتها . انظر د . عبد العزيز الشاوى - الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها . طبعة دار الأجلو ج ٣ .

غير أن النتائج التي وصل إليها أو الظروف التي واجهها أخرج الأمر جعلت فريقاً جديداً من الكتاب الكاثوليك ينزل إلى الميدان ليكتب ضد الجامعة الإسلامية المنشودة .

والكتاب الكاثوليك والذين ظاهروهم في هذه الحملة يقولون :  
إنهم فعلوا ذلك خدمة للعلم المجرد ! وليس كرهاً للإسلام وانتصاراً للمسيحية!  
والدليل على هذا أن يؤلف أحدهم رسالة - في أثناء الدعوة إلى الجامعة الإسلامية - يتهم فيها النبي وصحابته بأنهم قوم أضراهم الجوع وأغراهم بفتح البلاد !

وأن تاريخ الإسلام - مدى أربعة عشر قرناً - كان تاريخ هضم وظلم لأبناء الأديان الأخرى (!) ، وكأنه يقول : هذه صفحتكم السوداء ، فكيف تطالبون بإعادة الإسلام إلى الحكم ؟

من حقنا أن نواجه الصليبية الحديثة بعد هذا التحدي ، وأن نكشف الغطاء عن ماضيها وماضيها ، وأن نفضح السرائر المغبرة التي تستخدم أحط الوسائل للحيلولة دون عودة الإسلام إلى ميدان القانون والحكم ، وإلى ميادين السياسة الدولية .

ولا بأس أن نستعير العبارة التي قدم بها الكاتب الكاثوليكى اعتراضه على إقامة جامعة إسلامية . . قال :

« في هذا الوقت الذى تفكر فيه الجامعة العربية فى توسيع رقعة نشاطها ، وضم جميع الشعوب الإسلامية تحت رايتها . فى هذا الوقت الذى يحبذ فيه نخبة من المسلمين بعث الإمبراطورية العربية القديمة من مرقدتها . . لا نشك فى ترحيب عدد كبير من أقطاب السياسة بكل ما يساعدهم على فهم الأوضاع الصحيحة ، وتوجيه أفكارهم فى سبيل المحافظة على الوئام بين الأغلبية المسلمة والأقلية المسيحية .

وإذا تعذر علينا اقتراح حلول لهذه المسألة فنحاول دراسة بعض وجوهها . . » .



والحق أن الكاتب لم يتعذر عليه اقتراح الحل ، كيف وهو مستقر في بؤرة شعوره أن الحل المطلوب هو إمامة كل محاولة لإقامة دولة إسلامية في مصر ، وإمامة كل محاولة كذلك لإنشاء جامعة إسلامية في العالم .

وليس هذا رأى شخص فذ حتى نطرحه جانباً ، بل هو رأى هيئات منظمة مدعمة تواصل الليل بالنهار لبلوغ أهدافها .

فهي - في قلب بلاد الإسلام - توهم أن الأقليات ترفض كل الرفض عودة المسلمين إلى شريعتهم .

وهي ... خارج بلاد الإسلام - توهم أن الوحدة الإسلامية خطر داهم على أمن العالم . !

أليس الاستعمار هو سياج الأمن للعالم المنكوب ؟

يجب إذن أن نكون ذبلاً خسيساً لإحدى الجبهات المتخاصمة ، وأن تنتشر الفتوق الخطيرة في كياننا الكبير ، وأن نستورد فقهننا وفكرنا من « أوروبا » .

والا فنحن دعاة إلى دين خطر على الأقليات وعلى العالم أجمع . .

\* \* \*

إن للصليبية الحديثة مآرب واضحة ، إنها تحاول أن تجعل من انكسار المسلمين عسكرياً ارتداداً عاماً عن الإسلام .

ولما كان تنصير هذا الجيل من المسلمين مستحيلاً ، فهي تعمل ابتداءً على خلخلة يقينه ، وتشكيكه في فكرة التدين على العموم .

والمرحلة الثانية تقوم على حركة تقرب ، وموادة بين جيل منسلخ عن عقائده الحقّة ، وبين أبناء الدول المسيحية الغالبة .

أما المرحلة الأخيرة فالمفروض فيها أن تمحي معالم الإسلام من أقطاره العتيقة ، وأن ينصّر ما يمكن تنصيره ، ويستأصل ما يستعصى على الردّة .

وبهذا الأسلوب تنجح الصليبية الحديثة حيث عجزت جرثومتها في القرون الوسطى .

غير أن هذه الخطة سوف يلحقها الفشل الذريع لو قامت في الشرق الأوسط دولة مسلمة حقاً ، أو تماسك المسلمون في جامعة تلم شعئهم وتجمع شملهم .

ومن ثم يبذل أعداء الإسلام جهود الجبابة لتعويق أية نهضة تعمل على إحياء الجامعة الإسلامية ، أو تسعى لتحكيم الفقه الإسلامي في بلاد الإسلام .

وليس من المصادفات العارضة أن تتولى «جماعة الشبان المسيحيين» في مصر .. ورئيسها الفخري سعادة سفير بريطانيا العظمى - أن تتولى علناً المعارضة لفكرة التكتل الإسلامي ، وأن تتولى فروعها في صعيد مصر إثارة الشغب الطائفي كلما اعتدلت نسبة الموظفين الأقباط مع إخوانهم الموظفين المسلمين في الوظائف الحكومية .  
والحجة الظاهرة أن هذا اتجاه رجعي ردي .

والعلة الدفينة هي الكره العنيف للإسلام وأهله ، وتببيت الشر والغدر لحاضره ومستقبله .

فهل يعقل أن يكون التمسك بالإسلام رجعية سخيفة ، والتمسك بالنصرانية أو اليهودية تقدمية لطيفة ؟

ولنواجه الحقيقة الصارخة :

إن إنجلترا وأمريكا وفرنسا ومن لف لفهم ، هم قادة الحملة على الإسلام ، وواضعو سياسة استئصاله جبهة واجتبالاً .

وليست الجبهة الشرقية بأقل منهم أضغاناً على هذا الدين ، ورغبة في القضاء على حكمه .

وما أكثر حكامنا الذين حبسوا في هذه المصيدة ، وداروا بأفكارهم داخل جدرانها .  
قرأت هذا النبأ في مجلة محترمة :

« تتصادم اليوم نظرتان سياستان خارجيتان ، إحداهما - وهي القديمة - ترى أنه من المصلحة أن تظل مصر معنية بالشئون الإسلامية والعربية والشرقية ، وبشئون القضايا التحريرية المختلفة ، ولو أدى ذلك إلى دوام الارتظام مع بعض الدول الكبرى .

وأصحاب هذه النظرية لا يتوقعون أي أمل في عدالة هذه الدول ، ولا في إنصافها للقضية المصرية على أية حال .

أما النظرية الثانية - الجديدة - فهي ترى أنها في حاجة إلى التفرغ للقضية المصرية ، وإلى عدم التشويش عليها بقضايا الآخرين - وإن كانت عزيزة - إلا في حدود القدر المعقول من الاهتمام .

ونظريتهم تركز على أن مثل هذه المهادنة قد تريح لمصر بعض الأنصار في هيئة الأمم المتحدة » .

\* \* \*

هذا الكلام لا يجوز أن يمر في هدوء ، بل إنه يتيح لنا فرصة إبداء رأينا الصريح في قضيتنا الخاصة ، وقضايا المسلمين عامة ، وقضايا المضطهدين والمستنزلين في بقاع الأرض كلها ، مهما اختلفت أديانهم وألوانهم .

ونحب أن نصف موقف حكوماتنا السابقة والحاضرة وصفاً دقيقاً .

فهي لم تعنْ بشئون العرب والمسلمين إلا في حدود ضيقة ، وتحت عناوين مبهمه ، وبالقدر الذي تسمح به السياسات القومية المنكمشة في تخومها المنلخه عن دينها .

السياسات التي تتجاهل أحكام الإسلام وتستحيى من الظهور به في مجامع العالم الضخمة .

وأقرب الأمثلة إلى أذهاننا أننا لما اعترفنا بإندونيسيا دولة مستقلة تحررت من طغيان هولندا ، واستردت حقوقها المغتصبة بالحديد والنار .

قيل لنا : إننا سارعنا إلى تأييد إندونيسيا في كفاحها الظافر بدافع من التعصب للإسلام .

ونعت علينا دول أوروبا الفاجرة هذه العاطفة المعقولة .

والغريب أن ساستنا سارعوا إلى الدفاع عن أنفسهم أمام الاتهام الخطير الموجه إليهم ، فقرروا أنهم لم يقفوا بجانب إندونيسيا دفاعاً عن الإسلام وانتصاراً لأهله ، بل احتراماً للحق المجرد ، واستنكاراً للعدوان المجرد ، دون النظر إلى وحدة الدين بين مسلمي مصر وجاوه .

كأن التمسك بالإسلام معرة ، والانتساب إليه سبة .

أما اجتماع أساطيل أوروبا في مياه اليونان ، وتحصيمها للأسطول المصري ،  
وتخفيضها اليونان من سلطان الدولة التركية بدافع من الحمية الدينية المحضة : فذلك  
أمر لا غبار عليه !!

وفي مأساة فلسطين حرصت دول الجامعة العربية على إقصاء الإسلام عن ميدان  
السياسة ، وأعلنت أنها تدافع عن عرب فلسطين كبشر بانسين أكلتهم عصابات اليهود .  
ونفذت ولا تزال تنفذ خطتها في إبادتهم ، وإرث أرضهم وديارهم وأموالهم .  
وقد ناشدت الجامعة المسكينة ضمير العالم المتحضر ليوقف هذه الكارثة الهائلة ،  
ولم تجرؤ في مناشدتها الطويلة أن تشير إلى الإسلام بكلمة ، ولا أن تومئ من بعيد  
إلى أن هذا العدوان الصارخ يستفز النيام من المسلمين . .

كلا ، فالجامعة تشكيلة من الدول السائرة في فلك سياسى مرسوم بمهارة .  
وأصرة العروبة بينها كأصرة اللاتينية بين دول أمريكا الجنوبية مثلاً .  
ولعل إنامة الروح الإسلامى كلما استيقظ من أهم الأعمال التى تقوم بها الجامعة الموفقة .  
ونحن لا نظلم ساستنا فنكلفهم فوق ما يطيقون .

إنهم لا يعرفون الإسلام كدولة ذات منهاج وهدف ، تضم الأجناس والألوان كما  
تضم الشجرة الواحدة أنواع الورود ، ترى فيها الأحمر القانى والأصفر الفاقع والأبيض  
الناصح .

إنهم لا يعرفون الإسلام كذلك ، فكيف يفقهون سياسته؟ ويصرون غايته ؟  
ومنذ سنين سئل رئيس وزارة « مات هذا الرئيس منذ مدة » ماذا صنعت لقضية  
فلسطين ؟

فقال : أنا رئيس وزارة مصر ، لا رئيس وزارة فلسطين !!

وكان الرئيس المذكور عائداً من لندن بعد مفاوضة فاشنة لحل القضية المصرية .  
ولولا بقية من المحافظة على التقاليد القديمة ، ولولا التوجس من السفور بنبيذ  
الإسلام والعلانية بهجر أحكامه واتجاهاته ولولا غليان الرأى العام بين الحين والحين  
غضباً لدينه وسخطاً على خصومه ، ولولا نفر من الحكام لهم ضمائر وشرف تسعد  
بهم مناصبهم على فترات متباعدة .

لولا ذلك لانقطعت صلة مصر بالإسلام فى الميدان الدولى ؛ ولصارت صلتنا بشقيقتنا فى الدين كصلتنا بسويسرا أو اليونان .

وقد أثر هذا الموقف النبى فى أحوالنا كلها فزادها تعقيداً وارتباكاً ، وجر علينا الفشل الذريع فى سلمنا وحرينا على سواء .

والعلاج ؟ .. ما هو ؟ .. وأين السبيل إليه ؟ ..

العلاج فى أن نبنى سياستنا الخارجية على دعائم إسلامية بيّنة ، وأن نعود إلى الإسلام فى باطن أمرنا وظاهره . وأن ننبذ سياسة التآرجح والميوعة أمام الكتل الدولية التى مزقت الحجاب عن نياتها ، وبارزتنا بالعدوان والتحدى ، ووضعت خططاً مآكرة لإهلاكنا .

ولن يستطيع جبار مهما أوتى من سلطان أن يفصم عرا الأخوة بين مسلمى الصين ومسلمى المغرب ومسلمى هذا الوادى .

إن الاقتراح القائل بفصل السياسة المصرية عن السياسة الإسلامية هو تمش مع رغبات أوروبا فى تفتيتنا دويلات متقاطعة ، تشغل إحداها بشئونها عن الأخرى .

بل لعل أوروبا تطمع فى أن تضرب بعضنا ببعض ، ما دامت أصرة الدين قد شلت تماماً عن العمل .

وليس ذلك بمستبعد ، فإن أوروبا صنعت ذلك بنفسها قديماً وحديثاً .

وهذا الكلام ينطوى على أمل باطل فى عدالة موهومة .

لا .. بل هو ينطوى على مساومة خسيصة فى سوق ملعونة .

إذ كيف نتربف لفرنسا بالإغضاء عن المذابح الشنيعة التى توقعها اليوم بالمغاربة ؟ وهل نتوقع من القدر - إذا اقتربنا هذا الجرم - إلا أن نلقى المصير نفسه على يد الجزائرين أنفسهم ؟

إذا كنا نتبع فى سياستنا منطق الإسلام ؛ فهذا كتاب الله يفرض علينا أن نحقق العدالة حيث كنا ، وأن ندعو إلى الإنصاف فى كل محفل لا نبالى بقلة أو كثرة ، بصداقة أو عداوة ، بغنى أو فقر .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ  
الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدُوا  
وَإِن تَلَوُوا أَوْ تَعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾<sup>(١)</sup>.

وإذا كنا نتبع في سياستنا منطق الرجولة والخلق ، فهل من الرجولة والخلق أن  
نشغل أذيالاً لسماسة المروءات والأعراض عن بيعونها بشهوة عارضة؟  
وإذا كنا لا نتبع في سياستنا حقاً ولا عدلاً ، فلماذا نعيب على أكلى حقنا  
ونُهَاب خيراتها؟

إن الخير كل الخير لأمتنا أن نتمسك بالإسلام جملة واحدة وأن نعيش به وله ،  
وَألا تفتتها المظاهر التافهة عن هذه الحقيقة الجليلة .

روى الحاكم عن طارق قال : « خرج عمر إلى الشام ومعنا أبو عبيدة فأتوا على  
مخاضة - وعمر على ناقة له - فنزل وخلع خفيه ، فوضعهما على عاتقه ، وأخذ  
بزمَام ناقته ، فخاض - في الماء - فقال أبو عبيدة : يا أمير المؤمنين ، أنت تفعل  
هذا ؟ ما يسرنى أن أهل البلد استشفروك !

فقال عمر : أوه ! لو قال هذا غيرك يا أبا عبيدة لجعلته نكالا لأمة محمد ! إنا  
كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام ، فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله ، أذلنا  
الله ... » .

إننا نسوق هذه الحكمة لرؤسائنا ...

ولعل الرجال الغارقين في أردية الحرير وألوان الدعة عندنا يستمعون إلى قصة عمر  
الخافي وهو يحمل نعليه ، فيتصاحكون من بداوة الحكام الأولين ، ويتندرون فيما  
بينهم بطرائف العصور الأولى ...

ويسرنا أن نضع تحت أعين ساداتنا الناعمين هذه القصة :

روى «ألكسندر ويرث» وهو كاتب إنجليزي قضى سنين الحرب الأخيرة في  
«روسيا» قال :

(١) النساء : ١٣٥ .

« ربما لا يكون ستالين منزهاً عن الأخطاء ، ولكنى لن أنسى أبداً هذه القصة التى تكشف عن الجانب الإنسانى فى نفسه .

فقد فاجأ مرة مركز قيادة « زوكوف » بزيارة غير مرتقبة ، فى أحلك أيام الحرب الألمانية الروسية .

وكان « زوكوف » قد عاد من الميدان مرهقاً ، فاستلقى على فراشه بثيابه ، واستغرق فى النوم .

ودلف « ستالين » على أطراف أصابع قدميه ، فألقى حذائى القائد مبتلين ، وخشى أن يصاب من جراء ذلك بضرر ، فخلعهما برفق عن قدميه ، وحملهما إلى ياور القائد قائلاً :

- من العار أن تترك عظيمًا مثله ينام بحذاءيه مبتلين ، جففهما فى الحال وأخبره عندما يستيقظ أننى أنتظره .

وارتبك الياور فما أن انصرف « ستالين » حتى أيقظ « زوكوف » وأنبأه بالزيارة والرسالة .

وأسرع القائد فليس حذاءيه ولمَّا يجفأ ، ويادر إلى موسكو .

وإذ دخل على ستالين ، ألقى هذا نظرة على الحذاءين ثم قال :

«مازالا مبتلين ؟ . إن ياورك مهمل يا صديقى ، وجدير بك أن تتخلص منه ، ثم أرسل يستحضر له حذاءين جديدين » .

إن الصُّغار صغار الأنفس ولو عاشت فى أبراج .

وإن العظمة لا يחדشها أن تخوض فى الأوحال ولا أن تحمل الأحذية .

وددنا لو أن رجالنا اعتزوا بالإسلام وأشربوا روحه الكريمة ، ثم واجهوا ساسة الدنيا أجمعين .

\* \* \*





(٢)

**المسلمون وأهل الذمة**

لا أريد أن أذكر اسم هذا الكتاب ولا اسم مؤلفه<sup>(١)</sup> . وسأعرض في فصول متتابعة لحقائق الموضوع الذي عالجته ، وسأكشف الغطاء عن نواحيه كلها .

إن المؤلف يمثل كثيرين ممن يختبئون خلفه ، ويؤزونه على متابعة نشاطه ضد الإسلام .

وكتابه حلقة من سلسلة لا تخفى أطرافها ولا أهدافها .

وقد اصطنع موقف الباحث المحايد ، ولبس مسوح العالم المتجرد . . وانتهى من تحوالة في ثلاثة عشر قرناً على دخول الإسلام مصر إلى النقط الآتية :

● أن الفتح الإسلامي غارة عربية قامت بها قبائل كانت تشتغل قديماً بالسلب والنهب ، وأن العامل الديني يعتبر ثانوياً إلى جانب العامل الاقتصادي .

● وأن هؤلاء الغزاة هم بالنسبة إلى الرومان سادة جدد .

ومن ثم فهو يصفهم بأنهم محتلون ومستعمرون ، وأن مسلكهم في مصر قام على استنزاف خيرها ، واستدلال أهلها - يعنى بهم الأقباط - .

● وأن الشريعة الإسلامية تقوم على تأريث العداوة ضد أهل الذمة ، وتضع سياسة دائمة لإهانتهم وعزلهم عن المجتمع العام .

● وأن تاريخ الخلفاء والولاة من بدء الإسلام إلى العصر الأخير شاهد يصرخ بما أوقعه المسلمون من مأس ومصائب بغيرهم .

● وأن على الذين لم يدينوا بالإسلام أن يفقهوا الطبيعة الجافة لهذا الدين وأن يتوقعوا الصراع الدامي حين يرتبطون بعلائق مع أهله .

وتدليلاً على هذه النقط التي ملأ بها كتابه نقل نصوصاً من القرآن بعد أن حرفها عن موضعها .

ونقل كذلك وقائع من التاريخ بعدما أبعدها عن ملاساتها .

وتجاهل من نصوص الإسلام ، ومراحل تاريخه الطويل ما يدحض مزاعمه الجريئة .

(١) كتب أحد المسيحيين كتاباً شديد الطعن في الإسلام والشريعة الإسلامية . . وأعلن عدم مناسبة الشريعة الإسلامية لقيادة أوجه الحياة . . إلخ . وقد حرص الشيخ ألا يذكر اسمه أو كتابه نكراناً له إلا أنه ركز ردوده على موضوع الكتاب لا على أسماء . . المحقق .

واعتمد على مصادر صليبية ، وحوادث وهمية في ملء أكثر من ثلاثمائة صفحة باستقراءات واستنتاجات تزود القارئ بفكرة واحدة :

وهي أن الإسلام منذ ظهر وهو يعيث - في مصر وفي غيرها - فساداً ، ويوسع الأقليات النازلة بأرضه نكالاً واضطهاداً!

ولولا أن المؤلف يحتل وظيفة كبيرة في هذه البلاد ، ولولا أن المصطادين في الماء العكر سيطيرون بكتابه إلى كل أفق ، ولولا ثقتنا من أن الكتاب يخدم فكرة تهيين لها وسائل شتى ، ويسخر لها رجال كثيرون لتركنا هذه الحرافات تموت وحدها ويموت صاحبها معها .

بيد أننا مضطرون إلى تتبع أخطاء المؤلف وخطيئاته لفضحها واحدة بعد أخرى إحقاقاً للحق وإبطالاً للباطل ، وقطعاً لدابر المرجفين والمفتريين .

\* \* \*

بنى المؤلف فكرته كلها على أساس عجيب ، اقتنع به وافترض في الناس جميعاً أنهم يقتنعون به ، هو أن القرآن يوصى بالتنكر لليهود والنصارى ومجافاتهم ، ورفض استخدامهم وموالاتهم والمضى في نهبهم وسلبهم .

ويتساءل المؤلف في ص ٣١٣ : «إذا لم يكن العرب في حاجة إلى مساعدة الأقباط ، هل كانوا يتبعون معهم سياسة التسامح؟» .

ثم يجيب حضرته عن هذا السؤال قائلاً : «من الواضح أن النصراني لم يكن موضع اهتمام الحكام» . . لماذا؟ «لأن الإسلام يأمر بنبذهم والبطش به .

ومع ذلك خرق الحكام الشريعة وخرقوا نواحي الفقهاء وأبقوه في وظيفته لأنهم كانوا في حاجة إليه . . ولم يتذكروا الشريعة والفقهاء إلا إذا أرادوا البطش بالأقباط» .

هذا المؤلف المسكين يرى أن الإسلام قد أصدر حكماً مبرماً باستئصال النصارى واليهود ، وأن حكام الإسلام عصوا أوامر دينهم لحاجتهم إلى كفاية أعدائهم !

أرأيت إلى هذا الخف ؟

إنه المحور الذي دار عليه الكلام في مئات الصفحات !! . .

ومن أين عرف هذا الباحث الذكي أن الإسلام يقف هذا الموقف من النصارى واليهود ؟

إنه عقد لذلك فصلاً في أول كتابه أورد فيه ما لديه من أدلة تحت عنوان « الشريعة الإسلامية وأهل الذمة » فذكر ثلاث آيات من القرآن الكريم هي :

﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ... ﴾ (١)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ... ﴾ (٢)

﴿ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةَ يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ... ﴾ (٣)

والآيات المذكورة لا صلة لها البتة بالموضوع الذي تعرض الكاتب له .

بل إننا نكاد نجزم بأنه يعرف ذلك ، وأنه يحرف الكلم عن مواضعه عمدًا .

فهي جميعًا واردة في المعتدين على الإسلام والمخاربن لأهله ، وتنفيير أفراد الأمة من معاونة خصومها واجب يتجدد في كل عصر .

وقد حدث في عصرنا هذا - بل في هذه الأيام القريبة - أن أصدرت الحكومة قانونًا يحرم التعاون مع القوات الأجنبية .

فهل يفهم من ذلك أن مصر تكن البغضاء للعالم أجمع ؟ وأنها تشتري خصومته من غير مبرر ؟

لقد قال السيد المسيح : « ما جئت لألقى سلامًا بل سيفًا ! »

فهل يفهم أحد من ذلك أن رسالة المسيحية إيقاد الحروب في الأرض ، وأنها لا تحيا بين الناس إلا لسفك الدماء ؟ إن هذا فهم أخرق .

ونحن المسلمين لا نتهم النصرانية به ، ولا نفهم من كلمة المسيح هذا المعنى الواسع للخصومة المتحدية أبدًا .

ولو كان المؤلف متحررًا الحق في فهمه لنصوص الإسلام لقرأ عشرات النصوص الأخرى ، بل لأكمل الآيات التي استشهد بها ، ولخرج من ذلك بالحقيقة الناصحة الوحيدة التي يقرها كتاب الله :

(١) آل عمران : ٢٨ . (٢) المائدة : ٥١ . (٣) التوبة : ٨ .

وهي أن الإسلام يدفع عن نفسه إذا هوجم ، ويأمر بمسألة من يتركونه وشأنه ، غير متعرضين لسير دعوته في الأرض ، ولا صادين أحداً عن الدخول فيها . .  
فإذا لمح جباراً يعوق دعوته ، ويهين أمته ، واشتبك معه في حروب باردة تارة ، وحامية تارة أخرى حتى يؤمن طريقه فحسب .



ونقل من كتابنا «الإسلام والاستبداد السياسي» تفسيراً لقوله تعالى :  
﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ...﴾<sup>(١)</sup> . حتى يعرف المخدوعون مبادئ الدين في أوضاعها كما نزل بها الوحي .

«... يجرىء أحدهم إلى هذه الآية فيبترها عما قبلها وما بعدها . . ويفهم منها أن الإسلام ينهى نهياً جازماً عن مصادقة اليهود والنصارى ويوجب قطع علاقتهم ويهدد المسلم الذي يصادقهم بأنه انفصل عن الإسلام والتحق باليهودية والنصرانية والمعنى بهذا التعميم باطل .

والآيات اللاحقة بهذه الآية المرتبطة بها في موضوعها تحدد الموضوع بجلاء لا يتحمل خلطاً .

فالحق أن الآيات نزلت تطهيراً للمجتمع الإسلامي من الأعيب المنافقين ، ومن مؤامراتهم التي تدبر في الخفاء لمساعدة فريق معين من أهل الكتاب أعلنوا على المسلمين حرباً شعواء ، واشتبكوا مع الدين الجديد في قتال هو بالنسبة له قتال حياة أو موت .

فاليهود والنصارى في هذه الآية قوم يحاربون المسلمين فعلاً ، وقد بلغوا في حربهم منزلة من القوة جعلت ضعاف الإيمان يفكرون في التحجب إليهم ، والتجمل معهم فنزلت هذه الآية ونزل معها ما يفضح نوايا المتخاذلين في الدفاع عن الدين الذي انتسبوا إليه : ﴿فَقَرَىٰ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ

(١) المائدة : ٥١ .

تُصَيِّنَا دَائِرَةً فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِي بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿١﴾ .

ثم تستطرد الآيات في توصية المؤمنين بتدعيم صفوفهم أمام المتربصين والمتهجمين تطالبهم بمقاطعة المحاربين للإسلام من أهل الكتاب مسوغة هذه المقاطعة بأنها رد للعدوان .  
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِمَّنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا . . . ﴾ (٢) .

فهل هناك ضمير على دين ما إذا منع أتباعه من مصادقة الذين يتكلمون بتعاليمه ،  
ويسخرون من شعائره ؟ . . . ١ . ٤ . هـ (٣)

أما قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ (٤) فالآية قبلها مباشرة تشرحها : ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ﴾ (٥) .

والمعنى الذي لا يضطرب عاقل في إدراكه أن المقصود بالآية هم الوثنيون المهاجمون للإسلام ، الناكثون بعهودهم معه .

وقد أشبعنا هذا الموضوع بحثاً في كتابنا « تأملات في الدين والحياة » .

فكيف ساع لهذا المؤلف أن ينقل كلاماً وارداً في المشركين الناقضين للعهود زاعماً أنه نزل في أهل الذمة ؟ إن هذا كذب صريح .

والآية الثالثة ذكر المؤلف نصفها الأول فقط لأن نصفها الثاني يكذبه .

فقول الله : ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ ﴾ (٦) . . ثم قوله : ﴿ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ (٧) فيه إشارة بيّنة إلى أن الكلام قيل في حالة حرب يُطارد فيها المؤمنون .

(١) المائة : ٥٢ . (٢) المائة : ٥٧ ، ٥٨ . (٣) محمد الغزالي - الإسلام

والاستبداد السياسي - طبعة دار نهضة مصر . طبعة أولى ١٩٩٧ ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٤) التوبة : ٨ . (٥) التوبة : ٧ . (٦) آل عمران : ٢٨ . (٧) آل عمران : ٢٨ .

وقد تضطروهم الأحوال العصبية إلى اتخاذ وسائل النجاة ، فنبهوا إلى ألا يكون ذلك على حساب إيمانهم .

وقد بلغ هوس الكتاب في اتهام القرآن بأنه يَغري بالعدوان إلى الاستشهاد بقوله تعالى :  
﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾<sup>(١)</sup>

مع أن الآية قيلت بعد غزوة «أحد» تعزية للنبي في قتل أصحابه وتشبيهاً للمسلمين في كفاحهم المتعب مع المشركين . . حتى لا تكسر الهزيمة همتهم فيضعفوا أمام الوثنية العنيدة في جزيرة العرب .

\* \* \*

ولم أر مؤلفاً فقد خصائص الأمانة في البحث والنقل والاستدلال كالجواجة الذي وضع هذا الكتاب .

فقد زعم أن الشريعة سنت «المبدأ الذي يشتد أحياناً على أهل الكتاب ويذلهم» ص ٥٢ ، وأورد من القرآن الكريم الآيات التي رأيتها - وليست لها بموضوعه صلة - وغض النظر عن الآيات التي توصي ببر أهل الكتاب فلم يُشر إليها .

ثم تجاوز السنة المطهرة فلم يعلق بشيء على قول رسول الله ﷺ : «من قتل رجلاً من أهل الذمة لم يجد ريح الجنة وإن ريحها لتوجد من سبعين عاماً» .

وكذلك قوله : «من ظلم معاهداً ، أو انتقصه حقه ، أو كلفه فوق طاقته ، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس ، فأنا حجيجه يوم القيامة» .

ومرّ على النصوص الثابتة والسوابق المقررة في صدر الإسلام ، والتي تنطق بما أفاء الدين على أهل الذمة من رعاية ووفاء ومرحمة ، فلم يكثر بشيء منها . لأن غايته من كتابه تتضح في كل صفحة .

فهو يريد إهانة الإسلام وتشويه تاريخه واتهام أهله بما هم منه براء ، اتهامهم بالتعصب الذميمة ، واستئصال الأقليات التي تعيش بينهم .

فإذا أعوزه الصدق للوصول إلى هذه النتيجة . ففي المعارض والأكاذيب مندوحة .

(١) آل عمران : ١٣٩ .

## مسلك عمر نحو الذميين :

إن الخليفة الراشد « عمر » من أعرف الحكام بطبيعة الإسلام وأدراهم بما يكنه هذا الدين للبشر جميعاً من عطف وود .

وإن ما يحفظه التاريخ من مسلك « عمر » نحو البلاد المفتوحة ونحو أهلها ليس موضع مرأى وريبة .

روى أبو يوسف في كتاب الخراج أن « عمر » مرّ على قوم قد أقيموا في الشمس في بعض أرض الشام ، فقال : « ما شأن هؤلاء ؟ فقيل له : إنهم أقيموا في الجزية ! فكره ذلك ! وقال : « هم وما يعتذرون به ، قالوا : يقولون : لا نجد ؟ قال : دعوهم ، ولا تكلفوهم ما لا يطيقون . ثم أمر بهم فخلّى سبيلهم » .

وهذا الذي رواه أبو يوسف يوافق ما رواه مسلم في صحيحه عن حكيم بن حزام : أنه مرّ بالشام على أناس من الأقباط ، وقد أقيموا في الشمس وصب على رؤوسهم الزيت ! فقال : ما هذا ؟ قيل : يعذبون في الخراج ! وفي رواية : حبسوا في الجزية !

فقال هشام : أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا » .

فدخل على الأمير فحدثه ، فأمر بهم فخلوا .

قال أبو يوسف : وحدث أن مرّ « عمر » بباب قوم وعليه مسائل يسأل ، وكان شيخاً ضريب البصر ، فضرب « عمر » عضده ، وقال له : من أيّ أهل الكتاب أنت ؟ فقال : يهودى .

قال : فما ألباك إلى ما أرى ؟ قال : أسأل الجزية والحاجة والسن .

فأخذ عمر بيده ، وذهب به إلى منزله وأعطاه بما وجده ! ثم أرسل به إلى خازن بيت المال وقال له انظر هذا وضرباه<sup>(1)</sup> ، فوالله ما أنصفناه إذ أكلنا شبيبته ثم نخلله عند الهرم . إننا الصدقات للفقراء والمساكين .

والفقراء هم الفقراء المسلمون ، وهذا من المساكين من أهل الكتاب . ثم وضع عنه الجزية .

(1) أمثاله ومنّ على شاكلته .



والعاطفة التي جاشت بالرحمة في نفس عمر نحو هذا اليهودي البائس ، نبعث من قلب متحمس للإسلام ، متمسك بمبادئه ، وقد كان عمر شديدًا في دين الله ، ولكن الشدة التي عرف بها لا تعنى التعصب الأعمى ، والضغينة القاسية على المخالفين للدين من أهل الكتاب الأولين .

وروى الترمذي عن رسول الله ﷺ : « ثلاث من كن فيه نشر الله عليه كفه ، وأدخله جنته : رفق بالضعيف ، وشفقة على الوالدين ، وإحسان إلى المملوك » .  
وروى يحيى بن آدم في كتاب الخراج : أن « عمر » لما تدانى أجله أوصى من بعده وهو على فراش الموت بقوله :

« أوصى الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيرًا ، وأن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من ورائهم ، وألا يكلفهم فوق طاقتهم » .

وقال الدكتور « ا . س . ترتون » مؤلف « أهل الذمة في الإسلام » .  
وفي الأخبار النصرانية شهادة تؤيد هذا القول . وهي شهادة البطريرك « عيشويابه » ، الذي تولى منصبه ٦٤٧ - ٦٥٧ هـ إذ كتب يقول :  
« إن العرب الذين مكنتهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون . إنهم ليسوا بأعداء للنصرانية ، بل يمتدحون ملتنا ، ويوقرون قديسينا وقسيسينا ، ويتدون يد المعونة إلى كنائسنا وأديرتنا » .

« . . والظاهر أن الاتفاق الذي تم بين « عيشويابه » وبين العرب كان لصالح النصراني ، فقد نص على وجوب حمايتهم من أعدائهم ، وألا يحملوا قسرًا على الحرب من أجل العرب ، وألا يؤذوا من أجل الاحتفاظ بعباداتهم وممارسة شعائرتهم ، وألا تزيد الجزية المجبية من الفقير على أربعة دراهم ، وأن يؤخذ من التاجر والغني اثنا عشر درهمًا ، وإذا كانت أمة نصرانية في خدمة مسلم ، فإنه لا يحق لسيدها أن يجبرها على ترك دينها أو إهمال صلاتها والتخلي عن صيامها » ا . هـ .

إن نصوص هذه المعاهدة التي تمت في مطلع القرن الثالث عشر للميلاد تنبئ عن روح التسامح الذي كان يسود بلاد الإسلام ، يومئذ ، على عكس ما كان يزعم بلاد المسيحية من مجازر ومخازر في معاملة المذاهب المخالفة والأقليات الضعيفة .

قال الدكتور « توفيق الطويل » فى كتابه « قصة الاضطهاد الدينى » تحت عنوان مذبحة الألبين فى سنة ١٢٠٩ .

« أصدر مجلس أفيون قراراً دعا فيه القساوسة إلى مطالبة السلطة المدنية باستئصال الهرطقة وهدد البابا « أنوسنت » باتخاذ قرار الحرمان ضد كل أمير يرفض الاستجابة لهذه الدعوة .

وبعد ستة أعوام قرر مجمع « لاتران » أن يقسم كل حاكم يطمع فى أن يكون فى عداد المؤمنين بأن يجاهد ما وسعه الجهاد ، حتى يستأصل من إقليمه كل من تسمه الكنيسة بالهرطقة .

ولنعد إلى الحديث عن مذبحة الألبين :

« فشا الإلحاد فى لنجيدوك على يد الألبين من رعايا أمير تولوز ، وكان هذا فى عهد « أنوسنت الثالث » الذى بلغت البابوية على يديه أوجها .

فأشار على أميرهم أن يستأصل الهرطقة من إمارته ، فأبى الأمير أن يذعن لمطلبه .

وعندئذ نهضت الكنيسة لإبادة الحركة وأعوانها ، فأعلنت غفران كل ذنب ارتكبه من يجاهد للقضاء عليها ، وصبت عذابها على أعدائها ، ولو كانوا نساء أو أطفالاً وتعقبتهم شتقاً وحرماً وإعداماً .

فانظر إلى الحالة الاجتماعية فى عصر واحد بين بلدين يختلفان فى الدين .

وانظر إلى حمق البابوات وضيق عطنهم وغلظة قلوبهم فى معاملة أعدائهم . !

وقد تدهش إذا علمت أن الهرطقة التى تحاربها الكنيسة لم تكن إلا مقدمات اليقظة العقلية والتحرر الفكرى الذى شمل أوروبا كلها فى أواخر العصر المدرسى .

\* \* \*

ومعاملة الإسلام لمن لا يدينون به من أهل الذمة قامت منذ العصر الأول على قاعدة أصيلة لم يشر حولها نقاش كمبدأ مشروع ، ولم يضطرب تطبيقها على توالى الأزمنة ، إلا فترات شاذة لا يجوز الاكتراث بها أو الالتفات إليها .

هذه القاعدة تقوم على أن « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » .

وقد استقرت الأقليات في الشرق الإسلامي دهوراً في ظل هذا المبدأ العادل ، بينما بدأت الأقليات الإسلامية في الغرب ؛ لأنها لم تجد مثل هذه المعاملة النبيلة . ومن الأدلة الطيبة على ما كانت تسترشد به الحكومة الإسلامية في معاملتها للذميين ما جاء في الأمر الذي وجد بين أوراق البردي اليونانية المحفوظة في المتحف البريطاني ، وعلى الرغم من فساد قسم منها فقد جاء في الباقي ما يلي :

« خوفاً من الله وحفظاً للعدالة والحق في توزيع القدر المفروض عليهم ... «  
« بياض في الأصل » ، رتب ناظرًا يعاونه أربعة من البارزين في كورتك لمساعدتهم في جمع الضريبة ... » .

كما جاء بها : « .. ولا تجعلنا نعرف أنك قد خدمت أهل كورتك بأي صورة من الصور في مسألة الضريبة التي كلفت بها ، وأنت حاييت أو ظلمت أحداً ما في جمعها » .

كما جاء فيها : « فإذا وجدت أنهم قد عاملوا أحداً بلين زائد نتيجة محاباتهم إياه أو أنقلوا عليه لكرهيتهم له ، فإننا سنقتص منهم في أشخاصهم وأموالهم تنفيذاً للشرع .

ومن ثم أنذرهم وحذرهم ، وأخبرهم ألا يرهقوا عاملاً ، وألا يحملوه ما لا يطيق ، حتى لو كان بعيداً عنهم ، أو ليس من زميرتهم في جمع الضريبة ، وتجب معاملة الجميع بالعدل .. إلخ » .

وقد بلغ من مرونة النظام الإسلامي أن اعتبر أهل الذمة جزءاً من الرعاية الإسلامية « مع احتفاظهم بعقيدتهم » .

ومن ثم عقد المعاهدات الخارجية ممثلاً فيها المسلمين والذميين معاً كأمة متحدة .

وقد روى أبو يوسف في كتاب « الخراج » :

لما صالح عبد الله بن أبي السرح ملك النوبة ، تقرر في الصلح أنه أمان وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاؤروهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة . وأخذ النوبيون على أنفسهم العهد بحماية من نزل ببلدهم أو طرقه من مسلم أو معاهد .

واستمتاع الذميين بحريتهم الدينية وضمائهم لمصالحهم العامة كان ملحوظاً في المعاهدات التي أبرمت بينهم وبين المسلمين في إبان الفتوحات الكبرى .

وإليك نص المعاهدة التي أمضاها عمر بن الخطاب مع رسل « سفريوس » أسقف بيت المقدس كنموذج لموقفه مع المسيحيين ، إذ قال - كما روى الطبرى - :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل « إيلياء » من الأمان .

أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمتها وبريئتها ، وسائر ملتها ، أنه لا تسكن كنائسهم ، ولا تهدم ، ولا تنتقص منها ولا من غيرها ، ولا من صليبهم ، ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود .

وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص .

فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم .

ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية .

ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ، ويخلى بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم .

ومن كان بها من أهل الأرض مما شاء منهم قعد ، وعليه مثل ما على أهل « إيلياء » من الجزية .

ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله .

وأنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم .

وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله ، وذمة الخلفاء ، وذمة المؤمنين ، إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية .

وختم عمر الكتاب بتوقيعه وشهد عليه خالد بن الوليد ، وعمر بن العاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، ومعاوية بن أبي سفيان .

وهذا العهد انذى أبرمه « عمر » يتفق مع ما سنذكر بعد من وصايا النبي ﷺ في معاملة أهل الكتاب ، ومع ما استقرت عليه الأوضاع في علاقات المسلمين بغيرهم . ولكن الخواجة الأفاك افترى على « عمر بن الخطاب » أنه كان عدو أهل الذمة ، وأنه شرع لمن عنده ، ولمن بعده من الولاة سُنَّة إهانتهم وإذلالهم وهدم معابدهم وتكسير صلبانهم .

وقد ذكر أن لعمر بن الخطاب شروطاً تضمنها عهد ، تم بينه وبين أهل سوريا نص فيه السوريون على « ألا يحدثوا بيت عبادة ولا صومعة راهب وألا يجدد ما تخرب من كنيسة أو دير ، وألا يمنعوا المسلمين من كنائسهم أن ينزلوا بها ويضعموا فيها ثلاث ليال « كذا » وألا يعلموا أولادهم القرآن !

وتضمن هذا العهد المزعوم كذلك « ألا يتشبهوا بالمسلمين في شيء من لباسهم قلنسوة أو عمامة أو نعلين أو فرق شعر . . إلخ » .

وقد بحثنا عن أصل لهذه الشروط في مصادر الفقه الإسلامى أو كتب الشريعة والسيرة والتاريخ فلم نجد لها أثراً ألبتة .

بل ما وجدناه في كتاب الله وفي سُنَّة رسوله . وفي معاهدات « عمر » نفسه يناقض هذا العهد المكذوب .

وقد علق الدكتور « ا . س . تروتون » مؤلف « أهل الذمة في الإسلام » على هذا العهد بقوله :

« . . في هذا العهد نلاحظ نقاطاً بالغة الغرابة ، وذلك أنه لم تجر العادة أن يشترط المغلوبون الشروط التى يرتضونها ليوادعهم الغالب .

أضف إلى هذا أنه من الغريب أن يحرم المسيحيون على أنفسهم تناول القرآن هم وأولادهم بأية صورة من الصور ، ومع ذلك يقتبسون منه فى خطابهم للخليفة فى قولهم - أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون .

و الأمر المستغرب من الوجهة العامة أنه عهد لم ينص فيه على اسم البلد .

فلو كان صادراً عن دمشق - قصة الولاية - لوردت الإشارة إليها . . » .

ثم قال : « ومن ناحية أخرى فإننا لا نجد قط عهداً مع أية مدينة من مدن الشام يشبه عهد « عمر » هذا بحال من الأحوال إذ كلها عهود بالغة البساطة . . . » .

ثم قال : « . . . إذا تبين لنا هذا ساورنا الشك في نسبة العهد إلى « عمر » . . . » .  
هذا الباحث الغربي يتشكك في نسبة العهد إلى « عمر » .

ولكن الخواجة الجريء على الافتراء يضع شروط « عمر » المزعومة في هذا العهد على أنها بيان لموقف الشريعة الإسلامية من أهل الذمة .  
ومن أي كتب الشريعة نقل هذا العهد ؟

من كتاب القلقشندي « صبح الأعشى في صناعة الإنشا » !  
ولا يعجب المرء لشيء ، عجبه من جرأة هذا الخواجة في اعتبار كتب الإنشاء العربي مصادر للتاريخ . لا بل مصادر للدين نفسه .

وكتاب القلقشندي ألف بعد « عمر بن الخطاب » بسبعة قرون .  
وفيه من الخيالات الأدبية والروايات الشعرية ما يعين التلاميذ على اصطناع الأساليب الحسنة .

وقد نسبوا إلى « عمرو بن العاص » كتاباً في وصف مصر « طولها شهر وعرضها عشر وترابها ذهب . . . إلخ » .

وقد جزم الأدباء بأزه موضوع لا أصل له ، كعهد عمر هذا .

\*\*\*

أخرج أبو داود عن رجل من جهينة أن رسول الله قال :  
« لعلكم تفاتلون قومًا فتظهرونا عليهم فيتقونكم بأموالهم دون أنفسهم وذرائعهم ، فيصالحونكم على صلح فلا تصيبوا منهم فوق ذلك . فإنه لا يصلح لكم » .

وعن العرياض بن سارية قال : نزلنا مع رسول الله ﷺ قلعة خيبر ، ومعه من معه من المسلمين ، وكان صاحب خيبر رجلاً مارداً متكبراً .

فأقبل إلى النبي ﷺ فقال : يا محمد ! لكم أن تذبحوا حمرنا وتأكلوا ثمرنا وتضربوا نساءنا!

فغضب رسول الله ﷺ لما حدث - وقال : «يا بن عوف اركب فرسك ، ثم ناد :  
إن الجنة لا تحل إلا للمؤمن ، وأن اجتمعوا للصلاة ، فاجتمعوا ، ثم صلى بهم» ،  
ثم قام فقالت :

« أبحسب أحدكم متكئا على أريكته قد يظن أن الله تعالى لم يحرم شيئا إلا ما  
فى القرآن . ألا وإنى والله لقد وعظت وأمرت ونهيت عن أشياء ، إنها مثل القرآن  
أو أكثر .

وإن الله لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن ، ولا ضرب  
نساءهم ولا أكل ثمارهم ، إذا أعطوا الذى عليهم » .

وحدث أن يهود « خيبر » أرادوا رشوة « عبد الله بن رواحة » ، ليقبل ما يأخذه من  
خراج أرضهم - على حسب الصلح الذى تم بينهم وبين المسلمين - .

فقال عبد الله : « تطعمونى السحت ؟ والله قد جئتكم من أحب الناس إلى  
- يعنى رسول الله - ولأنتم أبغض إلى من عدتكم من القردة والخنازير ولا يحملنى  
بغضى إياكم على ألا أعدل فيكم . فقالوا : بهذا قامت السماوات والأرض » .

هكذا صنع المسلمون بأهل الكتاب . وعلى هذه العدالة التامة قامت المعاهدات .  
إن رعاية الحق وإقامة العدل هما أساس الصلة التى ينشئها الإسلام مع أبناء  
الديانات الأخرى .

وعبد الله بن رواحة يمقت اليهود أشد المقت ، ولكنه يأبى أن يجور عليهم فى حكم .

وقد روى عن « عمر بن الخطاب » أنه قال لقاتل أخيه « زيد بن الخطاب » :

والله لا أحبك حتى تحب الأرض الدم !

فقال الأعرابى القاتل : أفتظلمنى حتى يا أمير المؤمنين !

قال عمر : لا ! فقال الأعرابى : إنما بأسى على الحب النساء !

ومسلك « عمر » ، « وابن رواحة » وغيرهما ليس إلا استجابة لقول الله تبارك وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى

أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١)

فالعندالة - ولو مع الأعداء المبغضين - خُلِقَ فرغ الإسلام من توفيره في سياسة الجماعات والأفراد . فكيف إذا كانت هذه السياسة تجاه معاهدين مسالمين ؟  
قال الخواجة الكذوب تحت عنوان « عدم منح أهل الذمة الانخراط في خدمة المسلمين » :

« أهملت شروط « عمر » نقطة في غاية الأهمية . وهي : هل يستطيع المسلمون استخدام المسيحيين في أعمالهم ؟

لاشك أن الخليفة لما رأى القرآن أجاب عن هذه المسألة بالنفى ، أهمل ذكرها من جديد ، وتمسك بتعاليم القرآن طول مدة خلافته » . ص ٥٥ .

ثم ذكر المؤلف قصة نقاش دار بين « عمر بن الخطاب » و « أبي موسى الأشعري » . وقصتين أخريين قال : إنهما حدثتا بين « عمر بن الخطاب » و « أبي موسى الأشعري » .

وقصتين أخريين قال : إنهما حدثتا بين « عمر » وبعض قواده .

ورابعة حدثت بين « عمر » و « معاوية » .

وتتضافر القصص التي ذكرها المؤلف على نسبة أمر واحد لعمر :

هو أنه رفض استخدام الذميين لأن القرآن أمر بذلك !

والمؤلف هنا يخرج من فرية ليدخل في أخرى .

فليست هناك شروط لعمر على النحو الذي ذكره .

ولم يحرم القرآن استخدام أهل الكتاب في الأعمال التي يصلحون لها .

وجميع الآيات التي ذكرها في مناظرة اليهود والنصارى مبتوتة الصلة بهذا الموضوع كما أسلفنا .

وجميع القصص التي ذكرها مكذوبة على « عمر » وقادته وصحبه !

وربما منع « عمر » توظيف نفر من أهل الكتاب لتهم خاصة ، ككتبت الرشوة عليهم مثلاً ، أو إضرارهم بالمناصب التي يتولونها .

وهذا المنع عدالة تطبق على المسلمين واليهود والنصارى جميعاً .



ولكن الخواجة يفترى على كتاب الله ما ليس فيه ، وعلى الحكم الإسلامى ما ليس من طبيعته .

والواقع أن الإسلام ينظر إلى من عاهدهم من اليهود والنصارى على أنهم قد أصبحوا من الناحية السياسية أو الجنسية مسلمين ، فيما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات ، وإن بقوا من الناحية الشخصية على عقائدهم ، وعباداتهم وأحوالهم الخاصة .

ومن ثم فهو يقيم نظمه الاجتماعية على أساس الاختلاط والمشاركة . ولا يرى حرجاً من أن يشتغل مسلم عند أهل الكتاب ، أو يشتغل أهل الكتاب عند مسلم .

وإن كان كثير من اليهود والنصارى لا يقدرّون هذا النبل . وربما استغلّوا هذه السماحة فى الإساءة إلى الدين الذى وسعتهم دائرته المرنة . و إلى القارئ الشواهد المبينة على صدق ما أسلفنا .

روى الطبرانى عن كعب بن عجرة أنه اشتغل عند يهودى ، فسقى له إبله كل دلو بتمر ، وأخبر النبى ﷺ بذلك فما أنكر عليه شيئاً .

وروى أبو يعلى مثل ذلك عن « على بن أبى طالب » . وقد استخدم النبى فى هجرته قائداً مشركاً .

ولما فتح المسلمون الأوائل أقطار الدنيا المعروفة يومئذ أبقوا الموظفين فى أعمالهم الأولى ، فلم يكرهوا أحداً منهم على الإسلام ، ولم يفصلوا رجلاً عن عمله بكفران . قال الدكتور « ترتون » :

« .. كانت عادة الحكومة قد جرت على استعمال النصارى الذين قلما خلا منهم ديوان من دواوين الدولة .

ونلاحظ فى سنة ٢٥٣ هـ وجود إيصال ضريبة باللغتين العربية واليونانية . وقد استعملت اللغة العربية لأول مرة فى أعمال الحكومة بأصفهان زمن « أبى مسلم » .

كما أننا نرى رجلاً مسيحياً يتولى إدارة السجن قريباً من الكوفة سنة ٢٦ هـ  
وقت أن كان « الوليد بن عقبة » عاملاً عليها .

ولما تم للعرب فتح مصر أبقوا من فيها من العمال البيزنطيين « ١ . هـ .

\* \* \*

وقد أسرف الحكام المسلمون في استخدام أبناء الديانات الأخرى واستغلوا سماحة  
الإسلام في معاملته لأهل الذمة استغلالاً جعل أحد الشعراء<sup>(١)</sup> يقول - مندداً بعلو  
المنزلة التي وصل إليها اليهود - :

يهود هذا الزمان قد بلغوا      غاية أمالهم وقد ملكوا  
العز فيهم ، والمال عندهم      ومنهمو المستشار والملك  
يا أهل مصر إني قد نصحت لكم      تهودوا قد تهود الفلك

ويبدو أن الموظفين من اليهود والنصارى خانوا الأعمال التي وكلت إليهم ، وانتهزوا فرصة  
توليهم المناصب الهامة ، لخدمة الطوائف التي انحدروا منها ، وإهانة جمهور المسلمين . !  
وقد استقرأنا أحوال كثير من أولئك الموظفين ، فوجدناهم يكيدون للدولة التي  
اتمنتهم ، والأمة التي احترمتهم .

**بين المسيحية والإسلام :**

والأساس الذي تدور عليه معاملة أتباع الديانات الأخرى يختلف في المسيحية عنه  
في الإسلام .

فبينما يقبل المسلمون وجود أديان مغايرة لدينهم ، ويرفضون إكراه أحد على ترك  
مذته ، ويرضون أن يتألف المجتمع من مسلمين وغير مسلمين ، ويشرعون نظماً عادلة  
لتطبق عليهم وعلى من في ذمتهم من مسيحيين أو يهود .

بينما تفعل ذلك ، ترى المسيحية تتبرم بالديانات الأخرى ، وترسم سياستها الظاهرة  
والباطنة لإبادة خصومها أو تحقيرهم وحرمانهم حتى ترغمهم على ترك دينهم ، وتحجيرهم  
على النصرانية جبراً .

(١) وهو الرضى بن البواب ، كما في كتاب « الفاطميون في مصر » لعدكتور حسن إبراهيم حسن .

وبينما يقول القرآن : ﴿لَا إِكْرَادَ فِي الدِّينِ﴾<sup>(١)</sup> تنسب الكتب المقدسة إلى المسيح أنه قال خواربييه : أجبروهم على اعتناق دينكم !

وقد نشأ عن هذا التفاوت بين المبدأين أن حركات التنصير، أو التحريق والاستئصال، كانت ظواهر عامة في تاريخ المسيحية .

ولا يتصور - بدهاة - في قوم تلك أحوالهم أن يوظفوا في حكمهم يهودياً أو مسلماً . أما الإسلام فلا تعرف في تاريخه هذه الفوضى، ولا تعتبر له سياسة عامة ولا خاصة . واستعمائ اليهود والنصارى في الوظائف الكبيرة والصغيرة أمر شائع في بلاد الإسلام إلى هذا العصر .

أما التعصب المسيحي فهو لم يتجه إلى اضطهاد أهل الأديان الأخرى فحسب، وإلى تحريم الوظائف الجليلة والتافهة عليهم .

بل إن أتباع المذهب المسيحي الواحد يحرمون أن يلي عملاً بينهم صاحب مذهب مسيحي آخر .

وقد حدث في القرن الثامن عشر أن قتل محام بروتستانتى لأن القانون الفرنسى يومئذ يحظر مهنة المحاماة على البروتستانت !!

وقد حار هذا الحقوقي البائس بين التعطل والارتداد عن مذهبه إلى الكاثوليكية ليستطيع العمل في مهنته . ماذا يصنع ؟ أترك عقيدته ابتغاء الرزق!

ولكن ارتداده يشير عليه أسرته المتعصبة !!

ثم انتهت هذه الخيرة بمقتله، واتهم أبوه باغتياله، فأعدم !

وقيل : إنه انتحر ياساً، وإن أباه لم يقتله تعصباً لمذهبه الدينى، وتعرف هذه القصة بعاسة «كالا» .

ووقعت في العصر نفسه قصة مشابهة تسمى «مأساة سيرفين» .

فإن امرأة كاثوليكية كانت تخدم أسرة بروتنتانية، فأغرقت ابنتها بالفرار إلى دير كاثوليكي حيث سيمت سوء العذاب لتغير عقيدتها .

غير أن الفتاة تخلصت من عذابها بالانتحار غرقاً في بحر .

(١) البقرة : ٢٥٦ .

فانتهمت السلطات الكاثوليكية أباهما بإغراقها ليحول دون ارتدادها عن دينها ! . .  
ثم صدر حكم قضائي (!) بقتل الرجل وامراته ومصادرة أملاكهما !!  
هذه المسالك المنكرة شاعت في معاملة المسيحيين بعضهم مع البعض .  
وفى هذا الجو الكئيب المكفهر لا يمكن أن تستروح نعمة الحياة الكريمة ، والمحقوق  
المصونة أقلية دينية أخرى . بله أن تشغل بعض المناصب في الدولة !! .  
فإذا طويت هذه الصحيفة ، واستقرت أحوال الذميين في ظلال الحكم الإسلامي ،  
انتقلت من النقيض إلى النقيض ، ورأيت المناصب من الوزارة فما دونها مباحة  
للأكفاء من اليهود والنصارى ، بل لرأيت من تمكن هؤلاء في الحكم ، واطمثنانهم إلى  
رسوخ أقدامهم ، وشعورهم بخلو الجولهم ما أغراهم - وهم القلة المثلثة - بمحاولة إيذاء  
المسلمين وإذلالهم ، وبمحاباة طوائفهم في كل شيء ، استغلالاً خسيساً لمرونة الدين  
الذي منحهم حق الحياة الكريمة في جنبااته ! .

قال الدكتور « ترتون » : « لما لام الناس ابن الفرات ورموه بالكفر لسوقه إمارة  
الجيش إلى أحد المسيحيين ، دافع عن نفسه بأنه اقتدى بالخلفاء السابقين الذين  
ولوا النصارى وظائف الدولة ، وكان هؤلاء العمال النصارى يلقون كل مظاهر  
الاحترام .

إلا أن المسلمين رفضوا تقبيل أيديهم بعد أن فرض ذلك عليهم ! .  
وحدث في « بغداد » أن دخل أحد الوزراء النصارى ، واسمه « عبدون بن  
صاعد » ، على القاضي « إسماعيل بن إسحاق » ، فوقف له مرحباً .  
ولاحظ القاضي أن الشهود وبقية الحاضرين أنكروا عليه هذا العمل .

فلما خرج الوزير قال لهم القاضي : قد علمت إنكاركم ، وإن الله تعالى يقول :  
﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ  
وَتُقْسَطُوا إِلَيْهِمْ ﴾ (١) .

وهذا الرجل يقضى حوائج المسلمين ، وهو سفير بيننا وبين خليفتنا ، وهذا من  
البر ، فأمن السامعون على قوله ورضوا به .

\* \* \*

(١) المتحنة : ٨ .

لكن إغراء السلطة ووساوس التعصب الكامن كانت تكيد كيدها ضد الإسلام من وراء ستار، حتى ضج الناس منها .

وحدث في سنة ٢٨٧ هـ = سنة ٩٧٧م أن أكت الرئاسة في بلدة دقوقا إلى اثنين من النصارى ، وتمكنا بها وتصرفا فيها تصرف الخاكم ، واستعبدا المسلمين . .

فقدم بعض هؤلاء المسلمين على « جبرائيل بن محمد » ، وقالوا له : إنك تريد الغزو ولست تدري أتبلغ غرضاً أم لا ؟ .

ونحن عندنا من هذين النصرانيين من قد تعبدنا وحكم علينا .

قلو أقمت عندنا وكفيتنا أمرهما ساعدناك على ذلك .

فقبض « جبرائيل » عليهما وصادر أملاكهما .

واستوزر « المعز لدين الله » « عيسى بن نسطور » النصراني واستناب بالشام « منشة » اليهودى ، فمال الوزير « عيسى » إلى النصارى ، وشجع « منشة » اليهود .

فضج الناس بالشكوى ! فألقى الخليفة القبض عليهما ، وأخذ من « عيسى » ثلاثمائة ألف دينار ، وغرم « منشة » مبلغاً ضخماً .

وفى سنة ٥٢٩ هـ استوزر « الحافظ لدين الله » مسيحياً أرمنياً يدعى بهرام ويلقب تاج الدولة (!) وقد عمد بهرام هذا إلى فصل المسلمين من وظائفهم وتعيين المسيحيين بللهم . انظر جرأة الأقلية وتوقحها على الأمة التى تعيش فى ظلها !

وقد كان مسلك هذا الوزير المتعصب سبباً فى إثارة المسلمين ضده .

وخصوصاً لأنه أوعز إلى النصارى بالإسراف فى بناء الكنائس والأديرة .

حتى ظن أن الإسلام سينقرض من مصر .

فلما هاج الجمهور ضده عُزل عن الوزارة .

وقال « ابن الأثير » فى كتابه « الكامل » : بل قتل .

ونحن نتساءل فى أى عهد من التاريخ المسيحى استوزر الملوك المسيحيون يهوداً أو مسلمين ؟ بل فى أى عهد استوزر الكاثوليك بروتستانتياً أو بالعكس ؟

إن المسلمين وحدهم هم الذين فعلوا ذلك .

ومن الحقائق التي لا يجوز نسيانها ، أن هذا الصنيع لم يقابل بحمد ولا تقدير .  
بل أصاب الإسلام منه ما أصاب صاحب الأفعى حين نقلها من برد العراء إلى  
الدفء وطيب المأوى ، فكان الجزاء أن تحركت برأسها تريد أن تلدغه . .  
ثم يجيء أفك في هذا القرن يريد أن يقلب الحقائق ، وأن يشوه التاريخ ، وأن يتهم  
المسلمين - ومسلمى مصر بالذات - أنهم أذلوا الأقباط !! .  
وهكذا تصل القحة بأصحابها إلى الحضيض .  
وصدق المثل « رمى بدائها وانسلت » .  
ولنتابع سرد الوقائع :

ذكر « المقرئى » فى خططه قصة نجب أن نقلها لتشهد بأحدائها على موقف  
المسلمين فى مصر من أقباطها ، قال : « لما انتهى الفيضان زمن ولاية « الحافظ لدين  
الله » انتدب « الموقى بن الخلال » جماعة من العدول والكتاب النصارى إلى  
الولايات والأعمال لتحرير ما شمله الرى وما زرع من الأرض ، وتقدير خراجها ،  
وكتابة المكلفات .

وحدث أن خرج إلى بعض الجهات من يسمحها من شاد وناظر وعدول .  
وتأخر الكاتب النصرانى ، ثم لحقهم .  
وأراد الكاتب عبور النهر إلى الناحية الأخرى فحمله ضامن المعديّة حتى إذا  
بلغ به وجهته المقصودة سأله أجره ، فغضب الكاتب وسبه ، وقال له : « أنا ماسح  
هذه البلدة ، وتريد حق التعديّة !! » .

فقال له الضامن : إن كان لى زرع فخذ .  
ثم تقدم فخلع لجام بغلة القبطى ، وألقاه فى معديته .  
فلم يجد الكاتب بدأ من دفع الأجرة حين أخذ لجام بغلته .  
ولما انتهى من مسح البلد ، وفرغ من تبييض المكلفة وحملها إلى ديوان الخراج  
فى العاصمة كما جرت العادة ، أضاف عشرين فدانا إلى المجموع ، وترك فراغا  
ياحدى الصفحات ، وأطلع الشهود على القائمة فوقوا بصدقها .

ثم كتب هو في البياض الذي تركه « أرض اللجام » باسم صاحب المعديّة وقدرها بعشرين فداناً ، لكل فدان أربعة دنانير ، ثم حمل المكلفة إلى ديوان الأصيل .

وكانت العادة قد جرت أنه بعد انقضاء أربعة أشهر من السنة الخراجية ، ترسل جنود أصحاب بطش وقوة وكتاب وشهود ، وكاتب نصراني إلى الولايات لاستخراج ثلث خراج الأرض وفقاً للمكلفات .

وكان هذا القدر من المال ينفق على الجند إذ لم تكن لهم وقتند إقطاعيات .

ولم يكن من المؤلف إرسال الرجل الذي قام بمسح الأرض بل يندب آخر مكانه .

ولما ذهبت هذه الجماعة وأعنى بها « الشاد والكاتب والعدول » لجمع ثلث مال الناحية استدعوا أرباب الزرع ، ومن بينهم ضامن المعديّة وأرغموه على دفع ستة وعشرين وثلثي دينار .

فأنكر أن يكون مالاً لأية أرض في هذه الناحية وأيده القرويون في إنكاره .

فرفض الشاد - وكان فظاً عسوفاً - الاستماع إلى شهادتهم وضرره بالمقارع ، وأرغمه على بيع قاره وغيره لدفع الثلث الثابت عليه .

فسار صاحب المعديّة إلى القاهرة ، وأبلغ الخليفة قصته ، فأعيد النظر في قوائم الخراج فلم يجدوا أية إشارة إلى أرض « اللجام » .

فأمر الخليفة بإحضار الكاتب وسُمّر في مركب وقام له من يطعمه ويسقيه ، وتقرر أن يظاف به في سائر الولايات وينادي عليه ، كما أمر بكف يد النصاري كلهم عن الخدمة .

وكان الخافظ مولعاً بالفلك والتنجيم ، فعمد النصاري إلى رشوة منجمه الخاص وطلبوا إليه أن يفضى للخليفة بأن مصر ستزدهر إن أقام السلطان في تدبير الدولة واحداً معيناً من النصاري - هو « الأكرم بن زكريا » - .

فجازت الحيلة على الخليفة وجعل « الأكرم » أمير الدواوين .

ويادر « الأكرم » من ساعته إلى زيادة عدد المسيحيين أكثر مما كانوا قبلاً ، وظهرت عليهم دلائل النعمة ، فارتدوا الملابس الجميلة وركبوا البغال الرائعة والخيول المسومة بالسروج ، وبالغوا في الشدة على المسلمين ، وضايقوهم في أرزاقهم واستولوا على الأحباس الدينية والأوقاف الشرعية ، واتخذوا العبيد

والماليك والجواري من المسلمين والمسلمات ، حتى لقد حملوا أحد الكتاب المسلمين على بيع أولاده وبناته بقرامة فرضوها عليه . . . . ١٠١ هـ . . .

والتزم الخطة نفسها « أبو نجاح النصراني » المعروف بالراهب .

فقد اقتضت مشيئة الخليفة « المنصور أبو علي » الملقب بالأمر - وهو عاشر الخلفاء الفاطميين - أن يسند إليه منصب الوزارة (!) .

ويأشر الرجل عمله فارتكب مظالم كثيرة ، وسار في سياسة أحفظت عليه النفوس وبغضته لدى العامة .

ولم يفلت من بلائه كبار الموظفين ومنهم القضاة والكتاب .

بل لقد أثير عنه ما يدل على تنقص لمكانة النبي ﷺ (!) .

ثم أخذ يشتد في مصادرة أموال الناس على اختلاف طبقاتهم (!) إلى أن لقي مصرعه أخيراً في الحادثة الآتية :

ذلك أنه كان يجلس بالجامع العتيق ويرسل في استدعاء مَنْ أراد مصادرة أمواله وفي يوم من الأيام ، طلب رجلاً من العدول الممتازين ، يعرف بابن الغرس ، كان قد نال قدراً كبيراً من إجلال الناس واحترامهم . فأهانته .

فخرج من عنده ووقف في المسجد يوم الجمعة ، حيث يشتد ازدحام الناس ، وعبر عما شعر به من آلام وأحزان قائلاً :

يا أهل مصر انظروا عدل مولانا « الأمر » في تمكينه النصراني من المسلمين !

وأهاجت هذه الكلمات عوامل الغضب في النفوس ، وكادت تفضي إلى نشوب الفتنة والاضطراب لولا تدخل خواص الخليفة في الأمر ، وأعلموا مولاهاهم بما حل بالمسلمين من عدوان هذا الوزير ، وخوفه سوء العاقبة .

فبعث الخليفة في طلب أبي نجاح .

فلما مثل بين يديه انطلق رجل من الأشراف كان في حضرة الخليفة وأنشده هذا البيت :

إن الذي سُـرِّقَت من أجله يزعم هذا أنه كـاذب

يقصد تذكير الخليفة بما أشيع عن الراهب من تهجم على مكانة رسول الله ﷺ .



وعندئذ التفت الخليفة إلى « أبى نجاح » وقال له :

ما تقول يا راهب ؟ فسكت ، فأمر بقتله .

أرأيت هذا الهوان النازل بالمسلمين ؟ وهذا السواد اللاصق بوجوههم ؟

إن هذا - ومثله كثير - يقع عليهم ، والدولة لهم ، والملك فيهم .

وهذا ومثله هو ما استدل به الكاتب الصدوق النزيه : على أن المسلمين يتعصبون

ضد مخالفيهم في الدين ، ويقصدون إلى إذلالهم ، بل إلى إفنائهم .

إن الكاتب المسيحي الذي أرسلته الحكومة المسلمة لمسح الأرض وتقدير الضريبة

عليها كان رجلاً خرب الذمة .

وليست المسيحية هي التي أوصته بأن يظلم ويكذب .

ولكننا نفحص تصرفه فلا نجد فيه إلا بطر الحق وغمط الناس .

إنه يرتكب ما يرتكب وهو يمتلئ النفس ثقة بأنه مالك عمله وسيد وظيفته - والدولة

ملمة كما رأيت . .

فهل ترى في مسلكه إثارة من توجب تخريبه بتملق الشعب المسلم ، أو مراعاة

الحكومة المسلمة؟! .

لا . إنه يظلم ويزور ، غير محاذر أمة ولا دولة .

والمسلمون لا يرون ضيراً ولا عجباً في أن يساكنهم ويصاحبهم مَنْ لا يتفق معهم في الدين .

فانظر كيف تستغل هذه الساحة العالية في تولي المناصب - كبارها وصغرها - ثم

في استغلال هذه المناصب للبغي والتعصب والتحزب .

من ؟ وعلى مَنْ ؟

من الأقلية الممتعة المرفهة على الأكثرية المتراخية !!

إننا سنستعرض أحداثاً شتى من هذا اللون عندما نتكلم عن حال الأقباط في مصر

منذ الفتح إلى اليوم .

ونريد أن نبين أن هذه المسالك النابية لم تخف على كثير من الحكام الأبقاظ .

قال في « سياسة نامه » :

أما في فارس فقد انزعج « نظام الملك » وزير الملك شاه من استعمال الذميين في الحكومة مكان الترك .

لذلك كتب سنة ٤٨٤ هـ يقول : « ما قام يهودى أو نصرانى أو مجوسى أو قرمطى بعمل جليل ، أو حل محل تركى - مسلم - إلا كان الإهمال أبرز صفاته . إذ لا احترام عند هؤلاء الناس للدين ، ولا إخلاص عندهم للدولة ، ولا رحمة في قلوبهم على الرعية ، بل سرعان ما يمسون موفورى الثراء : وإن المؤمن ليخشى العاقبة السيئة ولا يعرف ماذا تؤول إليه الأمور .

ولم يحدث في أيام السلطان محمد مسعود ولا طغرل بك ، ولا ألب أرسلان أن نجرأ مجوسى أو يهودى ، أو نصرانى ، أو كافر على المساهمة في الحياة العامة » ١ . هـ .  
وعندى أن للعقلية التركية دخلاً في هذا التوجيه .

فإن صرامة الترك لا تطبق الجحود والعيب ممن ينبغى أن يشكروا ويحمدوا !! .  
أما الأمور في مصر فقد سارت في اتجاه آخر لأن مصر « بلد كل شىء فيه ينسى بعد حين » .

\* \* \*

والغريب أن هذا الكاتب المتحامل على الإسلام وأهله يمر بهذه الحقيقة فيصورها تصويراً مبتسراً مغرضاً .

فيقول - في معرض الكلام عن حال الأقباط في عصر الفاطميين - :

« فى هذا العصر نال الأقباط من المجد والثروة والحفظ والسلطان ما أدى إلى غضب الشعب عليهم واضمحلال نفوذهم .

ذلك لأن الأقلية الدينية استغلت ثقة الخلفاء بهم ليفوزوا بأكبر نصيب من التسامح للذميين .

بينما أظهروا عدم مبالاتهم ، بل جهروا بعداوتهم للأغلبية الدينية . . . » .

فالاستهانة بالكثرة ، والجهر بعداوة دينها ، واستغلال الثقة الممنوحة للتنفيس عن الأحقاد الكامنة . . هذا - فى نظر الكاتب النزيه - دليل على تعصب المسلمين ، وعلى سعى الأقلية للفوز بأكبر نصيب من التسامح !!

بهذا الفكر المريض فى تصوير الحوادث ، أرسل الكاتب حكماً آخر على الإسلام نفسه فزعم فى ص ٢٥ :

«أن القرآن - بتعليماته الدقيقة فيما يجب اتباعه حيال أهل الذمة - لم يسهل المهمة الملقاة على عاتق الحكام الذين اضطروا إلى تجاهل بعض تعليمات القرآن والحديث أو تفسيرها حسب أهوائهم . . .» .

كما يقول فى ص ١٩ : « . . استن المشرع المسلم لأهل الذمة عددًا من القوانين استلهمها من تعاليم القرآن والحديث .

غير أن الفقهاء لم يستطيعوا دائماً فرض وجهة نظرهم على الحكام ، وكان هؤلاء يحدون عنها كلما اضطرتهم ظروفهم ومصالحهم إلى ذلك» .  
وهذا الكلام يتلوى على الصفحات التواء الأفعى الخبيثة .

إن قائله يريد ليوهم القراء بأن المبدأ الذى سنه القرآن ، وشرعه النبى فى سياسة أهل الذمة ، هو الاضطهاد والجفاء !!

فلما رأى الكاتب المفترى أن أربعة عشر قرناً مرت على أهل الذمة فى بلاد الإسلام وهم أسعد الأقليات فى العالم ، زعم أن هذه المعاملة الحسنة ترجع إلى أهواء الحكام !! وأنهم خرجوا بها عن تعاليم الكتاب والسنة ، وعصوا بها نصائح الفقهاء !! .

فماذا نقول لامرئ تصل به أحقاده على الدين وأهله إلى هذه المنزلة من الكنود والكفران ؟

يرالك توصى به خبيراً ، ويرى وصاتك قد نفذت على نحو يوجب الشكر . فينكر أنك نوهت بحقه ! ويرد الرعاية التى لحفته - على مر القرون - إلى شهوات الولاة ومصالح الحكام !

إننا نعرف أن فى البشر أفراداً لا يجدى فى تأليفهم صنيع ، ولا يصلح فى معالجتهم لطف .

ولا نحب أن نذكر فى وصفهم المثل السائر : « اتق شر من أحسنت إليه » .

ولا قول الشاعر :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته      وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

فإن العلاقات بين الأمم والطوائف لا تنال منها هذه الإساءات العابرة من أفراد غلبت على طباعهم الخسة - ولكننا غضباً للحق المنكور - نتساءل :

هل القرآن لم يسهل المهمة الملقاة على عاتق الحكام في معاملة أهل الذمة كما يدعى هذا المخلوق ؟

ونحن نورد القصة الآتية ليرى القراء مبلغ ما شرعه القرآن من عدالة وانصاف ، في معاملة أهل الكتاب ، ثم ندع لهم بعدئذ أن يحكموا : هل القرآن يسهل مهمة الحكام في معاملة الآخرين ، أم صعبها كما يدعى هذا المؤلف ؟

حدث في «المدينة» أن سطا رجل معروف بالإسلام ، يدعى طعمة بن أبيرق ، على أهل بيت من المسلمين ، وسرق منهم درعاً ثم خباها عند يهودى .

وبحث أصحاب الدرع عنها فوجدوها فى بيت اليهودى ، فاتهموه بأنه سارقها .

وذكر اليهودى أنه أخذها من «طعمة» ودبعة ، وأنه يرى من أية ريبة تتجه إليه !

وكانت القرائن تتضافر على اتهام اليهودى ! فالدرع عنده ، ثم هو يهودى ! و«طعمة» يحلف أنه ما أخذ الدرع ، ولا استودعها أحداً .

وقد ذهب قومه إلى الرسول يطلبون منه أن ينصر رجلهم لأنه مسلم ظاهر البراءة وخصمه يهودى .

ولا ينبغي أن يخذل رجل معروف بإسلامه أمام آخر معروف بيهوديته ..

والقضية أمام الرسول غامضة ، فهو لم يؤت معرفة الغيب : ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ (١)

ولم تنكشف له طبائع النفوس وخفاياها البعيدة فهي بما استأثر الله بعلمه .

﴿وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ (٢)

(٢) التوبة : ١٠١ .

(١) الأنعام : ٥٠ .

وقد جاء قوم «طعمة» يجادلون عن صاحبهم ويطلبون من الرسول أن يخاصم دونه ، وأن يأخذ اليهودى بالعقاب ، وأن يدع القضية تمر بظواهرها الغربية دون مزيد من البحث والاستقصاء . .

فإذا بالوحي ينزل كاشفاً الغطاء عن الحقيقة الخبيثة ، مبرثاً ساحة اليهودى المخرج دامتاً خصمه بأنه خائن أئيم - وإن تظاهر بالإسلام - مؤنباً قومه لجدالهم عنه وسعيهم لدى الرسول كى يجادل عنه كذلك .

وبدأت الآيات الكريمة بخطاب الرسول : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ (١)

فالقرآن مظهر الحق وجوهره والحكم به لإقرار الحق بين الناس قاطبة .  
فالناس أمام الحق سواء ، يهوداً كانوا أو نصارى أو مسلمين -

فإذا خان رجل - يدعى الإسلام - فلن يكون أهلاً لمخاصمة الرسول عنه . ولو كان ضد يهودى أو نصرانى أو مجوسى -

ومن ثم يقول الله له : ﴿ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ واستغفر الله إن الله كان عفواً رحيماً \* وَلَا تَجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿ (٢)

ثم يتوجه التفريع إلى قوم السارق الذين حسبوا الإسلام عصبية عمياء ، والذين توهموا أنه ما دام فى القضية يهودى ظنين فعليه أن يحمل الوزر! ولو كان مظلوماً! فيقول الله لهم : ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلاً ﴿ (٣)

ثم يتجه الوحي إلى السارق بالتنصيح كما يرجع عن غيه ويتوب من ضلاله : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوْءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (٤)

(١) النساء : ١٠٥ . (٢) النساء : ١٠٥-١٠٧ . (٣) النساء : ١٠٨، ١٠٩ . (٤) النساء : ١١٠ .

ويحذره ويحذر غيره من المسلمين ألا يرموا بالثهم جزافاً .

فإن إسناد الجرائم إلى الأبرياء إثم كبير ، مهما كانت أجناسهم ودياناتهم .

فإن السيئة تقع على رأس مرتكبها وحده :

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا \* وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ (١)

ويعود الوحي الكريم مرة أخرى ينبيه الرسول إلى التيقظ لالأعيب الخصوم وكيد المتقاضين ، فإنهم قد يلبسون الحق بالباطل .

وفى سبيل النجاة بأنفسهم وإهلاك أعدائهم يضللون القضاء ويحيرون القضاة :

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضَلُّوكَ وَمَا يُضَلُّونَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (٢)

أرأيت إلى هذه النذر المتتابعة والنصائح الحكيمة ؟

أرأيت إلى هذه التعاليم الواضحة والخطوط المستقيمة ؟

أرأيت إلى آيات القرآن العزيز وأسلوبها فى خطاب الرسول ومن حوله ، وإنصافها للأبرياء أياً كانوا ؟

لمَ هذا كله ؟ لإنقاذ يهودى كادت القرائن تدينه وإدانة رجل يعرف بالإسلام بين قوم يتعصبون له بوصف أنهم جميعاً مسلمون . !!

وبعد ذلك تبلغ القحة بكتاب ملثا فيقول :

إن القرآن لم يسهل مهمة الحكام المتسامحين ! أو أن تفسير القرآن مهمة صعبة ودقيقة ، كما يقول فى ص ٥٧ .

(٢) النساء : ١١٢ .

(١) النساء : ١١١ ، ١١٢ .

## اليهودية والمسيحية في الإسلام:

يرى اليهود أن موسى نبي الله وأن بنى إسرائيل شعبه المختار ، وأن عيسى ومحمدًا كليهما رجلا ن دعيان ليست لهما رسالة ، وأن أتباعهما قطعان من المضللين لا يقام لأديانهم وزن ، ولا يمنحون أية حرمة .

والتصارى - فى نظرهم - مخدوعون فى لقيط حملت به أمه سفاحا .

والمسلمون - فى نظرهم - مخدوعون فى أعرابى جاء من الصحراء لا يعقل شيئاً .

والمسيحيون - وإن اعترفوا بموسى وتوراته - إلا أنهم ناقمون على اليهود افتراءهم على عيسى وأمه ، ولذلك سنوا فى معاملتهم قوانين الإذلال والاستئصال ، وكما نقموا على اليهود موقفهم من المسيح ، فهم كذلك ناقمون على المسلمين .

لأنهم يرون الإسلام ديانة ملفقة ، جاء بها من عند نفسه رجل كاذب فى دعواه النبوة .

والدين الذى نسخ ما قبله ، وأنكر ما بعده هو المسيحية ، التى يجب أن تنفرد وحدها بالحياة والسيادة .

أما المسلمون ففى دينهم قاسم مشترك بين الديانات كلها .

فهم يؤمنون بموسى ويوقرونه ويعتبرون التهجم على مكانته كفرًا بالإسلام .

وهم كذلك يؤمنون بعيسى ، ويكرمون مولده وينزهون نسبه ، ويرون الطعن فى عفاف أمه أو شرف ابنتها كفرًا بالإسلام .

وهم يضمون إلى إيمانهم بموسى وتوراته ، وعيسى وإنجيله ، إيمانًا جديدًا بمحمد

وقرأنه ، على أساس أن النبوة الأخيرة جاءت تصديقًا لما قبلها ، ومحورًا للفوارق

والخلافات التى مرقت شمل العالم أجمع : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ

الَّذِي اختلفوا فيه وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

فالإسلام هو يهودية موسى ونصرانية عيسى معًا ، وهدايات من قبلهما من رسل

الله الأكرمين جميعًا .

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ

وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ

وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٢) .

(٢) البقرة : ١٢٦ .

(١) النحل : ٦٤ .

ومن هذا الشرح نجد أن الانكماش والتعصب ، والاتهام والتهجم ليس من طبيعة الإسلام وأهله .

ونكته طبيعة من يرون أن يؤمنوا بوسى فقط ، ويتعبدوا لله بالطعن فى عيسى ومحمد .

أو يريدون الإيمان بعيسى فقط ، ويعتبرون من جاء بعده دجالاً يحاربه النصارى بالسيف إن كانوا أكثرية ، ويحاربونه بالدس والمؤامرات إن كانوا قلة .

ومن هذا الشرح ترى لماذا اتسع صدر الإسلام للأديان الأخرى .

فهو يعطيها حق الحياة معه ، فى الوقت الذى ضمن فيه المسيحيون بحق الحياة لا على المسلمين فحسب ، بل على المذاهب المسيحية الأخرى .

ومن هذا الشرح تعرف السر فى جحود صنيعنا الذى أسديناه طوال أربعة عشر قرناً .

إن إخواننا المسلمين الذين أوقعهم سوء الحظ بين جماهير المسيحيين فى روسيا ويوغوسلافيا وأسبانيا وجنوب إيطاليا . . إلخ قد هلكوا جميعاً .

أما الأقليات المسيحية فى ربوعنا الفسيحة ، فقد اغتنت وتكاثرت وعزت ، ولكنها مع ذلك لا تستريح لما ترى .

ولماذا ؟ لأنها لا تقر عيناً إلا إذا طمست معالم الإسلام ، وارثد عامره بلقماً .

إن المسلمين فى نظرهم خوارج على المسيحية .

وهم قوم يتبعون أمياً أساء إلى الكنيسة وكهنوتها .

وعندما تطوى قلبك على شعور التنقص والازدراء لأمريئ ما ، فإنك لن تقر له

بإحسان ، ولن تعترف له بجميل .

وهذا الشعور الخسيس هو الذى أوحى بتأليف كتاب يقوم فى جملمته وتفصيله على

الافتراء والتضليل ، والنيل من «محمد» ﷺ ودينه وحكمه .

والمؤلف رجل ينال مرتبه من دولة تنص فى دستورها على أن دينها الرسمى هو الإسلام .

وأعجب لرجل يأكل من مال المسلمين ، ثم لا يطوى بطنه على ما فيه من غل ضد

الإسلام ، بل يفتح فمه ليتهم المسلمين الذين أووه وأمنوه ، بأنهم متعصبون ضد المسيحيين .

\* \* \*



إن الغرور والتعصب ليسا حديثين في هذه المعاملة الشائنة التي يلقاها الإسلام من اليهود والنصارى .

فقد يَأْكَدُ الْفَرِيقَانِ أَنَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ لِهَٰمَا وَحَدَهُمَا .

فصور القرآن هذا التفكير الضيق ورد عليه في إيجاز وأدب :

﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ \* بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١)

وبين القرآن أن على المسلمين مصابرة هؤلاء اليهود والنصارى ورد عدوانهم على الدين الجديد برقة وحلم :

﴿ وَذُكِّرْ كَثِيرًا مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢)

كما بيّن القرآن أن محاسنة هؤلاء لن تطفىء نيرانهم أبدًا .

إذ إن راحتهم الكبرى هي في محو الإسلام ، وهدم مساجده ، ورد الناس قسرًا إلى الكنائس والبيع .

ومع استبانة هذا القصد السيئ في مسالكهم المعوجة فإن الإسلام لا يعاملهم بالمثل ، ولا يوحى لنبيه وأتباعه أن يعفوا على آثار الديانات السابقة ويمحوها من الوجود . بل يكتفى أن يطلب من النبي ومن معه الثبات على الحق وعدم التزحزح عنه ، مهما لاقوا من صعاب :

﴿ وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتِيعَتَ أَهْوَاءِهِمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (٣)

(٢) البقرة : ١٠٩ .

(١) البقرة : ١١١ ، ١١٢ .

(٣) البقرة : ١٢٠ .

وعندما تحولت هذه الأحقاد إلى هجوم مسلح على الإسلام ردها بعنف . وما كان لأحد أن يلومه على ذلك .

### علاقة الإسلام بغيره من الأديان :

عرفت نجهم أهل الكتاب لظهور الإسلام وبعثة نبيه .

وأنهم نساءلوا - مستغربين - ما هذه الدعوة الجديدة ؟

أو بتعبير أوضح : ما هذه الدعوى البعيدة ؟ . .

وما حاجة الناس إليها وهم قائمون في الحياة يباشرون مراسيم العبادة ويربطون الخلق بربهم على النحو الذي يألفون ؟

إن ظهور هذا الدين يعنى أن هناك نقصاً في العمل الذي يؤديه ، أو خللاً في المنهج الذي يقدمونه ، أو تفريطاً في الواجب الذي يحملونه . . أو . . أو . . إلخ .

ولما كانوا لا يلمحون في أنفسهم ولا فيما معهم شيئاً من ذلك . فقد اعتبروا ذلك النبي المبعوث من العرب نافلة يستغنى عنها .

بل خرافة يعترضون طريقها ويستكرون تصديقها !!!

إن هذه الرسالة الجديدة تحذو لوجودهم وإنهاء لبقائهم .

ومسأرتها لحظة من الزمن اعتراف بانقضاء أمدهم ، وانتقال دور التوجيه إلى غيرهم !!

ومن الذي يرضى بترك ما معه من يقين ، لينضم إلى هذا العربي المبعوث بين الأميين ؟

فإذا انضاف إلى ذلك ما يكمن في طباع نعر من البشر من سوررات الحقد وهيجان الحسد أدركنا أن تكذيب اليهود والنصارى للإسلام يعود إلى عوامل شتى تقتضى علاجاً معقولاً ، وتلطفاً تاماً في العرض ، وإغضاء كثيراً عن الصد ، وتحملاً موصولاً للأذى ، ومطالبة متأنية في الجدل ، واعتذاراً في أغلب الأحيان عن البطء في الإجابة والاسترسال مع التقليد .

وإيضاح الصلة بين الإسلام وما سبقه من أديان نال قسطاً كبيراً من القرآن الكريم .  
 والتأمل في الوحي انشراح لهذه الصلوات العتيذة يحمل المنصف على القول بأن  
 الإسلام لم يدع مجالاً لظلال التجاهل ، ولا لخلال التحاسد .  
 وأنه فسح الطريق لتعاون شامل بين أهل الاعتدال من ورثة الأديان كلها . .  
 وأن الإسلام أكره إكراهاً على انتضاء السيف ليستبقى لنفسه حياة ضمن بها  
 الجاحدون والحاقدون .  
 وهالك صورة للعلاقة التي أقرها الإسلام مع من سبقوه ، شرحناها بإسهاب هنا وفي  
 كتبنا الأخرى .

ونثبت إيجازاً آخر لها بقلم الشيخ الجليل المرحوم «محمد عبد الله دراز» وهذا نصه :  
 « . . إذا أخذنا كلمة «الإسلام» بمعناها القرآني ، نجد أنها لا تدع مجالاً لهذا  
 السؤال عن العلاقة بين الإسلام وبين سائر الأديان السماوية .

فالإسلام - في لغة القرآن - ليس اسماً لدين خاص ، وإنما هو اسم للدين  
 المشترك الذي هتف به كل الأنبياء وانتسب إليه كل أتباع الأنبياء .

هكذا نرى نوحاً يقول لقومه : ﴿أَمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾<sup>(١)</sup>  
 ويعقوب يوصي بنيه : ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾<sup>(٢)</sup>

وأبناء يعقوب يجيبون أباهم : ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ  
 وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾<sup>(٣)</sup>

وموسى يقول لقومه : ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾<sup>(٤)</sup>  
 والحواريون يقولون لعيسى : ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ مُسْلِمُونَ﴾<sup>(٥)</sup>

بل إن فريقاً من أهل الكتاب حين سمعوا القرآن : ﴿قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا  
 إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾<sup>(٦)</sup>

(٣) البقرة : ١٣٣ .

(٢) البقرة : ١٣٢ .

(١) يونس : ٧٢ .

(٦) القصص : ٥٣ .

(٥) آل عمران : ٥٣ .

(٤) يونس : ٨٤ .

وبالجمله ترى اسم الإسلام شعاراً عاماً يدور فى القرآن على السنة الأنبياء وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصر النبوة المحمدية .

ثم ترى القرآن يجمع هذه القضايا كلها فى قضية واحدة يوجهها إلى قوم محمد ، وبين لهم فيها أنه لم يشرع لهم ديناً جديداً ، وإنما هو دين الأنبياء من قبلهم :  
﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (١)

ثم نراه - بعد أن يورد سيرة الأنبياء وأتباعهم - ينظمهم فى سلك واحد ، ويجعل منهم جميعاً أمة واحدة لها إله واحد ، كما لها شريعة واحدة :  
﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون ﴾ (٢)

ما هذا الدين المشترك الذى اسمه الإسلام ، والذى هو دين كل الأنبياء المرسلين ؟ إن الذى يقرأ القرآن يعرف كنه هذا الدين : إنه هو التوجه إلى الله رب العالمين فى خضوع خالص لا يشوبه شرك .

وفى إيمان واثق مطمئن بكل ما جاء من عنده على أى لسان وفى أى زمان أو مكان ، دون تمرد على حكمه ، ودون تمييز شخصى أو طائفى أو عنصرى بين كتاب وكتاب من كتبه ، أو بين رسول ورسول من رسله .

هكذا يقول القرآن : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ (٣)  
ويقول : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٤)

نقول - إذا - إن الإسلام بمعناه القرآنى الذى وصفناه لا يصلح أن يكون محلاً للسؤال عن علاقة بينه وبين سائر الأديان السماوية .

وإذ لا يسأل عن العلاقة بين الشئ ونفسه ، فهأنا وحدة لا انقسام فيها ولا اثنيية .

(٢) الأنبياء : ٩٢ .

(٤) البقرة : ١٣٦ .

(١) الشورى : ١٣ .

(٣) البينة : ٥ .

غير أن كلمة «الإسلام» قد أصبح لها في عرف الناس مدلول معين ، هو مجموعة الشرائع والتعاليم التي جاء بها محمد أو التي استنبطت مما جاء به .

كما أن كلمة «اليهودية» أو «الموسوية» تخص شريعة «موسى» وما اشتق منها .

وكلمة «النصرانية» أو «المسيحية» تخص شريعة «عيسى» وما تفرع عنها .

فالسؤال الآن إنما هو عن «الإسلام» بمعناه العرفي الجديد .

أعني عن العلاقة بين المحمدية وبين الموسوية والمسيحية .

ولإجابة عن هذا السؤال ينبغي أن تقسم البحث إلى مرحلتين :

المرحلة الأولى : في علاقة الشريعة المحمدية بالشرائع السماوية السابقة .

وهي - في صورتها الأولى - لم تبعد عن منبعها ، ولم يتغير فيها شيء بفعل الزمان ولا بيد الإنسان .

المرحلة الثانية : في علاقته بها بعد أن طال عليها الأمد ، وطرأ عليها شيء من التطور .

أما في المرحلة الأولى : فالقرآن يعلمنا أن كل رسول يرسل ، وكل كتاب ينزل ، قد جاء مصداقاً ومؤكداً لما قبله :

فالإنجيل مصدق ومؤيد للتوراة .

والقرآن مصدق ومؤيد للإنجيل والتوراة ولكل ما بين يديه من الكتب «٥٦ : ٤٦ - ٤٨\*» .

وقد أخذ الله الميثاق على كل نبي إذا جاءه رسول مصدق لما معه أن يؤمن به

وينصره «٣ : ٨٦» .

غير أن ها هنا سؤالاً يحق للسائل أن يسأله :

أليست قضية هذا التصديق الكلي بين الكتب السماوية أن تكون الكتب المتأخرة

إنما هي تجديد للمتقدمة وتذكير بها ، فلا تبدل فيها معنى ، ولا تغير حكماً؟

والا . . فكيف يقال : إنها تصدق إلخ بينما هي تبدل وتعديل؟

\* بقصد الشيخ «دراز» السورة رقم «٥٥» - المائة - الآيتين ٤٦ : ٤٨ . وبلاحظ الفارئ هذا طوال بحث الشيخ

«دراز» أنه يستخدم رقم السورة أولاً ثم رقم الآية المقصودة . . وهكذا . «اغفق» .

وإذا كان من قضية التصادق الكلى بين الكتب ألا يغير المتأخر منها شيئاً من المتقدم . . فهل الواقع هو ذلك ؟

الجواب : ليس الواقع ذلك .

فقد جاء الإنجيل بتعديل بعض أحكام التوراة .

إذ أعلن عيسى أنه جاء ليحل لبني إسرائيل بعض الذى حرم عليهم « ٣ : ٥٠ » ، وكذلك جاء القرآن بتعديل بعض أحكام الإنجيل والتوراة .

إذ أعلن أن محمداً جاء ليحل للناس كل الطيبات ، ويحرم عليهم كل الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم « ٧ : ١٥٧ » .

ولكن يجب أن يفهم هذا وذاك أنه لم يكن من المتأخر نقضاً للمتقدم ، ولا إنكاراً لحكمة أحكامه فى إبانها .

وإنما كان وقوفاً بها عند وقتها المناسب ، وأجلها المقدر . .

مثل ذلك مثل ثلاثة من الأطباء ، جاء أحدهم إلى الطفل فى الطور الأول من حياته فقرر قصر غذائه على اللبن .

وجاء الثانى إلى الطفل فى مرحلته التالية ، فقرر له طعاماً لبناً وطعاماً نشوياً خفيفاً .

وجاء الثالث فى المرحلة التى بعدها ، فأذن له بغذاء قوى كامل .

لاريب أن هاهنا اعترافاً ضمناً من كل واحد منهم بأن صاحبه كان موفقاً كل التوفيق فى علاج الحال التى عرضت عليه .

نعم إن هناك قواعد صحية عامة فى النظافة والتهوية والتدفئة ونحوها ، لا تختلف باختلاف الأسمان « الأعمار » .

فهذه لا تعديل فيها ولا تبديل ، ولا يختلف فيها طب الأطفال والناشئين عن طب الكهول الناضجين .

هكذا الشرائع السماوية كلها صدق وعدل في جملتها وتفصيلها .

وكئنها يصدق بعضها بعضاً من ألفها إلى يائها .

ولكن هذا التصديق على ضربين :

١- تصديق القديم مع الإذن ببقائه واستمراره .

٢- وتصديق له مع إبقائه في حدود ظروفه الماضية .

ذلك أن الشرائع السماوية تحتوى على نوعين من التشريعات :

١- تشريعات خالدة، لا تتبدل بتبدل الأوصاف والأوضاع «كالوصايا التسع»<sup>(١)</sup>

ونحوها .

فإذا فرض أن أهل شريعة سابقة تناسوا هذا الضرب من التشريع جاءت الشريعة

اللاحقة بمثله «أى أعادت مضمونه تذكيراً» ، وتأكيداً له .

٢- «وتشريعات موقوتة» بأجاء طويلة أو قصيرة .

فهذه تنتهى بانتهاء وقتها ونجىء الشريعة التالية بما هو أوفق بالأوضاع الناشئة

الطارئة ..

وهذا - والله أعلم - هو تأويل قوله تعالى : ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ

مِنَهَا أَوْ مِثْلَهَا...﴾<sup>(٢)</sup> .

ولولا اشتمال الشريعة السماوية على هذين النوعين ما اجتمع فيها العنصران

الضروريان لسعادة المجتمع البشرى .

١- عنصر الاستمرار الذى يربط حاضر البشرية بماضيها .

٢- وعنصر الإنشاء والتجديد ، الذى يعد الحاضر للتطور والرقى اتجاهها إلى مستقبل

أفضل وأكمل .

(١) نقول الوصايا التسع إلى آخره .

(٢) البقرة : ١٠٦ . ● وذهب البعض إلى أن المقصود بنسخ الآية هنا ليس الآية القرآنية المتلوة ، بل هى العلامة

المعجزة كآية عصا موسى - مثلاً - والدليل على ذلك أنها وردت فى سياق حديث عن المعجزات المصاحبة للنبوذة  
المؤيدة للأنبياء ، وللباحثين أن ينظروا إلى الآيات السابقة واللاحقة على هذه الآية المذكورة .

وهذا هو رأى من لا يرى النسخ فى القرآن . . . ولمزيد من التفصيل فى هذا الموضوع انظر : الشيخ محمد القرانلى

« نظرات فى القرآن - طبعة دار نهضة مصر ، والدكتور : عبد المتعال الجيرى - لا نسخ فى القرآن - لماذا - طبعة

مكتبة وهبة .

ونحن إذا نظرنا نظرة فاحصة إلى سير التشريع السماوي من خلال الشرائع الثلاث نجد فيه هذين العنصرين واضحين كل الوضوح .

إذ نجد كل شريعة جديدة تحافظ على الأسس الثابتة التي أرسنها الشريعة السابقة ، ثم تزيد عليها ما يشاء الله زيادته .

نرى شريعة التوراة مثلاً قد عنيت بوضع المبادئ الأولية لقانون السلوك «لا تقتل» و «لا تسرق» . الخ .

ونرى الطابع البارز فيها هو طابع الحقوق وطلب العدل والمساواة بينها .

ثم نرى شريعة «الإنجيل» تجيء بعدها فتقرر هذه المبادئ الأخلاقية وتؤكد لها ، ثم تترقى فتزيد عليها آداباً مكملة : «لا تراء الناس بفعل الخير» . «أحسن إلى من أساء إليك» .

ونرى الطابع البارز فيها التسامح والرحمة والإيثار والإحسان . .

وأخيراً تجيء شريعة القرآن : فنراها تقر المبدأين كليهما في نسق واحد : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾<sup>(١)</sup> مقدرة لكل منهما درجته في ميزان القيم الأدبية ، مميزة بين المفضول منهما والفاضل : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾<sup>(٢)</sup> .

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾<sup>(٣)</sup> .

ثم نراها - وقد أضافت إليها فصلاً جديدة - صاغت فيها قانون آداب اللياقة .

رسمت بها مناهج السلوك الكريم في المجتمعات الرفيعة .

ففى التحية والاستئذان ، والمجالسة والمخاطبة إلى غير ذلك . . كما نراه فى سورة النور والحجرات والمجادلة .

هذا مثال من أمثلة الجمع فى سير التشريعات السماوية بين عنصر المحافظة على القديم الصالح ، وعنصر الأخذ بالجديد الأصلى .

والأمثلة كثيرة لا يتسع لها نطاق هذا البحث .

(٣) النحل : ١٣٦ .

(٢) الشورى : ٤٠ .

(١) النحل : ٩٠ .



هكذا كانت الشرائع السماوية خطوات متصاعدة ولبنات متراكمة فى بنيان الدين والأخلاق وسياسة المجتمع .

وكانت مهمة اللبنة الأخيرة منها أنها أكملت البنيان وملأت ما بقى فيه من فراغ .  
وأنها - فى الوقت نفسه - كانت بمثابة حجر الزاوية الذى يمسك أركان البناء .  
وصدق الله حين وصف خاتم أنبيائه بأنه : ﴿جاء بالحقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾<sup>(١)</sup> .

وحين وصف اليوم الأخير من أيامه بأنه كان إتماماً للنعمة وإكمالاً للدين : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي . . .﴾<sup>(٢)</sup> .

وصدق رسول الله ﷺ حين صور الرسالات السماوية فى جملتها أحسن تصوير :  
«مثلنى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة : فأنا اللبنة : وأنا خاتم النبيين» «البخارى ، كتاب المناقب ، باب خاتم النبيين» .

إنها إذا سياسة حكيمة رسمتها يد العناية الإلهية ، لتربية البشرية تربية تدريجية لاظفرة فيها ولا ثغرة ، ولا توقف فيها ولا رجعة ، ولا تناقض ولا تعارض .

بل تضافر وتعاقد ، وثبات واستقرار ، ثم نمو واكتمال وازدهار .

ونتقل الآن إلى المرحلة الثانية .

«المرحلة الثانية» فى بحث العلاقة بين الشريعة المحمدية والشرائع السماوية بعد أن طال الأمد على هذه الشرائع ، فبالها شىء من التطور والتحرر .

رأبنا فى المرحلة السابقة كيف كان القرآن يعلن عن نفسه دائماً أنه جاء ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾<sup>(٣)</sup> .

ونرى الآن أن القرآن أضاف إلى هذه الصفة صفة أخرى ، إذ أعلن أنه جاء أيضاً ﴿مُهَيِّمًا﴾ على تلك الكتب «٥ : ٤٨» أى حارساً أميناً عليها .

ومن قضية الحراسة الأمانة على تلك الكتب ألا يكتفى الحارس بتأييد ما خلده

(١) الصافات : ٣٧ .

(٢) المائدة : ٣ .

(٣) المائدة : ٤٨ .

التاريخ فيها من حق وخير ، بل عليه - فوق ذلك - أن يحميها من الدخيل الذي عساه أن يضاف إليها بغير حق .

وأن يبرز ما تمس إليه الحاجة من الحقائق التي عساها أن تكون قد أخفيت منها . وهكذا كان من مهمة القرآن أن ينفي عنها الزوائد ، وأن يتحدى من يدعى وجودها في تلك الكتب .

﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾<sup>(١)</sup> .

كما كان من مهمته أن يبين ما ينبغي تبيينه مما كتموه منها : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾<sup>(٢)</sup> .

وجملة القول أن علاقة الإسلام بالديانات السماوية في صورتها الأولى هي علاقة تصديق وتأيد كلي .

وأن علاقته بها - في صورتها المنظورة - علاقة تصديق لما بقى من أجزائها الأصلية ، وتصحيح لما طرأ عليه من البدع والإضافات الغريبة عنها .

هذا الطابع الذي تتسم به العقيدة الإسلامية - وهو طابع الإنصاف والتبصير الذي يتقاضى كل مسلم ، ألا يقبل جزافاً ، ولا ينكر جزافاً ، وأن يصدر دائماً عن بصيرة وبينة في قبوله ورده - ليس خاصاً بموقفها من الديانات السماوية . بل هو شأنها أمام كل رأى وعقيدة .

وكل شريعة وملة ، حتى الديانات الوثنية ، ترى القرآن يحللها ويفصلها . فيستبقى ما فيها من عناصر الخير والحق والفضيلة الصالحة ، وينحى ما فيها من عناصر الباطل والشر والبدعة .

«أما بعد» فهذا هو موقف الإسلام من الديانات الأخرى من الوجهة النظرية .

وقد بقى أن نبحث عن موقفه من الوجهة العملية .

هل يقف منها موقف السكوت عليها والإغضاء عنها اكتفاء بالأمر الواقع ؟

أم هل يقف موقف المحارب المقاتل ، لا يهدأ له بال حتى يطهر الأرض منها ومن أهلها ؟

(٢) المائدة : ٦٥ .

(١) آل عمران : ٩٣ .

قليل من الكتاب الغربيين يجيبنا بالشق الأول .  
حتى قال قائل ، منهم «جوتيه» في أخلاق المسلمين وعوائدهم :  
إن المسلم أناني ، وإن الإسلام يشجعه على هذه الأنانية .  
فالمسلم لا يعنيه ضل غيره أم اهتدى ، سعد أم شقى ، ذهب إلى الجنة أم إلى السعير .  
وأكثر الكاتبيين يجيبون بالشق الثاني :

فالإسلام في نظر هؤلاء يريد أن يفرض نفسه على الناس بحد السيف .  
والقرآن - في نظرهم - يأمر المسلم بأن يضرب عنق الكافر أينما لقيه . .  
الواقع أن كلا الفريقين لم يصب كبد الحقيقة في تصويره لموقف الإسلام .  
ليس الإسلام فاتراً ولا منطوياً على نفسه ، كما زعم الأقلون .  
فالدعوة إلى الحق والخير ركن أصيل من أركان الإسلام .  
والنشاط في هذه الدعوة فريضة مستمرة في كل زمان ومكان .  
يأمر الله نبيه بتبليغ كلامه ، وبأن يبذل جهده في هذا التبليغ :  
﴿ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾<sup>(١)</sup>

والقرآن يحرض المؤمنين على هذه الدعوة :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴾<sup>(٢)</sup>

بل يجعل الفلاح والنجاة وفقاً على هؤلاء الدعاة :

﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ

هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾<sup>(٣)</sup>

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ \* إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ

وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾<sup>(٤)</sup>

(٢) فصلت : ٣٢ .

(٤) شعور : ٢٠٢ .

(١) المرقان : ٥٢ .

(٣) آل عمران : ١٠٤ .

ولكن الإسلام - في الوقت نفسه - ليس - كما يزعم الأثريون - عنيفا ولا متعظشا للدماء .

وليس من أهدافه أن يفرض نفسه على الناس فرضا حتى يكون هو الديانة العالمية الوحيدة .

فبى الإسلام هو أول من يعرف أن كل محاولة لفرض ديانة عالمية وحيدة هي محاولة فاشلة .

بل هي مقاومة لسنة الوجود ، ومعاندة لإرادة رب الوجود :

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾<sup>(١)</sup> .

﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٢)</sup> .

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَّنَ مِنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تَكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا

مُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٣)</sup> .

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾<sup>(٤)</sup> .

ومن هنا نشأت القاعدة الإسلامية المحكمة المبرمة فى القرآن فى قاعدة حرية العقيدة : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾<sup>(٥)</sup> .

ومن هنا رسم القرآن أسلوب الدعوة ومنهاجها ، فجعلها دعوة بالحجة والنصيحة فى رفق ولين :

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾<sup>(٦)</sup> .

على أن الإسلام - لا يكتفى منا بهذا الموقف السلمى السلبى ، وهو عدم إكراه الناس على الدخول فيه ، بل يتقدم بنا إلى الأمام ، فيرسم لنا خطوات إيجابية تكرم بها الإنسانية فى شخص غير المسلمين .

هل ترى أسمى وأنبى من تلك الوصية الذهبية التى يوصينا بها القرآن فى

(١) يونس : ٩٩ .

(٢) يوسف : ١٠٢ .

(٣) هود : ١١٨ .

(٤) النحل : ١٢٥ .

(٥) البقرة : ٢٥٦ .

(٦) القصص : ٥٦ .

معاملة الوثنية التي هي أبعد الديانات عن الإسلام ، فضلاً عن الديانات التي تربطنا بها أواصر الوحي السماوي ؟

اقرأ في سورة التوبة : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾<sup>(١)</sup> .

فأنت تراه لا يكتفى منا بأن نجبر هؤلاء المشركين ونؤويهم ونكفل لهم الأمن في جوارنا فحسب . .

ولا يكتفى منا بأن نرشدهم إلى الحق ، ونهديهم طريق الخير ونكفي .

بل يأمرنا بأن نكفل لهم - كذلك - الحماية والرعاية في انتقالهم حتى يصلوا إلى المكان الذي يأمنون فيه كل عائلة .

ثم هل ترى أعدل وأرحم وأحرص على وحدة الأمة وتماسكها من تلك القاعدة الإسلامية ، التي لا تكتفى بأن تكفل لغير المسلمين في بلاد الإسلام حرية عقائدهم أو عوائدهم وحماية أشخاصهم وأموالهم وأعراضهم .

بل تمنحهم من الحرية والحماية ، ومن العدل والرحمة قدر ما تمنحه للمسلمين من حقوق العامة «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» .

هل ترى أوسع أفقاً ، وأرحب صدرًا ، وأسبق إلى الكرم ، وأقرب إلى تحقيق السلام الدولي والتعايش السلمي بين الأمم ، من تلك الدعوة القرآنية التي لا تكتفى في تحديد العلاقة بين الأمم الإسلامية وبين الأمم التي لا تدين بدينها ، ولا تحاكم إلى قوانينها -

لا تكتفى في تحديد هذه العلاقة بأن يجعلها مبادلة سلم بسلم : ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾<sup>(٢)</sup> .

﴿فَإِنْ اعْتَرَفُواكُمْ فَلَمْ يِقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلْمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾<sup>(٣)</sup> .

بل تندب المسلمين إلى أن يكون موقفهم من غير المسلمين موقف رحمة وبر ، وعدل وقسط :

(٢) النساء : ٩٠ .

(٣) الأنفال : ٦١ .

(١) التوبة : ٦ .

﴿ لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾<sup>(١)</sup>

ليس هذا هو كل شيء في تحديد الموقف الإنساني النبيل الذي يقفه الإسلام عملياً من غير أتباعه . . ولضيق المقام نكتفى بكلمة واحدة :

«إن الإسلام لا يكف لحظة واحدة عن مديده لمصافحة أتباع كل ملة ونحلة في سبيل التعاون على إقامة العدل ، ونشر الأمن وصيانة الدماء أن تسفك ، وحماية الحرمات أن تنتهك ، ولو على شروط يبدو فيها بعض الإجحاف .  
ناهيك بالمثل الرائع الذي ضربه لنا رسول الله ﷺ في هذا المعنى حين قال في الحديثية :

«والله لا تدعوني قريش إلى خطة توصل فيها الأرحام وتعظم فيها الحرمات إلا أعطيتهم إياها» .

فهذا هو مبدأ التعاون العالمي على السلام . . يقرره نبي الإسلام . . ورسول السلام»<sup>(٢)</sup> . هـ

### الفتح الإسلامي في العصر الأول :

هناك سؤال يجب أن يوجه إلينا نحن المسلمين ، ونحب أن نستمع إليه في أناة ، وأن نشرح إجابته على ضوء من الفكر الخرد والتجرد المطلق ، تاركين لكل أمرئ بعدئذ أن يمحس هذا الرد وأن يقننه على وجوهه كلها ثم ليقتنع بما شاء !!

أما السؤال فهو : لماذا خرج المسلمون الأولون من الجزيرة التي انتشر الإسلام فيها زاحفين على مصر والشام وفارس وما وراء هذه الأقطار ؟

ولماذا لم يعيشوا بدينتهم في نطاق أرضهم مكتفين بإرسال الدعاء من حين إلى حين للفت الانتظار إلى الرسالة الجديدة وما تضمنت من مبادئ ونظم ؟

وإذا كان الإسلام لا يخوض الحروب إلا رداً لعدوان أو منعاً لفتنة ، فهل هذه الجيوش التي هدمت الممالك المجاورة وأقامت فيها كانت تشن حرب دفاع أم كانت تهاجم فعلاً ؟

(٢) انتهى مبحث الشيخ محمد عبد الله دراز .

(١) المنتحة : ٨ .

هذا هو السؤال الذي يجب أن نسمعه ! ، وأن نقدم جواباً مقنعاً عنه !  
والا يؤنا وباء ديننا معنا بالصفة التي يستحقها . . ونستحقها معه !  
ونحن نرحب بهذا السؤال ، ونود أن نسمعه من كل فم ، وأن تسمع الإجابة عليه  
كل أذن !

\* \* \*

إن الإسلام يجعل الاعتقاد الصحيح ثمرة الإرادة الحرة .  
وكما أن المكروه على عمل ما لا يتحمل نتائجه ، لأن إرادته استعبدتها قوة قاهرة ،  
فكذلك المكروهون بالعنف على الدخول في دين ما لا يعتبرون متدينين به موضوعاً ،  
وإن خضعوا له شكلاً .

وحسابهم الحق عند الله يقوم على اتجاهات قلوبهم وحركات ضمائرهم فحسب .

وهذا المبدأ يعتبر حجر الزاوية في الدعوة الإسلامية :

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ  
رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾<sup>(١)</sup>

وقد ظهرت في العالم أديان كثيرة ، وتقسمت حكمه دول شتى .

والإسلام لم يبدأ دعوته الكبرى في الأرض إلا بعد أن سنخت النصرانية قرابة  
سبعة قرون ، فضلاً عن اليهودية القديمة ، وعن الوثنية الأقدم من الجميع .

فلننظر ما هي الطرق التي سلكتها هذه الديانات في سيطرتها على الشعوب ؟  
ولنغض الطرف - أولاً - عن قيمها الذاتية ومدى ما فيها من حق وباطل .

ثم لنتساءل هل نال كل فرد من البشر حقه المطلق في اعتناق الدين الذي يتجه  
إليه بمحض إرادته ؟

وهل الحكومات التي أقامت هذه الديانات أعطت رعاياها حرياتهم المطلقة في تخير  
ما يرون من مذاهب وأفكار ؟

(١) التحل : ١٢٥ .

وهل انفردت الوثنية بالحكم فى فارس لأنها قامت على دعائم مكينة من حرية العقل والضمير؟

وهل انفردت المسيحية بالحكم فى أقطارها الواسعة لأنها كذلك وليدة إيمان حر ورغبة مطلقة؟

وما رأى إذا كانت الحكومة المسيحية ذات السلطة الهائلة قد قامت على أنقاض مذاهب مسيحية أخرى ، خنقها الاضطهاد وقتلها الكبيح والجهنم النازل بأشياءها عدة قرون؟

وما رأى إذا كانت المذاهب المنتصرة بقوة السيف مذاهب مخرفة ، والمذاهب المنهزمة أدنى إلى الرشد والصدق؟

هل يعتبر الهجوم على هذه الحكومات عدواناً؟

إننا قبل أن نجيب بالتفصيل على هذه الأسئلة ، وقبل أن نتبين معالم التاريخ القديم نؤكد من جانبنا : أن الإسلام لو استخدم قوة عسكرية ضد حكومات تعتمد سياستها على تأمين حقوق الفرد وإطلاق حريته الدينية لكان قد ارتكب جريمة من أقيح الجرائم .

ولجاز أن يؤخذ بها إلى يوم الدين .

وحسبنا أن نسردها تاريخ الكنيسة فى القرون السبعة التى سبقت الإسلام ، ثم فى القرون الثلاثة عشر التى أعقبتها ، لتضع تحت أعيننا سلسلة من المأسى والفواجع لطخت جبين البشر بالوحل .

وما زال تاريخ الدنيا يئن من ذكرياتها ويفزع إلى يومنا هذا من أشباحها . !!

إن اضطهاد المخالفين كان صبغة عامة للمسيحية منذ تحولت إلى دولة على يد الإمبراطور الوثنى قسطنطين .

ولم يكن اضطهاد أولئك المخالفين عملاً فردياً يبدو حيناً ويختفى أحياناً ، بل كان سياسة ثابتة حاسمة تستهدف إقناء الخصوم ومحو آثارهم محوًا .

وكانت المذابح العامة والقوانين الصارمة التى توحى بها تدبر وتنفذ بوحشية بالغة .



وليسست المسيحية التي أنزلها الله على نبيه عيسى هي التي شرعت للنصارى فى العصور الأولى أو الوسطى هذه التعاليم الهمجية المتعطشة إلى السفك و الهلاك .  
فإن المسيحية الحقة تبخرت بعد وفاة عيسى بأمد قليل .  
وقد حاول بعض الأتقياء المنصفين أن يعيدوها إلى أوضاعها الصحيحة - كأريوس وأتباعه - ففشلوا وأبعدوا ، على ما سيرف القارئ بعد .  
وتولى زمام الديانة المشوهة أقوام انقسموا على أنفسهم فى فهم عقيدة التثليث ، ولعن بعضهم بعضاً ، ونصبوا لأنفسهم المشائق والمحارق ، وعانى العالم من تعصبهم وتشفيهم من خصومهم الويل الكبير .

#### مظالم متبادلة :

عانى المسيحيون الأولون صنوفاً من العسف والأذى تحت حكم الرومان ، وشردهم الاضطهاد الدائم فالتمسوا المهارب فى كل فج .  
وكان اليهود الحقدة ، والوثنيون الجهلة أعواناً على التنكيل بالملة الجديدة والكيد لها .  
ولكن المسيحية - برغم ما نزل بها - تشبثت بالبقاء حتى أتيج لها على نحو نعتبره نحن المسلمين هزيمة لعقيدة التوحيد ، وبداية للون جديد من التدين المعقد المثقل بخرافات الوثنية الأولى !  
وامتزاج النصرانية بأفكار أرضية بحثة بدأ من قديم .  
ولعل ذلك حدث لحاجة الديانة المضطهدة إلى متنفس تتسرب منه وترى ضياء الحياة .  
قال «ترتليان» سنة ٢٢٠م :

« . . . إننا برينتون من الذين ابتدعوا<sup>(١)</sup> مسيحية رواقية ، أو أفلاطونية ، أو جدلية بعد المسيح والإنجيل . لسنا بحاجة إلى شىء » .  
ولكن الذى حدث - للأسف - أن هذه المتدعات هي التي قدر لها بعد أن تعيش وأن تسود .

وسنشرح وجهة نظرنا فى هذا الموضوع عند الكلام عن اختلاف الفرق النصرانية فى حقيقة عيسى بن مريم .

(١) عن متدعات المسيحية ومدخولاتها انظر : الشيخ رحمت الله الهندى - إظهار الحق - والشيخ محمد أبو زهرة - محاضرات فى النصرانية - طبعة دار الفكر العربى .

ويقول الدكتور الطويل : « .. يذهب صفوة المؤرخين إلى تبرير الاضطهاد الذي أنزلته الدولة الرومانية بالمسيحية وأتباعها .

إذ كان الدين الجديد يناصب العقائد الأخرى العداوة ولا يلين في حكمه عليها ورأيه في اتباعها .

وقد بدا من تصرفات المسيحيين واعترافاتهم أنهم على استعداد لإبادة المذاهب كلها ، وتحطيم الحضارة التي يعيشون في ظلها ، متى تهيأت لهم سلطة تمكنهم من بلوغ هذه الغاية .

فكان على الدولة أن تنهض للدفاع عن نفسها ، ومحو دين يهدد بإثارة الشقاق بين رعاياها ، وينذر بتحطيم الحضارة التي يعتر بها .

ولو لم يكن أتباع هذا الدين الجديد طلاب حرية دينية .

فالمعروف أن شهداء المسيحية قد راحوا استجابة لنداء ضمائرهم ووحى إيمانهم ، ولم يموتوا في سبيل الدفاع عن مبدأ الحرية الدينية . . .

ويقول كذلك : « صرح المؤرخون من أمثال «بيري» أن اضطهاد الأباطرة للمسيحيين قد أدت إليه رغبة هؤلاء الأباطرة في الانتصار لمبدأ التسامح العام » .

\* \* \*

وهذه الآراء تعنى - في جلاء - أن المسيحيين الأولين لم يعتمدوا في دعايتهم على المناقشات والمحاورات التي لا تتطلب أكثر من جو حُر لنشر المبدأ انصائب ، مع أن الأديان كلها لا تتطلب أكثر من ذلك .

فهل يعود ذلك إلى أن مبدأ التثليث لا يخضع لمناقشة عقلية حرة ؟ ربما .

ونحن - على أية حال - لا نطمئن إلى ضمائر الحكومات الوثنية .

سواء كانت وثنية دينية تقوم على عبادة الأصنام ، أو وثنية سياسية تقوم على تقديس نفر من الحكام ..

ونستنكر المظالم التي وقعت على المسيحيين ، أو تقع على غيرهم أيًا كانوا .

على أن النصرانية حكمت فعلاً

وكان أسلوبها في الحكم مصداقاً لأسوأ الظنون وملصقاً بالضمير الدبني أقبح اتهم .

كتب الدكتور «توفيق الطويل» عن بدء الاضطهاد في المسيحية ، فقال :

«منذ اللحظة الأولى لظفر الكنيسة بسلطة مدنية - في عهد قسطنطين - دخل مبدأ الكيخ العام ، واستمر عشرة قرون شداد ، رسف فيها العقل والقلب في الأغلال ، وعانى من قسوته اليهود والوثنيون كثيراً . . .» . وقال :

« . . . وقد حاول قسطنطين أن يضع حداً لشرورهم ، فأصدر قانوناً يقضى بإحراق كل يهودى يلقى على من اعتنق المسيحية حجراً ، وعقاب كل مسيحي يهود . ثم عدل العقاب إلى مصادرة الأملاك ، فإن تزوج يهودى بمسيحية أعدم » .

قال : « . . . وقد أبان «نسطوريوس» بطريق القسطنطينية عن مبدئه في الاضطهاد حين قال للإمبراطور : أعطنى الدنيا وقد تظهرت من الملحدين ، أمنحك نعيم الجنة المقيم .

ثم شرعت عقوبة الإعدام للملحدين ونظم إفتانهم .

ووضع «تيودسيوس» في أواخر القرن الرابع قوانين صارمة تتضمن ستاً وستين مادة لمقاومة الهرطقة ، وإلى جانبها بنوداً أخرى لاستئصال الوثنية ، ومناهضة الديانة اليهودية ، والارتداد عن الدين ومزاولة الحر ، ونحو ذلك .

وكان هذا الدستور يقضى بإقصاء الوثنيين عن وظائف الدولة ، وتحريم طقوسهم وحظر عباداتهم ، وهدم معابدهم ، وتحطيم صورهم » .

وفي أوائل القرن الخامس ظهر القديس «أوغسطين» . وهو رجل عنيف المشاعر ، بالغ انقسوة .

كانت حياته سوط عذاب على مخالفي المسيحية ، ورافضى الدخول فيها .

وقد أمد حركة الاضطهاد بالوقود الذى زادها ضراماً ، ورسم للأخلاق مثلاً سيئة للجماح والتوحش .

وقد وصفه الدكتور الطويل بأنه : « . . . صاغ مبدأ الاضطهاد لهداية الأجيال التالية ، وأقامه على أساس الكتاب المقدس مستنداً إلى كلمات فاه بها المسيح فى مثل من أمثاله : «وأجبروهم على اعتناق دينكم» .

وتشبيهاً مع هذا سلم «أوغسطين» بمعاينة الملحدين بالنفى والجلد وفرض الغرامات ،

ووضع للكنيسة دستوراً تلزمه إزاء كل حركة إحادية . . . ، ومن رأى «أوغسطين»  
- الذى استمده من عقيدة الخلاص ، ومن نصوص العهد القديم - « . . . أن عقاب  
الملحدين هو من دلالات الرفق بهم وشواهد الرحمة ، إذ كان هذا العقاب ينقذهم من  
العذاب الأبدى الذى ينتظر المرتدين عن المسيحية . . . » .

«إن الهرطقة توصف فى الكتاب المقدس ، وكأنها نوع من الفسق والمروق وعبادة  
الأوثان ، إنها أسوأ أنواع القتل ، لأنها قتل للأرواح .

من أجل ذلك اقتضت العدالة أن ينال أهلها ما يستحقون من عقاب .

وإذا كان العهد الجديد قد خلا من رسول استخدم القوة والعنف فى نشر  
الدين ، فقد كان هذا لأن عصرهم قد خلا من وجود أمير يعتنق المسيحية» .  
هكذا يقول «أوغسطين» .

يعنى أن المسيحية لم تستعمل القوة من عهد عيسى ، لأنها لم تتح لها ، ولم تيسر  
وسائلها ، ولو أتيحت لها ، ما تورعت عن قهر الأمم بها .

ويقول القديس الجبار مستنداً على آرائه هذه من حوادث العهد القديم : ألم يذبح  
«اليشع» بيده أنبياء «بعل» ؟

ألم يحطم «حزقيال» و «يوشع» ملك «بختنصر» بعد ارتداده ؟

ألم يحطم هؤلاء الأنبياء بالقوة عبادة الأوثان فى أقاليمهم ؟

ألم يكونوا موضع ثناء محمود من أجل ما انطوا عليه من تقوى ؟

قبل بعثة محمد ﷺ :

هذه فلسفة المسيحية قبل بعثة محمد ﷺ تجاه البشر أجمعين .

يجب أن نكشف النقاب عنها ، إذ لا معنى للمواربة فى الحقائق أو الاستحياء من  
تقريرها مع قوم لا يبالون بقلب الحقائق ، وتلمس العيوب للأبرياء .

فالعقيدة الخلاص هى لب المسيحية ، وأساس فكرة التثليث .

وعن عقيدة الخلاص صدر التفكير فى الاضطهاد .

إذ أخذ المسيحيون بنظرية مؤداها : أن الخلاص لا سبيل إليه إلا عن طريق الكنيسة الكاثوليكية وحدها .

وعندما روجوا للإيمان بها أذاعوا : أن الذين لا يدينون بصدق نظرياتنا تحقيق بهم اللعنة الأبدية لا محالة .

فأقضى هذا الاعتقاد إلى الاضطهاد والتنكيل بكل من أبى الإذعان للكثلكة .

واعتبرت الهرطقة أعظم خطيئة ، لا يقاس ما يتلى به أصحابها في الدنيا من صنوف الآلام بما ينتظرهم من الجحيم ، وأضحى إنقاذ الدنيا من أعداء الله واجباً مقدساً .  
والانصاف بالفضيلة لا ينهض عذراً للمروق .

فالطفل - على براءته وخلو ساحته من الخطايا - متى مات من غير تعميد .

مضى بقية حياته الأخروية في جهنم (!) .

فالطبيعي - بعد هذا - أن يستهدف المتهمون بالمروق لأشد العذاب .

أجل فالكنيسة التي تستبيح عذاب طفل وتتصوره عدالة ، لا ينتظر منها أن تعامل جماهير الناس بمنطق سليم .

وكذلك مضت المسيحية تشق طريقها في الحياة ، على ركام يعلو مع الزمن من جثث الخصوم ورفات الضحايا .

كان الوثني يقول - عن المسيحيين في القرن الأول - « . . انظروا كيف يحب المسيحيون بعضهم بعضاً !! فما انقضت بضعة قرون حتى كان يقول :

هل عرفت الدنيا وحوشاً كهؤلاء الذين يفترسون كل من خالفهم في الدين؟ » .

**أثر الاضطهاد في النصرانية نفسها :**

كان ميلاد عيسى لغير أب سبباً في اختلاف واسع الشقة بين من عاصروه ومن جاءوا بعده ، وقد جمحت الآراء في نعت عيسى وأمه ، من الضد إلى الضد ، فبينما يزعم اليهود أن المسيح لقيط ، وأن أمه بغى أنت به لغير رشدة ، يذهب النصارى إلى أن عيسى إله في صورة بشر ، وأن ميلاده الخارق ينفصل به عن مشابهة غيره من الأناسي .

ولما نزل القرآن في أواخر القرن السابع لميلاد «ابن مريم» كان مبيّناً في تخطئة  
الفريقيين وناسباً كليهما إلى الغلو القبيح والشروود عن الحق ، قال الله عز وجل :

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى  
ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا  
ثَلَاثَةٌ انْتَهَوْا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا  
فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾<sup>(١)</sup>

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ  
قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾<sup>(٢)</sup>

والتواقع أن المسيحية في العصور الأولى لم تظفر برعاية يبسطون حمايتهم عليها ولا  
دعاة مضمثين يجمعون الناس في هدوء على حقيقتها .

وقد كانت ولادة «عيسى» الخارقة ووفاته الخارجة على السنن المعتاد كذلك ، مثاراً  
لانطلاق الأخيصة في ظلمات الاضطهاد النازل في كل مكان .

أخيصة تضيء على عيسى هالات من مجد مازالت تتضاعف حتى سلخته تماماً عن  
مصاف البشر !!

ولكن أين تضعه هذه الأساطير المتحمسة ؟

إن النبيين من لدن آدم لم يدعوا إلا إلى رب واحد ، لا شريك له ، ولا ند ولا ضد .

والعهد القديم بين أيدي النصرارى شاهد على ذلك .

فما تكون صلة «عيسى» بهذا الإله الواحد ، إذا لم يكن عيسى بشراً ؟

هذا ما حير الغالين في فهم حقيقة المسيح ، النازعين إلى إشراب طبيعته معنى الألوهية .

وقد انقسموا فرقاً شتى لحل هذا اللغز المعمي ، ولم يعودوا من خلافهم بطائل .

لأن الفرض إذا كان خطأ ، فإن الاستدلال عليه صعب ، والدعوة إليه أصعب .

وتأليه «عيسى» فرض موعغل في الضلال ، ولم يتحول هذا الفرض إلى مذهب

(٢) الثالثة : ٧٧ .

(١) النساء : ١٧١ .

رسمى للكنيسة إلا في القرن الرابع للميلاد ، على عهد الإمبراطور «قطنطين» ، وهو حاكم وثنى تزعم التواريخ المسيحية أنه تنصر ، وأصدر مرسوماً بإبطال عبادة الأوثان .

ولسنا هنا بصدد مناقشة هذه المزاعم ، ولا الموازنة بين رواياتها المتضاربة .

والكنسيون الجانحون إلى تأليه «عيسى» ، والذين ساندتهم السلطات بعدما أتيح للمسيحية أن تعتمد على سلطات ، لهم آراء غريبة في «عيسى» .

فهناك اليعاقبة القائلون : «بأن الطبيعة الإلهية والبشرية امتزجتا في المسيح وصارتا فيه طبيعة واحدة .

فكان عند التجسد ذا طبيعتين ! أما بعده فصار ذا طبيعة واحدة» .

أما الملكانية فيقولون : «إن الابن مولود من الأب قبل الدهور غير مخلوق وهو جوهره ونوره ، والابن اتحد بالإنسان المأخوذ من «مريم» فصارا واحداً هو المسيح» .

وفي القرن الخامس قرر مجمع أفسوس «ألوهية المسيح وإنسانيته معاً ، ولكنه أنكر وحدتهما في شخصية واحدة شاعرة بنفسها .

ومن ثم انشطرت الوحدة إلى اثنيية» .

ومن حق كل امرئ أن يسأل : هل كانت هذه الفروض القائمة على تأليه «عيسى» والمضطربة في تحديد وضعه بالنسبة إلى الإله الكبير ، هل كانت هذه الفروض التي انتصرت وشاعت هي الصورة الفريدة للتفكير المسيحي في العصور الأولى؟ والجواب : لا . . . !!

فقد كان هناك كثيرون يشعرون من أعماق قلوبهم بأن «عيسى» لا يعدو أن يكون بشراً ميزه الله ببعض الخصائص الجليلة ، وأن الألوهية أسمى مكاناً وأعز شأنًا من أن يشاركها في أوصافها القديمة المطلقة الخالدة أحد من الخلق ، ظهر في عصر من العصور ثم اختفى .

وقد كان هؤلاء النصارى الموحدون يفقهون دينهم على أصوله الصحيحة ، إلا أن تحول المسيحية إلى دولة أيام «قطنطين» وما طرأ على سيرها في هذا التحول ، جعل عقيدة التوحيد وأشياؤها تنعرض ويتعرضون معها لما عرف به الحكم الكنسي من فظاظة وإرهاب .

فى سنة ٣٣٦م قرر «أريوس» محاربة ما شاع فى عصره من بدعة التثليث وبين أن «عيسى» لا يمكن أن يكون مساوياً لله فى جوهره وطبيعته . بل هو خلق حادث شأن سائر المخلوقات الخاضعة فى وجودها وفنائها لإرادة الله الواحد القهار .

وانتشرت تعاليم «أريوس» وبدأ الناس يتوبون إليها .

ولكن الإمبراطور «قسطنطين» الذى لم يستأصل الوثنية فى بلاده الواسعة ، وتركها تعيش من بعده قرابة مائة عام حتى استأصلها «تيودوسيوس» ، هذا الإمبراطور أمر بتشكيل مجمع «نيقية» الذى حكم بأن المسيح يساوى الله فى جوهره وطبيعته ، ثم قرر مطاردة «أريوس» وأتباعه .

وبدأت الكنائس الواهمة والسلطات الحاكمة تتصافر على محاربة الوجدانية الحقنة فأحرقت كتبها ، وحرم اقتناؤها ، وتعرض رجالها لما يتعرض له كل خارج على الدين والدولة ، موسوم بالإلحاد والمروق . .

وقد استتب الأمر للكنيسة ، وتفكك الموحدون كجماعة لها شأن وقوة ، وانفردت الكنياسة بالسيطرة العامة فى أقطار المسيحية الجديدة ، المسيحية القائمة على التثليث وملء الكنائس بالتمائيل والبحور والتعاويد .

**حول مؤتمر نيقية :**

اجتمع فى مدينة «نيقية» ٢٠٤٨ من الأساقفة والبطاركة ، وكانوا مختلفين جداً فى آرائهم وعقائدهم .

فمنهم من كان يقول : «المسيح ومريم إلهان من دون الله» .

ومنهم من يقول : «إن المسيح من الأب بمنزلة شعلة نار توقدت من شعلة نار ، فلم تنقص الأولى لإيقاد الثانية منها» .

ومنهم من كان يقول : «لم تحبل «مريم» لتسعة أشهر ، وإنما من نور فى بطن «مريم» كما يمر الماء فى الميزاب ، لأن كلمة الله دخلت من أذنها وخرجت من فرجها لساعتها» .

ومنهم من كان يقول : «ثلاثة آلهة : صالح ، وطالح ، وعدل بينهما» .

ومنهم من يقول : «ربنا وإلهنا يسوع المسيح» .



ومنهم من يقول : «إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد منا فى جوهره ، وأن ابتداء الابن من «مريم» ، وأنه اصطفى ليكون مخلصاً للجوهر الإنسانى ، صحبته النعمة الإلهية . فخلق منها بالمحبة والمشيئة ، فلذلك سُمى ابن الله» .

ويقولون : «إن الله جوهر واحد ، وأقنوم واحد يسمونه بثلاثة أسماء ، ولا يؤمنون بالكلمة ولا بروح القدس» .

ومنهم من يقول : «إن المسيح إله حق ، وإنسان حق ، بطبيعتين مختلفتين ، ومشيئتين كذلك» .

ومنهم من يقول : «إنه بطبيعة واحدة ومشيئة واحدة» .

إلى غير ذلك من الآراء والاعتقادات المختلفة المتناقضة .

وقد اجتمع هؤلاء عند «قسطنطين» وتناظروا واختلفوا .

وصار كل منهم يؤيد رأيه وعقيدته وينكر ما عداها .

واشتد الخلاف والتزاع بينهم حتى لعن بعضهم بعضاً ، وانسحب كثير منهم من المجمع ، فلم يبق إلا ٣١٨ أسقفًا .

هؤلاء هم الذين بقوا فى المجلس ووضعوا أساس العقيدة الجديدة للمسيحيين ، التى يلعن من خالفها ويطرد من الكنيسة .

ووافق الملك «قسطنطين» على ذلك ، وأصدر أمره به .

أصل هذه العقيدة منقول عن عقيدة الهنود القدماء فى الشمس التى كانوا يعبدونها .

قال «مالفير» فى كتابه المطبوع عام ١٨٩٥م وترجمه إلى العربية «نخلة بك شفوات» سنة ١٩١٣م ما يلى :

«لقد ذكر فى الكتب الهندية القديمة التى ترجمت إلى اللغة الإنكليزية شارحة عقيدة الهنود القدماء ما نصه :

نؤمن «بسافستري» أى الشمس ، إله واحد ، ضابط الكل ، خالق السموات والأرض ، وبابته الوحيد «أتى» أى النار ، نور من نور ، مولود غير مخلوق ، تجسد من «فايو» أى الروح فى بطن «مايا» العذراء .

ونؤمن «بفايو» الروح الحى المنبثق من الأب والابن ، الذى هو مع الأب والابن ، يسجد له ويمجد .» .

والثالوث القديم وهو «بسافستري الشمس» أى الأب السماوى ، وأتى «النار» أى الابن وهو النار المنبثقة من الشمس . و«فايو» نفخة الهواء» أى الروح ، هو أساس المذاهب عند الشعوب الأريانية ، أى الهنود القدماء .

ويلاحظ أن المجمع المسكونية القديمة للنصارى قد انتهت إلى إقرار عقيدة عامة للنصارى جميعاً ، تنص على ما يلى :

«نؤمن بإله واحد ، ضابط الكل ، خالق السموات والأرض ، كل ما يرى وما لا يرى ، ورب واحد يسوع المسيح ، ابن الله الوحيد ، المولود من الأب قبل كل الدهور ، نور من نور ، إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساو للأب فى الجوهر ، الذى من أجلنا نحن ، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء ، وتجسد من روح القدس ، ومن مريم العذراء ، وتأنس و الصلب على عهد «بيلاطس النبطى» وتآلم وقبر وقام فى اليوم الثالث كما فى الكتب وصعد إلى السماء ، وجلس عن يمين الأب ، وسيأتى بمجده ليدين الأحياء والأموات ، الذى لا فناء لملكه ، وبروح القدس ، الرب الحى المميت المنبثق من الأب المتحد مع الأب والابن المسجود له . . الخ» .

اضطهاد الموحدين فى العالم المسيحى :

لكن صوت القطرة لا يخفت مهما أشيع حوله من إرهاب وسلط عليه من أخطار .

فبين الحين والحين يصرخ رجل حر باستنكار التعدد فى الألوهية ويعلن ضيقه بثالوث الأب والابن وروح القدس .

ونحن نقرر - أسفين - أن الكنيسة تكون أسرع من البرق فى إخفات هذا الصوت وإخفاء معالنه .

ومصرع المصلح الأسباني الكبير «سرفتيوس» دليل على صدق ما نقول . .

فإن هذا الرجل ما إن جهر برأيه فى حطل التثليث حتى اقتيد إلى السجن ، ثم قدم للمحاكمة ، فقرر القضاء العادل (!) إعدامه حرقاً سنة ١٥٥٣م .

وتبادل رجال الدين والدنيا التهاني عقب إحراقه !! ..

واستعاد الموحدون نشاطهم فى إيطاليا وألغوا طائفة انشقت على الكنيسة وعرفت «بالصوصنية» وأظهر هؤلاء مبادئهم التى تتلخص فى إنكار ألوهية المسيح ونسبة الربوبية إلى الله وحده .

ومن البديهي أن تناصب الكنيسة هذه الحركة العدا ، وأن تشن حرباً شعواء مكررة التهمة التى ترمى بها خصومها من القرن الأول ؛ تهمة الهرطقة .

بما اضطر معه هؤلاء الموحدون إلى الفرار من وطنهم إلى سويسرا ، فكان حظهم هناك أسوأ إذ هاجمتهم الكنيسة البروتستانتية ، ففروا من وجهها إلى بولندة وترنسيفاليا .

وهناك أذاعوا عقيدتهم القائمة على مبدأ التوحيد . قال الدكتور الطويل :

«تحت تأثير الروح الصوصنى أعلن «كاستيلون السافوى» مبدأ التسامح فى رسالة شهر فيها بتعصب «كلفن» وحقده ، وندد بموقفه من إحراق «سرفتيوس» والقضاء والقدر . وأعلن أن الدين إذا صاحبه الاضطهاد كان لعنة» .

والحق أن الحرية العقلية تلازم دائماً عقيدة التوحيد .

فإن الرجل الذى يبنى يقينه على الفكر الصائب ، لا يبالي أية مناقشة حرة .

ويرى أن سداد المنطق فى كل شىء عون له على تدعيم مبادئه وإظهار حقه .

أما الرجل الذى يشعر بالريبة والغموض فى أساس عقيدته فهو يعزلها عن العقل أولاً ، ثم يجتهد أن يهون من قيمة العقل ومنطقه فى سائر الحياة .

فإذا حدثت مجادلة بينه وبين مخالف له فى مذهبه اعتمد فى الغلب على السنان لا على البرهان .

ودعوى القوى كدعوى السباع من الناب والظفر برهانها

ولئن كان الكاثوليك قد نكلوا بالعلماء والأحرار والمفكرين ، أفنظن أن البروتستانت كانوا أهدى منهم سبيلاً ؟

إن «لوثر»<sup>(١)</sup> نفسه كان يسمى «أرسطو» الخنزير الدنس الكذاب !  
وقال عن «كوبن نيكوس» - وهو أول رائد عرفه علم الفلك الحديث - : «إنه منجم مأفون مصاب بمس !!» .

ولم يستقر الموحدون «الصونيون» في بولندة طويلاً ، فقد طاردتهم الكنيسة ففروا إلى ألمانيا وهولاندة ، حاملين معهم عقيدتهم المضطهدة ، ومبشرين كذلك بالحرية العقلية والتسامح الديني .

بيد أن أصابع الكنيسة مازالت تدس وراءهم وتتعقب أسياعهم ، حتى سحقتهم سحقاً .

هذه سطور قليلة من صفحات طويلة لتاريخ الكنيسة التي دار بينها وبين الإسلام قتال تراجعت بعده عن مصر والشام وغيرها .

إن الإسلام ينهض على أساس فذ ، هو توحيد الله .

فهل رأيت في تاريخ الكنيسة أن هذا الأساس منح حق البقاء يوماً؟ أو اعترف بأصحابه كمؤمنين مخلصين؟

لقد حرقوا وأبعدوا ..

ومنسرد الكثير من هذه المآسي المخزية لمركبها إلى آخر الدهر .

ولنسأل كل منصف : هل صودر مبدأ التثليث في ظل الدولة الإسلامية الموحدة؟ أم بقيت كنائسه وأشياعه تتكاثر إلى اليوم في قلب الإسلام وفي أرجاء وطنه الكبير؟

من نتائج الاستبداد :

إذ ذابت حرية الفرد في سلطان الحكم المطلق ، وشعر جمهور الأمة بالانزواء والانكماش أمام إرادة واحدة مكنتها المصادفات من السيطرة والامتداد .

(١) «مارتن لوثر» : ألماني درس اللاهوت وتخصص فيه .. اعترض على مسلك البابوية الكاثوليكية ، وثار على بعض مأخذ المسيحية مثل صكوك الغفران وأسس العقيدة البروتستانتية وهم من يسمون بالطائفة الإنجيلية .. ورغم ذلك لم يكن أحسن حالاً من غيره . «المحقق» .

فمن العيب أن تتجه عناية المصلحين إلى أفراد فقدوا ثقتهم وأعطوا قيادتهم لغيرهم ، بل يجب حسم الأمر أولاً مع صاحب السلطة المطلقة .

فإن بقاءه في وضعه العائى يتنافى مع كل إصلاح .

والعالم في عصوره الأولى لم يسلم ، بل لم يخل من أولئك المستبدين الجبارين ، وقد كانت أقطار المسيحية كغيرها أو أشد تعرضاً لهذا اللون من الضغيان .

ونلاحظ أن حرب الثلاثين عامًا التى اشتعلت في أوروبا خلال القرن السابع عشر للميلاد قد انتهت بصلح عجيب .

إذ منحت كل أمير الحق في اختيار الدين الذى يفرضه على شعبه !!

وهذا المسلك النبى يدل على قيمة الحرية الفردية في أوروبا قديماً .

والواقع أن هذا المسلك يطرد مع الفهم القديم لمكانة الإنسان في البلاد التى يسودها الاضطهاد والاستبداد .

وتاريخ الكنيسة يعرف هذه الشئون حق المعرفة .

وقد كان الرسول الكريم محمد ﷺ يدرك الأحوال العامة في فارس والروم ، فلم يرسل دعائه إلى الشعوب المضطهدة المأكولة .

فأتى لها سماع هديه؟ والافتناع بوحيه؟ وهى مغلوبة على أمرها ، مستسلمة لآكلها؟

فأرسل دعائه إلى الرؤساء المتكبرين أولاً .

روى مسلم عن أنس قال : كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى ، وإلى قيصر ، وإلى النجاشى<sup>(١)</sup> - وليس بالنجاشى الذى صلى عليه - وإلى كل جبار عنيد يدعوهم إلى الله عز وجل .

ولو أرسل إلى الشعوب المحكومة نفسها ، أفترى أصحاب الحكم المطلق يدعونهم لحظة لإبلاغ رسالتهم؟

إن السلطة الضاغطة على الشعوب تمنعها أن يصلها من الخارج نداء ، وتقتل أية محاولة لذلك .

ولم تجد هذه الرسائل التى بعث بها النبى الجديد إلى حكام عصره .

(١) النجاشى : لقب حاكم الحبشة وقتئذ وليس اسم فرد بعينه .

وهي - في حقيقتها - لا تعدو أن تكون إعداؤا إلى الله بإبلاغ الحق لكل امرئ عظم شأنه أم هان .

كما أنه إيانة لمنهج الدين الجديد في إرشاد الناس إلى أصوله .

إن «موسى» الفريد الأعزل لا يتصور في حقه أن يكره فرعون على الإيمان بالله .

ومحمد ﷺ المعلم في قلب الصحراء المنقطعة لا يتصور في حقه كذلك أن يكره كسرى وقيصر على الدخول في دين .

وإبلاغ الدعوة لا يتطلب أكثر من عرض حقائقها على صفحة قرطاس ثم ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾<sup>(١)</sup> .

فأما «كسرى» فقد تناول الخطاب ثم مزقه ، وأمر بإرسال اثنين لاستحضار المتجري على دعوته ، كيما ينزل به ما يستحق من عقاب .

وأما «قيصر» فقد دار بينه وبين حاشيته نقاش طوى الكتاب بعده من غير رد . ومشت الأمور على منطقتها المؤلف في تاريخ الكنيسة الرومانية من سبعة قرون فأعدت الجيوش لمقاومة الديانة الناشئة بالقوة ومنع تعاليمها أن تعبر حدود الدولة . ولاشك أن المسلمين لو كانوا رعية رومانية من نشأتهم الأولى لأبيدوا وطمست عقيدتهم ، كما حدث لأسلافهم الموحدين الخاضعين لسلطان الكنيسة .

ولكن القدر في هذه المرة دَرَّع الموحدين بالحديد ذي البأس الشديد .

فلما فغرت الكنيسة فمها وأطبقتة لتعض الموحدين الجدد تهشمت أسنانها وانكسر عدوانها!

وكان ذلك بعد سنين من هزيمة المسلمين في معركة «مؤتة» ومقتل دعائهم عند حدود الشام على عهد النبي نفسه .

\* \* \*

وأبشع نتائج الاستبداد تحدث من تواصل أحزانه وتتابع عدوانه ، وإجلابه بخيله ورجله على المستضعفين يقلق أمنهم ويروع ساكنهم .

(١) الكهف : ٢٩ .

وإذا وضع المستبدون سياسة بعيدة المدى لتغيير عقائد ومحو أجيال وقست قلوبهم فلم يباليوا بما يعترض سياستهم من صعاب ومغارم ، فإنهم واصلوا لا ريب إلى غايتهم الأثمة على أنقاض من الأشلاء والخرائب .

قال الدكتور الطويل : « إن الاضطهاد نجح في مجال الاعتقاد الديني ، فأخفت كل صوت ارتفع بالمقاومة ، وأثارت القسوة والصرامة فزع العامة وملأت أفئدتهم هلعاً . فارتد عن دينه أصلب الناس قناة ، أو تفتنوا في سبيل عقائدهم فذهبوا شهداء ، أو ولوا الأدبار فراراً بدينهم ، فأخلوا الطريق للظالمين .

وهذه الحالات جميعاً تعتبر نصراً للاضطهاد ، إذ تنبت الأجيال الجديدة - في البلد المضطهد - وقد طبعها الاستبداد على ما يريد فرضه من مذاهب وأراء . وقد باد المسلمون في أوروبا المسيحية تحت أطباق هذه الرحي المجنونة .

إذ لم يكن الاضطهاد النازل بهم أزمة تعرض ثم تزول ، أو غيمة تظلم ثم تتجلى . بل كان مجزرة نضاجة بالدم ، مرعدة بالردى ، سيقت إليها النساء والرجال والأولاد والشيوخ ، فإما الاستشهاد أو الارتداد .

ومن نجا بجلده ترك من بعده بلداً حكم عليه أن يتنصر إلى الأبد !! حدث ذلك لمسلمي أسبانيا إبان القرون الوسطى ، إذ أستأصلتهم عن آخرهم محاكم التفتيش .

وحدث مثل ذلك لمسلمي البلقان في هذا العصر .

فإن المذابح التي أوقعها القائد اليوغسلافي «مخايلوفتش» بألوف المسلمين هنالك قد تطاير إلينا رشاشها القاني<sup>(١)</sup> .

وإن كانت «أوروبا» المتحضرة (!) قد تكتمت أنباءها ليظويها النسيان ثم تغفو ونصحو فإذا بأنقاض الإسلام في البلقان قد زالت أو كادت .

وهذه النزعة المجرمة إلى إفناء الخصوم ومحق الآراء المخالفة ، توارثها سدنة الكنائس المسيحية من أول يوم تمكن فيه رجالها من الاستيلاء على السلطة التنفيذية .

(١) ومؤخراً انتهت بفضيحة اليوستة والمهرسك على مسمع ومشهد من أسنام الأمم المتحدة وشياطينها الخرس .

وقد استطاع الكاثوليك قبل ظهور الإسلام أن يوطدوا سلطانهم المطلق عدة أجيال متعاقبة ، قضوا فيها على مذهب الموحدين ، فلم يعد له كيان متماسك .  
وطاردوا اليهودية فهام أبناؤها على وجوههم في مشارق الأرض ومغاربها .  
وأبادوا الوثنية المحضة ودمروا معابدها ، ثم استدار الكاثوليك على مخالفيهم في المذهب يريدون إفناءهم فبطشوا بأقباط مصر .  
وقد أحس الأحياء فاطمة بضرورة تجريد الكنيسة من سلطتها التي أساءت بها إلى العالم أبلغ إساءة .  
وذنب الإسلام أنه فعل بالكنيسة المسيحية ما فعله المسيحيون أنفسهم بها بعد بضعة قرون! !

#### حرمان المسيحيين من الحكم :

ماذا صنع الإسلام بالمسيحية عندما اصطدم بها في ميدان القتال ؟  
إنه لم يحاربها كدين ، بل حاربها كدولة ، وهذا ما فعله المسيحيون أنفسهم .  
إنه لم يغلق أبواب الكنيسة ، ولم يحرم أحداً من الدخول فيها ، أو الخروج منها .  
بل جرد الكنيسة من السلطة التي أوغرت صدور البشر عليها ، وجعلتها تنتكر لاصلها وتخرج عن شرعتها .  
ولم يشرع الإسلام - كما شرعت الكنيسة - قوانين لاستئصال الوثنية بالسيف ، وتنصير اليهود بالعنف ، وإبادة الخصوم في الرأي - ولو كانوا مسيحيين - كما فعلت الكنائس المتخصصة عندما أعلن بعضها على البعض حرب فناء أو ردة . .  
بل أقر الإسلام حرية العقل والضمير ، فكان المسيحيون الذين حكمهم الكاثوليك أول من رحب بزوال الكنيسة التي ظالما ذاقوا بطشها وعانوا ويلها . .  
وقد رحبت مصر والشام بزوال الحكم الكاثوليكي الذي فرضته دولة الروم الشرقية على هذه البلاد .



فأما مصر فقد أراد «هرقل» أن يفتنّها عن مذهبها المسيحي ، وأن يلزمها بتنفيذ قرار مجمع «خلقدونية» .

فأبى الأقباط ترك معتقدهم ، فصب عليهم الرومان سوط عذاب ، وتحولت الكنائس والأديار القبطية إلى سجون تحفل بالكوان الأذى .

وجيء بأخى الأسقف الأكبر «بنيامين» فوضع على منصة أوقدت تحتها المشاعل وسلطت ناراها على بدنه ، فأخذ يحترق حتى سال دهنه من جانبه على الأرض !  
ولما لم يتزحزح عن عقيدته ، خلعت أسنانه ، ثم قاده الجلادون إلى الشاطئ ، وعرضوا عليه أن يترك دينه ، ويخضع لقرار المجمع ، فأبى ، فرموا به فى البحر وابتلعته أمواج اليم . . .

فلما طرد المسلمون الروم من مصر ، تنفس الأقباط الصعداء<sup>(١)</sup> .

ولم يكن عجيباً أن يعاونوا العرب الفاتحين على التخلص من سطوة حكم غاشم ، وأن يتطلعوا إلى المسلمين كمنقذين لهم من هذا العذاب الأليم .

فإن المسيحيين فى هذا القطر الخصب أصابهم من استنزاف الرومان لخيراتهم ، واضطهادهم لمذهبهم ما جعلهم ناقلين على الدولة ، متمنين من أعماق قلوبهم أن يسقط لواؤها .

ولم يستطع المؤلف المقتضى على الإسلام أن يغض من هذه الحقيقة فهو يقول فى ص ١٨ : «لا نغالى إذ قلنا إن توطيد السيادة العربية مكان السيادة البيزنطية . أدخل على نفوس مسيحيى الشرق بادرة من الأمل .

فقد كتب «ميخائيل» السورى بطريرك أنطاكية يقول : «إن رب الانتقام استقدم من المناطق الجنوبية أبناء إسماعيل ، لينقذنا بواسطةهم من أيدي الرومانيين .

وإذا تكبدنا بعض الخسائر لأن الكنائس التى انتزعت منا وأعطيت لأنصار مجمع «خلقدونية» بقيت لهم ، إلا أننا قد أصابنا خير ليس بالقليل ، بتحررنا من قسوة الرومان وشرورهم ، ومن غضبهم وحفيظتهم علينا . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى سادت الظمأنينة بيننا» .

(١) لقد هرب «بنيامين» من بطش الرومان طيلة ٢٠ سنة نساء أهل ملته ، وتاهت نبيها تعاليمه . . . ولم يظهر إلا عند فتح عمرو بن العاص لمصر .

وهذا البطريرك يعقوبى ، وهو هنا يستبشر بعهد الحرية الدينية التى صحبت دخول المسلمين ، ويأسى لما أصاب مذهبه من خسائر على عهد الروم .

ولا ينسى الكنائس التى انتزعت منهم وأعطيت لخصومهم فى هذا العهد المشؤم .  
والمسلمون لم يفكروا فى نبش هذا الماضى ، ولم يحاولوا التدخل فيما بين المسيحيين من خلاف .

إلا أنهم احترموا رغبة المسيحيين فى ألا يجاورهم بيت المقدس يهودى .  
ولم يروا فى هذا ظلماً لليهود .

وحسب اليهود فى ظلال الحكم الجديد أن أمنوا على عقيدتهم ما بقوا مسلمين لغيرهم .

وكان آخر ما نزل بهم قبل الحكم الإسلامى فى الشام الذى أصدره الإمبراطور هرقل : « . . . بتعميد جميع اليهود والسامريين الذين يقطنون مختلف الولايات الخاضعة له » (!) .

ومثل هذا الأمر مألوف فى تاريخ الكنيسة قديماً .

وقد انقطع بزوال حكمها فى الشرق .

وبقى فى «أوروبا» حتى هدم المسيحيون بأنفسهم الحكم الكنى فى العصر الأخير .

\* \* \*

قام الحكم الإسلامى على تسامح واسع النطاق ، وسنتابع سير الفتوح لنرى مصداق هذا من وقائع التاريخ .

وقبل هذه النقلة نريد أن نقرر حقيقة أخرى .

وهى أن هذا التسامح فى منح الحرية الدينية لم يظفر به المغرب إلا بعد قرون متطاولة وتضحيات فادحة .

ولو قدر للمسيحيين في الغرب أن يتخلصوا من حكم الكنيسة كما تخلص إخوانهم في الشرق لنجوا من مأساة جمّة ، ولكان تاريخ «أوروبا» أنظف مما هو عليه الآن .  
على أن التسامح الذي ساد دول أوروبا ، بدأ ناقصاً ، وانتهى مشوهاً ، وأشرفت عليه نوايا مدخولة .

ولكنه - على كل حال - أقل شراً من حكم الكنيسة المباشر .  
ولم تستطع دول الغرب التخلص من أغلال الكهنوت ، والفرار من مآزقه الكريهة إلا بعد مراحل متطاولة ، كان النزاع فيها حاداً بين شعوب تنشد الانطلاق ، وكهان مردوا على السيطرة والتزمت .

\* \* \*

وللمؤرخ المسلم أن يلاحظ تبرم المسيحيين بعقيدة التوحيد ، حتى في العصور التي بدأت تحارب التعصب .

ففي إنجلترا - مثلاً - حاول أتباع الكنيسة المسيحية سنة ١٦٤٨ استصدار قرار من البرلمان بإعدام كل من يشير برأى يتعارض مع عقيدة التثليث والتجسيد !!

وفي سنة ١٦٨٨ أصدر البرلمان الإنجليزي قانون الحقوق وهو ينص على جعل البروتستانتية ديناً رسمياً لإنجلترا ، ويحرم على الكاثوليك القيام بعبادتهم في البلاد الإنجليزية !!!

وفي السنة نفسها صدر قانون التسامح وهو يعطى الحرية الدينية لبعض الطوائف وينص على حرمان الكاثوليك والموحدين هذه الحرية التي استمتع غيرهم بنيلها !!!

وقد ظفر الموحدون بعد فترة طويلة بحرية العبادة . ويوجد إلى عصرنا هذا جمهور كبير من الأوروبيين يعتقدون أن «عيسى» عليه السلام لا يعدو أن يكون بشراً نبيلاً ومصلاً كريماً ، وأن ألوهيته المزعومة وهم مغرّق في الاستحالة .

غير أن هؤلاء الموحدين أوزاع لا تضمهم روابط قوية ، ولن يستطيعوا في وسط العالم المسيحي السادر أن يتحولوا إلى قوة هادية موجهة .

وقد قرأنا الكلمات التي فاه بها فريق من رجالات ألمانيا قبل وفاتهم فرأيناها تنضح  
بهذه الحقيقة .

\* \* \*

لكن القدر الساهر على إصلاح الأرض ، وفي سبيل هذا الإصلاح يدفع الناس  
بعضهم ببعض لم يدع هذا المذهب المضطهد يموت ، ولئن ظل مطارداً في أرجاء الممالك  
المسيحية قرونًا بعد قرون .

فقد شاء الله أن تجدد حياته الرسالة الخاتمة التي جاء بها محمد ﷺ ، وأن يحوطه  
بسياح متين تتكسر حوله أمواج العدوان!!

وهكذا عاد مبدأ التوحيد الذي نزل به آدم من السماء إلى الأرض .

وحمل ألوته ، نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى .

عاد هذا المبدأ إلى حياته وغمائه بعدما أوشك على الذبول والتلاشي تحت وطأة  
المسيحية الرومانية الشاردة عن أصولها الصحيحة .

أما هذه المسيحية المثلثة المتجسدة المتعصبة فقد لقيت مصيرها في أوروبا نفسها ،  
لقيته منذ بدأت النزعة إلى تحكيم العقل تسيطر على التفكير الغربي .

فجردت المسيحية من سلطتها التنفيذية كما يجرد المعتدى من سلاحه .

وظفرت الجماهير المروعة بالأمان الذي ظفر به إخوانهم من قبل يوم حرر الإسلام  
مصر والشام وغيرهما من نير الكنيسة وحمق الكهان . . . !!!

\* \* \*

( ٣ )

**أسلوب التوسع والمعاملة**

**فى تاريخ الديانتين**

تلك نبذة يسيرة عن الأسلوب الذى عاشت به المسيحية بعد وفاة رسولها .  
وهو أسلوب لا يجرؤ منصف على تبريره أو تبرئة رجاله .  
بل إن منازع العدوان والجبروت تصبغه وتزرى به ، وتتنادى بضرورة وقاية العالم  
أجمع من فتكاته وغدراته . . . !!  
وقد عد هذا البغى من خصائص التاريخ الكنسى .

حتى أن «شوقى» اعتذر به وهو يتحدث عن تسخير الفلاحين فى تشييد الأهرام ،  
كأن القساوسة فريق من الفراعنة قال :

وَرِيَّةَ بَيْعَةَ عَزَّتْ ، وَطالَتْ . . . بتأها الناس أمس مسخرينا  
مشيدة لشافى العُمى عيسى وكم سمل القسوس بها عيوننا

فهل من عجب أن يتعهد القدر الأعلى هذه الدنيا البائسة فيبعث إليها من بأسو  
جراحاتها ويستنقذها من إفسار الحكام والكهان الذين تواطأوا على إهانتها وإساءتها؟  
«أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ  
قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ ﴿١﴾»  
إن اليهود والنصارى كذبوا هذا النبى ، كما كذبه الوثنيون .

بل إن أصحاب الكتابين السابقين انضموا إلى عبدة الأصنام فى مصاولة الدين  
الجديد ، ومحاولة القضاء عليه .

ونفذت مشيئة الله فانتصرت قوى الخير انتصاراً قطع دابر المعتدين ، وأياسهم من  
معاودة الكيد والمكر بالبلاد والعباد . . .

ولم تخل الحياة ولن تخلو من أبرار يتبعون الحق حين يعرفونه ، ويستمسكون به  
حين يذادون عنه .

إن الذى خلق الحقيقة علقماً لم يُخلِ من أهل الحقيقة جيلاً  
وقد انشروحت صدور كثيرة بالإسلام .

ثاب إلى مبادئه الراشدة من انخدعوا قبلاً بعبادة الأصنام .

(١) يونس : ٢ .

كما أن جماهير غفيرة من اليهود والنصارى رأَت في هذا الدين الكريم الأصول الصحيحة لليهودية والنصرانية ، فأمنت بمحمد وعيسى وموسى جميعاً ، واعتنقوا الإسلام عن رغبة واعزاز .

إلا أن هناك طوائف أخرى من الوثنيين واليهود والنصارى بقيت على ما ورثت ، وحرصت على تجريح الإسلام ونبيه .

ولم يزلها تطاول الأيام إلا افتراء على الرسالة العظمى وصاحبها الأمين .

وهم - بعد ألف من السنين وأربعمائة - لا يزالون يتحدثون عن رواية دامية صنعها خيال رجل لا صلة له بالسماء !! .

ما أشبه أولئك المتخلفين بقطع من العميان ، كلما طلع عليهم النهار واستفاضت على الناس أشعته بقوا في ليلهم الدائم لا يحسون جديداً ، ولا يدركون نقصاناً ، ولا مزيداً . .

أفتري حجاب أولئك المحرومين قادمًا في مطلع الشمس ، أو كاسفًا من بريقها؟

إن الأدلة التي تثبت بها نبوة محمد أرسخ - في عصرنا هذا - من الأدلة التي تثبت نبوة موسى وعيسى .

ومن الإزراء بالعقل أن نزع القرآن كتابًا بشرياً ، وأن نطالب بعدئذ بعد التوراة والإنجيل تراثًا سماويًا محضاً . . !!

والمؤلف الذي تناول قصة الفتوح على أنها غارة شعواء ، وتعرض لأصحاب محمد من ساسة وقادة على أنهم رجال ذوو مطامع وأهواء ، من طراز ، «الإسكندر» و «نابليون» وغيرهما .

هذا المؤلف المسكين ، ليس إلا مثلاً للتعصب الذميم .

تعصب العميان ضد الضياء .

تعصب الكهان المشدوهين ضد الديانة التي أسقطت وساطتهم ونسخت خرافاتهم .

وسنذكر خلطه في الكلام عن الفتوح الأولى معقبين عليه بالحق المبين .

قال في ص ٢١ : « . . الواقع أن الفرس والروم كانوا ينشدون الراحة لأن الحروب التي وقعت بينهم أنهكتهم .

قال القسيس : « . . . لأن أهم نقطة في الدين عمل المسيح للناس كالوسيط بينهم وبين الله تعالى ، حتى يؤكد لهم مغفرة خطاياهم ويدخلهم في حالة أولاد الله ! فيبعدنا عن سلطة المحرب ! ويقوينا لحياة صالحة !

ومع احترام المسلمين للمسيح فإنهم لا يجدون فيه شيئاً من ذلك .

إن اعتقادهم في المسيح أعلى جداً من عقائد الأمم الأخرى ، ولكن لا نقدر إلا أن نبشرهم بتلك البشارة . . . » .

وكلام هذا المبشر المسكين يشير إلى أن إيمان المسلمين بالله الأحد ويقينهم في يوم الحساب لا قيمة له ، لماذا ؟

لأن الشيء الأول والأخير في الدين أن تعتقد بأن « عيسى » قتل فداء لخطاياك وخطايا آبائك وأبنائك « كذا » .

فإذا قلت أيها المسلم : إن ثوابي أو عقابي ليس إلا نتيجة عادلة لخطئي أو صوابي ، ولا مدخل لأحد أبداً في حسابي .

قال لك هذا المبشر المسكين : إنك كفرت وطردت ، ولا قيمة لإيمانك بالله وإجلالك عيسى بن مريم . . .

ولما كان الإيمان بالله واليوم الآخر هو التراث الباقي لدى النصرانية من وحى السماء ، وكانت فكرة القربان فداء الخطيئة هي العنصر الدخيل من الوثنية الأرضية كان معنى ذلك ، أن مسلك المبشرين النصارى يقوم على تحقير الصلة الوحيدة التي تربطهم بالسماء ، وتضخيم الخرافة الكبيرة التي تلصقهم بالأرض .

ولو كان لدى هؤلاء القساوسة نصيب من سداد ، لجعلوا الإيمان بالله ركناً قائماً لا مسألة تافهة ، وجعلوا الصلب نافلة ثانوية لا دعامة خطيرة !!

ولكن حظ الشيطان غلب .

ولا أدنى عنى غلبة حظ الشيطان من أن الكنيسة رتبت أعداءها الألداء ، فكان الإسلام أول أولئك الأعداء .

في سبيل القضاء عليه ، حالفت المجوسية ولو كانت كفرًا بالله .

وفي سبيل القضاء عليه ، حالفت اليهودية ولو كانت تحقيراً لعيسى .



فإن المسلمين أذنوا للمجوس بالبقاء على دينهم ، ولم يحاولوا استكراهم على إيمان .  
أفهدا ما صنعه المسيحيون الظافرون بالوثنية وأهلها ؟ كلا !  
لقد أعلنوا عليهم حرب فناء في أرجاء ملكهم حتى استأصلوهم ، فلما دارت رحى  
الحرب بينهم وبين الفرس عجزوا - بعد مئات السنين - عن النتيجة الموفقة الرائعة التي  
وصلت إليها جيوش الإسلام في بضع سنين .  
بل سنرى في سير الفتح أن المسيحيين قد انضموا إلى الوثنيين في مقاتلة الإسلام  
والنيل منه !

وانه لأمر عجاب أن يتحالف المشركون وأتباع « الإنجيل » على مقاتلة الدين الذي  
يدعو إلى عبادة الله الواحد القهار .

ولكنه الحقد الأعمى ، ونسيان المسيحية لأصلها السماوي ونزعتها الطارئة إلى  
جعل الألوهية شركة ، مما سول لأشباعها أن يشبعوا ضغينتهم على مبدأ التوحيد ، ولو  
حالفوا الشيطان في سبيل القضاء عليه ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره .

ولعل من بقايا هذه السخيمة المتقدة أن يجىء هذا المؤلف المسيحي فيرد انسياب  
الجيوش الفاتحة إلى أسباب اقتصادية قائلاً :

« إن الحاجة تبرر كل عمل عدائي ، وإن العرب كثيراً ما قاموا بأعمال عدوانية  
بحثاً عن القوت . . » ص ٢٢ .

ثم ينقل زعمًا لباحث في علم الجغرافيا يقول :

« إن مناخ الجزيرة أصيب بجفاف في القرن السابع مما دفع العرب إلى الهجرة  
منها ومهاجمة البلدان التي تناخمها » .

ونحن لا نقف عند هذا اللغو ، ولكن قبل أن ندوسه وننتهي من سحقه نحب أن  
ننقل حواراً جليلاً دار بين نفر من فرسان المسلمين وبين قواد كسرى وحاشيته ليرى  
أولو الألباب مبلغ فقه الصحابة الفاتحين لدينهم ، ومعرفتهم العميقة لأحوال الشعوب  
التي قدموا عليها ، وأنواع الحكم التي قرروا إسقاطها .

وليروا كذلك : بأي ضماثر نقية وأسلحة عفيفة كان حملة الإسلام يلقون خصومهم  
بها .

فيجب أن تكون أداة تصوغ لمصر جيلاً جديداً يعرف حقوق ربه ، وحقوق  
الناس .

يميز الخبيث من الطيب ، والحلال من الحرام ، يتذوق طعم الحياة الكريمة المحافظة ،  
فيؤثر التمسك بها .

وذلك لا يوجد إلا في تعاليم الدين .

فالضماير لا يوقظها ولا يهذبها إلا خوف الله .

ومن المفارقات الغربية أن نقص نصف درجة في الموسيقى أو الرسم يرسب به  
الطالب ، وأن جهله بالدين كله لا يضره شيئاً .

إن ذلك جعلنا نحنى أمر الثمرات ، ونشاهد في ناشئتنا مظاهر التمرد  
والاستخفاف بكل فضيلة ، والخروج على كل معنى كريم .<sup>(١)</sup>

\* \* \*

لكن هذه الشناعات التي يجأر العلماء من فشوها ، هي بعض ما تجتهد أوروبا  
الصليبية لإشاعته بيننا ، إن الفساد الذي عرا الأخلاق ، والتصاعد الذي أصاب  
الجماعات خير في نظر رجال الكنيسة من إشراف الإسلام على التوجيه العام لسياسة  
التعليم والتنظيم ! ! .

وإنك لتدرك حقيقة الشعور الكنسى نحو الإسلام من القصة التالية :

من عشرين عاماً وفد قسيس مسيحي إلى القدس كيما يشتغل بالدعاية إلى  
النصرانية ، وبدأ هذا القسيس - واسمه «ألقريد نيلسون» - يرسل نقرأ من المفكرين  
المسلمين ، يناقشهم في بعض حقائق الدين ! ويوزع عليهم نشرات تتضمن أفكاره !  
وقد فند العلماء الذين عنوا به جميع ما أورد من شبهات .

والحق أن الرجل كان محامياً مخلصاً في الدفاع عن ديانته ، وما أزرى به أمام  
مجادليه إلا موضوع قضيته .

(١) يلاحظ في بيان الأزهر أن سياسة التعليم تعتمد - وما زالت - تجنّب دراسة الدين دراسة حادة . . فمآزات  
الدين بعيداً عن المجموع ، وحذفت منه المعلومات التي تربي الأجيال واطمحت دراسة اللغة العربية على  
حساب مواد أخرى . . وقد كان للشيخ صولات في التنديد بهذه السياسة . انظر محمد الغزالي «الخلق انهم» -  
الجزء الرابع والخامس طبعة دار نهضة مصر .

فقال رستم : ويلكم ، إنما أنظر إلى الرأى والكلام والسيرة ، والعرب تستخف اللباس  
وتصون الأحساب .

فلما كان اليوم الثانى من نزول «رستم» ، أرسل إلى «سعد» أن ابعث إلينا هذا الرجل !  
فأرسل إليه «حذيفة بن محصن الغطفانى» ! فلم يختلف عن «ربعى» فى العمل  
والإجابة .

فقال له رستم : ما قعد بالأول عنا ؟

قال : «أميرنا يعدل بيننا فى الشدة والرخاء ، وهذه نوبتى» .

فقال له رستم : والمواعدة إلى متى ؟

قال : إلى ثلاث من أمس !!

وفى اليوم الثالث . أرسل إلى «سعد» : أن ابعث إلينا رجلاً . فأرسل إليه  
«المغيرة بن شعبة» فتوجه إليه ، ولما كان بحضرته جلس معه على سريره .

فأقبلت إليه الأعوان يجذبونه ، فقال لهم :

«قد كانت تبلغنا عنكم الأحلام ، ولا أرى قومًا أسفه منكم .

إنا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضًا ! . . إلا أن يكون محاربًا لصاحبه .  
فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى . .

وكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض !! وأن هذا الأمر  
لا يستقيم فيكم .

وإنى لم أتكم ، وليكنكم دعوتونى ، اليوم علمت أنكم مغلوبون .

وأن ملكًا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول .

فقال السوقة : صدق والله العربى ! .

وقالت الدهاقين - الزعماء - لقد رمى بكلام لا تزال عبيدنا تنزع إليه ، قاتل الله  
سابقينا حيث كانوا يصفرون أمر هذه الأمة .

ثم تكلم «رستم» بكلام عظيم فيه شأن الفرس وصغر شأن العرب ، وذكر ما كانوا  
عليه من سوء الحال وضيق العيش .

فقال المغيرة : أما الذى وصفتنا به من سوء الحال ، والضيق والاختلاف ، فتعرفه

إذ الكنيسة تعلم أنه في سوق التنافس الحُر بين الأفكار والأديان لن تلقى بضاعتها رواجًا .

فهى تلجأ إلى وسائل الدس أو العنف لتطرد السلع الأخرى من السوق ، وتمنعها من التداول .

المهم أن الحضارة المادية الحاكمة في الغرب والكنيسة المسيحية المحكومة هناك قد اتفقت مصالحهما في القضاء على الإسلام وإخلام حاضره ومستقبله .

وأنهما رأتا الطريقة المثلى لتحقيق مآربهما هى إفساد التعليم بإقصاء الدين عنه .  
وبذلك يتخرج الوزير الكبير والضابط الكبير والطبيب الكبير والمهندس الكبير . . . الخ .

وكل أحد منهم لا يفهم من دينه حرفًا ، بل لعنه يعرف عن دينه ما يزدهه فيه .

وبذلك يتم الارتداد عن الإسلام فى صمت وأمان . . . !!!

ويصل الصليبيون الجدد إلى ما عجز أجدادهم عن الاقتراب منه فى العصور الوسطى بعد حرب دامت أجيالاً !!

وقد شعر المسلمون المخلصون بخطورة المصير المرسوم لدينهم ، فهبوا يصرخون محذرين من عواقبه حتى بحت أصواتهم وليس من مجيب !!

وأخر ما قرأناه فى ذلك نداء وجهته جبهة علماء الأزهر إلى رئيس مجلس الوزراء قالت فيه :

«إن الشعب المصرى من أقوم الشعوب علمًا بشريعة الإسلام ، وتمسكًا بأحكامه وأدابه ، وحفظًا لكتابه وسنته .

وكان لتعليم الدين المكان الأول فى مدارس .

لأنه عرف أن طلب العلم الدينى فريضة على كل مسلم ومسلمة .

وبهذا حافظ المصريون على شعائره وتقاليده وأقاموا أحكامه وحدوده ، فعزوا وتزعموا غيرهم من الأمم .

وأما «المغيرة» فقد أوغر صدور العامة على كبرائها . وقال :

«إنا - معشر العرب - لا يستعبد بعضنا بعضاً» .

ثم رماهم بهذه الكلمة الخطيرة :

«ظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسي» !

فلما وثب إلى جوار القائد المستعلى على سريرته ، كانت وثبته تلك إيماءة ذكية إلى أن الإسلام يرفع المستضعفين إلى مصاف السادة .

وسواء أكان توافق المفاوضين العرب في آرائهم عفواً أو عمدًا ، فهو بيان حاسم عن طبيعة المبادئ التي يحملها الفاتحون . .

أى عار في هذه المبادئ ؟

إنها - والله - لو لم تكن ديناً لكانت في حياة الأمة نظاماً حسناً .

فماذا ينقم الكاتب الصليبي على هذه الفتوح ؟

إنه يزعم في ص ٢٢ أن أسباب الفتح الإسلامي لم تكن دينية فحسب ، بعد أن يزعم أن الجذب والبحث عن القوت هما اللذان اضطرا العرب للغارة على الأمم المجاورة ! .

لئن كان جوع العرب هو الذي حملهم على التطواف في الأرض بهذه المبادئ الرائعة فإنه جوع يفضل شيع المبطونين من رجال الكهنوت الذين مهدوا للإلحاد في العالم كله بتحجر عواضفهم وسقم أفكارهم .

أم إنه الحقد الذي يغشى على البصائر والأبصار ؟ :

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ

وَأَنْ أَكْتَرِكُمْ فَمَا سَبِقُونَ﴾<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

وهذه محاوراة أخرى بين «كسرى» نفسه وبين وفد آخر من مفاوضي العرب سبقت المحاوراة الأولى .

فقد أرسل «سعد» دعاة إلى «يزدجرد» منهم «النعمان بن مقرن» و«قيس بن زرارة» و«الأشعث بن قيس» و«فرات بن حبان» . . إلخ .

فلما وصلوا المدائن أدخلوا علي «يزدجرد» فسألهم بواسطة ترجمانه :

(١) المائدة : ٥٩ .

وليس أدل على ذلك من أن بطريرك المارون «أنطون عريضة» ، والمطران «غناطيوس مبارك» كانا حربنا عنى الجامعة العربية لتوهمهما أنها مقدمة جامعة إسلامية ! وكانا عوناً على عرب فلسطين مع اليهود لأنه حبيب إلى قلوبهم أن يكون اليهود مواطنين ، وأن يكون المسلمون مشردين !

وذلك شكر اليد التى قدمها الإسلام فى العصور الوسطى يوم كان قادراً على إفناء هذه الطوائف ثم تنزه على الإساءة إليها ، أو سلبها حرية عبادتها .

لأنه لا إكراه فى الدين !

\* \* \*

لقد شعر الدعاة إلى النصرانية أن إدخال المسلمين فى ديانتهم مستحيل .

فماذا يصنعون لهدم الإسلام الذى يمتقونه أشد المقت؟

قرروا أن يفسدوا أبنائه بتسليط الشهوات عليهم وإشاعة الإلحاد الأعمى بينهم .

سئل رئيس مدرسة تبشيرية فى فلسطين : كم نصرت من أبناء المسلمين ؟

فكتب إلى سادته الذين أرسلوه ، لا تسألونى : كم مسلماً نصرت؟ ولكن سلونى :

كم معولاً صنعتته من هؤلاء الأبناء لهدم الإسلام نفسه!!!

ومناهج الدراسة التى تخرج اليوم أبناء الإسلام مفروض فيها أن تقطع صلتهم

بدينهم فلا يتعلمون منه حكماً ولا يتربون منه على فضيلة .

وبذلك تشب الأجيال الجديدة غريبة عن الإسلام بل عدواً لتقاليد وشرائعه .

فإذا كانت هذه الناشئة المقطوعة عن دينها هى التى تلى الوظائف الصغرى ،

والمناصب الكبرى فلن ينتظر منها إلا أن تصنع بدينها الموروث مثل أو أشد مما يصنعه به

خصومه الناقمون عليه .

وذلك ما يثلج صدور الصليبيين فى حملتهم الحديثة على الإسلام .

إن الحضارة المادية الأخيرة تهاجم مبدأ الإيمان بالله واليوم الآخر .

فقام قيس بن زرارة فقال :

أما ما ذكرت من سوء الحال فكما وصفت أو أشد .

ثم ذكر من عيش العرب ورحمة الله بهم بإرسال النبي مثل مقالة «النعمان» . .

ثم قال : - اختر ، إما الجزية عن يد وأنت صاغر ، أو السيف ، وإلا فنج نفسك بالإسلام .

فقال «يزدجرد» : لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم ، لا شيء لكم عندي .

ثم استدعى بوقر من تراب ، وقال لقومه احملوه على أشرف هؤلاء ، ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن .

فقام «عاصم بن عمرو» وقال : أنا أشرفهم ! وأخذ التراب فحمله وخرج إلى راحته فركبها ، ولما وصل إلى «سعد» قال له : أبشر ، فوالله لقد أعطانا الله مقاليد ملكهم ! .

ثم إن «رستم» خرج بجيشه الهائل مائة ألف أو يزيدون من «ساباط» .

فلما مر على «كوثي» لقيه رجل من العرب ، فقال له «رستم» :

ما جاء بكم ؟ وماذا تطلبون منا؟

قال العربي : جئنا نطلب موعود الله بملك أرضكم وأبنائكم إن أبيتم أن تسلموا .

قال رستم : فإن قتلتم قبل ذلك ؟

قال : من قتل منا دخل الجنة ، ومن بقى أجزه الله وعده ! فنحن على يقين .

قال «رستم» : قد وضعنا إذن في أيديكم ! .

قال العربي : أعمالكم وضعتكم ، فأسلمكم الله بها ، فلا يغرنك ما ترى حولك فإنك لست تجادل الإنس وإنما تجادل القدر .

فغضب منه «رستم» وقتله .

فلما مر بجيشه على «البرس» غضبوا أبناء أهله وأموالهم وشربوا الخمر ، ووقعوا على النساء .

فشكا أهل «البرس» إلى «رستم» فقال لقومه :

والله لقد صدق العربي ! والله ما أسلمنا إلا أعمالنا ، والله إن العرب مع هؤلاء ،

- وهم لهم حرب - أحسن سيرة منكم . . .

\* \* \*

ولكن لماذا نعترض ؟

إن المسلمين أغبياء لأنهم لم يرتفعوا إلى المستوى الذى يفهمون فيه كيف أن الثلاثة واحد .

وهم أغبياء . كذلك . لأنهم لا يريدون أن يفهموا كيف يقتل امرؤ بخطايا آخرين .  
وهم أشد غباوة لأنهم لا يفهمون من الآيات السابقة فى نشيد سليمان أنها دعوة إلى الأدب العالى وتهذيب للشهوة الحيوانية الطاغية . !!

لست أشك فى أن الألوفا المؤلفة من المسيحيين لم يقرأوا هذه «الآيات» الملتاعة !!  
إنهم ورثوا الدين كما يرث المرء لقب أسرته .  
فهو يتعصب له لأنه لقب أسرته فحسب .

ومن يدري ؟ ربما كنا كذلك لو لم نستمع إلى القرآن الكريم ونتعرف الحق من نصوصه التى لا يرقى إليها شك .

ومن خلال الوحي المحكم الذى نتلوه وتدبره عرفنا أن الله واحد .  
وأن كل امرئ رهين بما كسب .

وأن الرسل جميعاً متفقون على تعليم البشر هذه الحقائق السهلة .  
وأن هؤلاء المرسلين كانوا معلمين أخبّاراً ، وكانوا جميعاً على طراز عال من الخلق  
الزكى والمسلك الطهور . .

وعرفنا أيضاً من قرأنا أن النصرانية الأصيلة لم تخرج قط عن هذا النطاق الواضح ،  
وكذلك اليهودية .

لكن طوائف الفساد التى غلبت على تراث موسى وعيسى أتاحت للوثنية الأولى أن  
تفرض نفسها على تعاليم الديانتين .

وأبرز مظاهر الوثنية ، هو تعدد الآلهة ، وتقديم القربان كفارة الخطايا ، واسقاط كرامة  
الأنبياء جميعاً حتى لا تكون بهم أسوة حسنة .

وقد جعل دور عيسى بن مريم مشتركاً فى هذه النواحي كلها .

فهو إله مع الله ، وهو قربان تكفر به الذنوب .



والتزموا في كفاحهم - ملوك الدولتين الباطشتين بالعالم يومئذ - حدوداً من الحق والعدة والاستقامة لا تعرف أبداً إلا في موارد النبوات النابعة من السماء .

وكان المسلمون في هذه المعارك جميعاً أقل من أعدائهم عدداً وعدة .

بيد أن إيمانهم الدافق وحماسهم البالغ وسياقهم القذ إلى موارد المنايا ، يطلبون الاستشهاد ويفرحون بنيه أشد مما يفرحون بالعودة إلى الوطن والأهل .

ذلك كله صنع المعجزة التي لم يعرف تاريخ الأرض مثيلاً لها .

ألم يعجز «الروم» أن يهزموا «الفرس» في قرون طوال مع بسطة المائ والرجال؟

ولكن «الروم» و «الفرس» جميعاً هزموا في سنين معدودات أمام القبائل التي وحد الإسلام صفوفها وغرس الحق في أفئدتها . .

ذلك أن الأمر كما قال العربي لرستم : إنك لا تجادل الإنس ، وإنما تجادل القدر .

والقضاء النازل لا يدفعه الخلق ، مجتمعين ولا مفترقين .

وانتشار الإسلام في الأرض وانهدام معازل الطغيان أمام مده العريض يتمشى مع سنن التطور التي تفسح الطريق لنظام حسن بعد أن تخليه من نظام سيئ .

وقد ألمح «رستم» إلى هذه الحقيقة وهو يقول للفسقة من ولاة الفرس - لما اعتدوا على الجمهور : والله إن العرب مع هؤلاء - وهم لهم حرب - أحسن سيرة منكم .

والواقع أن أسلافنا من المسلمين الفاتحين لم يرثوا الأرض إلا وهم لقيادتها أهل ، وكانت مصلحة العالم أجمع ، في انتقال هذا القياد إلى أيديهم اللبقة ، بعدما لعبت به الروم والفرس .

ولن يعود هذا الزمام الضائع إلى أيديهم إلا يوم يكونون أرجح في موازين الصلاحية العامة من غيرهم ، مصداق قول الله في كتابه :

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾<sup>(١)</sup>

(١) الأنبياء : ١٠٥ .

اسندونى بأقراص الزبيب ، أنعشونى بالتفاح فإنى مريضة حباً .

شماله تحت رأسى ويمينه تعانقنى .

أحلفكن يا بنات أورشليم بالظباء ، وبأيائل الحقول ألا تيقظن ولا تنبهن الحبيب

حتى يشاء .

هو ذا واقف وراء حائطنا يتطلع من الكوى ، بوصول من الشبابيك .

أجاب حبيبي وقال لى : قومى يا حبيبتى ، يا جميلتى وتعالى .

فى الليل على فراشى طلبت من تحبه نفسى ، طلبته فما وجدته إنى أقوم

وأطوف فى المدينة فى الأسواق وفى الشوارع أطلب من تحبه نفسى .

طلبته فما وجدته وجدنى الحرس الطائف فى المدينة فقلت : أرايتم من تحبه

نفسى ؟

فما جاوزتهم إلا قليلاً حتى وجدت من تحبه نفسى فأمسكته ولم أرخه حتى

أدخلته بيت أمى وحجرة من حبلت بى . أحلفكن يا بنات أورشليم بالظباء ،

وبأيائل الحقول ألا تيقظن ولا تنبهن الحبيب حتى يشاء .

ها أنت جميلة يا حبيبتى عيناك حمامتان من تحت نقابك . . شفتاك كسلكة من

القرمز . وفمك حلوى . خدك كفلقة رمانة تحت نقابك . ثدياك كحشفة ظبية . كلك

جميل يا حبيبتى ليس فيك عيب . هلمى معى من لبنان يا عروس معى من لبنان .

قد سلبت قلبى يا أختى العروس كم محبتك أطيب من الخمر . وكم رائحة

أدهانك أطيب من كل الأطياب . شفتاك يا عروس تقطران شهداً .

تحت لسانك عسل ولبن ورائحة ثيابك كرائحة لبنان . ليأت حبيبي إلى جنته

ويأكل ثمره النفيس .

كلوا أيها الأصحاب واشربوا ، واسكروا أيها الأحياء ، أنا نائمة وقلبي

مستيقظ وصوت حبيبي قارعاً . افتحى يا أختى يا حبيبتى يا حمامتى .

وقد خلعت ثوبى فكيف ألبسه وقد غسلت رجلى فكيف أوسخهما . حبيبي مد

يده من الكوة فأنت عليه أحشائى .

حبيبي أبيض وأحمر . . قصصه مسترسلة حالكة كالغراب . . خداه كخميلة

ندعوكم إلى ديننا ، وهو دين حسن الحسن ، وقبّح القبيح كله .

وقد تسأل : فما هذه الجزية التي طلبها الفاتحون ؟

أهي ثمن منحهم حريتهم الدينية ؟

نقول : إنها ليست ثمن شيء من ذلك!

ولو أن ألوفا مؤلفة من البشر تمت أن تدفع هذا الثمن للمسيحية الحاكمة في روما والقسطنطينية وتظفر - بعد دفعه - بحريتها الدينية .

ولكن رجال الكنيسة رفضوا ، فلما الموت ، وأما الدخول في المسيحية .

إن الكنيسة لم تخير اليهود والوثنيين في أنحاء العالم إلا بين شيئين ، فإما التنصر وإما الغناء .

بل إن المذاهب المسيحية المتناحرة لم تعرف هذا التحجير في علاقاتها فوقعت المذابح البشعة بين الأشياع المتعصبين .

وكم كانت الأقليات الدينية في الشرق والغرب تتمنى لو ظفرت بالأمان على أموالها ودمائها لقاء دريهمات تدفعها .

ومع ذلك عز عليها هذا الأمل البعيد .

أما الإسلام فقد أوضح - على لسان مثليه من القادة الفاتحين - أن هذه الجزية في مقابل دفاع المسلمين أنفسهم عن الأمم التي دخلت في ذمتهم .

وذلك معنى قول «النعمان» لكسرى : «إن بئلتكم الجزاء قبلنا منكم ومنعناكم» .

ومن الظلم أن يتولى المسلمون وحدهم نفقات جيش يقوم بالدفاع عنهم وعن غيرهم .

وقد تقول : فلم لا يترك المسلمون هؤلاء يعدون من القوة ما يشتغلون به في حماية أنفسهم ؟

إنهم يعبدون الله تعبدًا ذهنيًا ، وليس لدينهم من علامات أو وسائل خارج النفس .

وهم يرون في احتفالات النصارى ضربًا من الوثنية .

وهم - وإن سموا أرباب الإنجيل أهل كتاب - لا يجعلونهم في الرتبة التي تلى المسلمين .

بل ربما مقتوهم لأنهم غيروا ما أنزل الله عليهم من الدين !!» .

ونحن ننبه مرة أخرى إلى أن الكاتب مسيحي فرنسي ، وأنه يقول هذا في صدد التحدث عما تعانيه فرنسا من صعوبة في تنصير الجزائريين .

ولعلك تفهم بعدئذ بقية كلامه حين يقول :

« إن أعظم عامل في انتشار الإسلام - خصوصًا بين الزنوج - هو بساطة مذهبه وسداجة تعاليمه ، كما يبدو ذلك جليًا في آيات القرآن .

فهو أكثر ملاءمة لطبائع الهمج الذين لم يعرفوا دينًا من قبل «كذا» .

وكلما وجد الرجل الجاهل دينين متحدين في تقريرهما لوحدانية الله وخلود الروح ، كالإسلام والنصرانية تراه يختار الدين الذي لا يزيد شيئًا عن هاتين الحقيقتين ، فيعتنق الإسلام لا محالة .

وهذه مزية يفضل بها الإسلام غيره في حسن التلقى وسرعة الانتشار ، وهي مزية عرفت من القرن السابع عشر .

قال القس «ماراشي» في كتابه «الرد على القرآن» :

«... ولا يغيبن عن ذهن القارئ أن هذه الطائفة الشريرة ، أو المخرفة ، أو ما تشاء لها من أسماء - يعنى المسلمين - لا تزال حافظة لكل ما فى النصرانية من أمور ظاهرة الوضوح قريبة التصديق ، يضاف إليها ما يوافق نظام الكون وقانون نشأة الدنيا .

وقد أبعد الإسلام عنه أحاجى الإنجيل التي نخالها أول الأمر غير صحيحة ، أو بعيدة عن المعقول ، كما أنه جرد تعاليمه من كل قاعدة يشد بها الخناق على البشر .

وبذلك أزاح من طريقه العقبتين اللتين يحس الواحد منا بأنهما الحاجز بينه وبين الدين الحق «يعنى النصرانية» .

## الإسلام وحرب الأجناس :

لم يعرف الإسلام حرب الأجناس ، ولا ينبغي أن تنسب هذه الحروب الداعرة لدين ما .  
فإن الله لم يفضل لوناً على لون ، ولم يؤثر بكرامته جنساً دون جنس .  
وسا يزعمه الأقوياء لأنفسهم من ميزات هو ادعاء يسنده التاب والظفر ، لا الحق والبرهان .  
وقد استطاع العرب - برحمة الله وتأييده - أن يهيمنوا على العالم كله ، وأن يكونوا  
الدولة الأولى فيه .

وربما جاء من أعقابهم من افتخر بدمه أو اعتز بعنصره - وهو في ذلك دعوى مغرور - .  
ولكن الإسلام نفسه ورجاله الأولين كانوا أبعد أهل الأرض عن اقتراف هذا المنكر .  
بل قد رأينا كسرى «يزدجرد» يقول لوفد العرب :

إني لا أعلم أمة في الأرض كانت أشقى ، ولا أقل عدداً ، ولا أسوأ ذات بين منكم . .  
فما يجيبه أحد منهم بكلمة ينوه فيها بالدم العربي ، ويرد اتهامات العاهل الفارسي .  
وإنما كان كلام «قيس بن زرارة» له :

أما ما ذكرت من سوء الحال ، فكما وصفت أو أشد .  
ثم إن الإسلام هو الذي رفع شأن العرب وأعز جانبهم .

\* \* \*

لذلك أخذتنا دهشة بالغة عندما تحدث الكاتب الصليبي في ص ٢٦ عن التفوق  
العنصري عند العرب .

وقد نقل تحت هذا العنوان جملة مفتريات يجزم السذج بافتعالها ! قال :

«إن الإقامة في شبه جزيرة العرب ، والتفوه باللغة العربية لم يكونا كافيين  
لاعتبار القاطنين فيها عرباً إذا كانوا من المهاجرين ، حتى لو كانت هجرتهم ترجع  
إلى عدة قرون .

وعلم بالحادثة بعض الناس فأبلغوها إلى «ابن طولون» .

فأحضر القائد والحاجب والراهب .

ثم قال للراهب : كان سبيلك - وينك - أن تدعى عليه - أي على القائد - بثلاثة آلاف دينار ، حتى أخذها لك منه ، وأجعل ذلك تاديباً له ولغيره .

ثم قال للحاجب : والله لولا أنها مكرمة سارعت إليها ، وجميل رغبت فيه ، وقد قال الله عز وجل :

﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾<sup>(١)</sup> لعمرت بك المطبق «سجن ابن طولون» .

ولكن احذر أن تعاود مثلها ، ولا تستبدن بأمر تأتيه دون أن تعرفنا به ، ولا تطوِّعنا خيراً ولا سراً ولا قصة ترفع .

فقال له الحاجب : أفئنى أيها الأمير أقالك الله ، فوالله لا أعود لمثلها أبداً .

قال : فانصرف إلى موضعك !

ثم التفت «ابن طولون» إلى القائد وقال له : أفى رزقك تقصير عن مشورتك ؟

قال : لا .

قال : فأخر عنك استحقاقك تأخيراً يضطرك إلى ما أتيته ؟

قال : لا . قال : فبأي حال استحللت أن تأخذ من هذا البائس الضعيف ما تقطع به

قلبه ، وتبكي عينه ، وتفقره وأهله ؟

ألك حاجة أوجبت ذلك عليك ، أو ضرورة دعيتك إليه ؟ . . المطبق !

وأمر بسجنه !

وهكذا حُبس القائد الكبير في قبطنى مظلوم !

\* \* \*

ومن قرون فقد المسلمون سبقهم الأدبى والمادى فقداناً أزرى بآمتهم الكبرى وألحق

بهم هزائم شنيعة .

(١) للرحمن : ٦٠ .

ياغوثاه! هل يبلغ الحقد بذويه حتى يتدلوا إلى هذا الدرّك السحيق من الإسفاف؟  
من قال من مؤرخي الأولين والآخرين:

إن صحابة رسول الله ﷺ كانوا ينظرون إلى الأمم التي دخلت في الإسلام نظرة  
تنقص؟ أو أنهم كانوا يحلونهم في مراتب وضيعة؟

إن الأجناس التي دخلت في الإسلام لم تلق في وجهها أحدا يزعم أنه أولى منهم  
بالله أو أحق برسوله.

كانت الأجيال المتفاوتة تدخل فيه كما تدخل الجماهير المرحمة إلى حديقة عامة،  
لا حظر عليها ولا بواب، ولا يفخر فيها أحد على أحد بأى ادعاء.

ولقد كآ الله للرعييل الأول من أصحاب محمد - محمداً لهم مسلكهم من  
المشركين المقاتلين - :

﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَتُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ  
يَعْلَمُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

ولم يجعل للمقاتلين بأمر الدعوة إلى الله منزلة معينة يستحقون بها تسمية خاصة،  
بل زجهم في الخمار العام الذي يسوى بينهم وبين غيرهم تحت عنوان واحد:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

لا سيادة ولا تبعية، ولا مراكز أولية وأخرى ثانوية، إنه من المسلمين فحسب.

وقد جرت نصوص القرآن متراكضة تؤكد هذا المبدأ.

فهدد الله العرب في إبان نزول الوحي أنهم إن لم يستقيموا على سواء الصراط،  
وينهضوا بأعباء الرسالة التي وكلهم بها، فسوف يحرمهم من أفضالها ويلقى إلى غيرهم  
بمقاليدها.

فإن الكل في ساحته سواء، لا يمتاز عنصر على عنصر إلا بمدى ووفائه لهذا  
الدين العام:

(٢) نصت: ٢٣.

(١) شتوية: ١١٠.

وحماقة هؤلاء المبشرين لا تقف عند حد ، ألم يدخل أحدهم الجامع الأزهر فى  
العصر الأخير ليدعو فيه إلى النصرانية ؟

إن ذلك ينبى عن مشاعر المقت التى طغت على عواطف أولئك الناس ؛ فأفقدتهم  
أثزانهم ، وأركستهم فى أعمال ينفر منها الصبية .  
لكن الحق لا عقل له ولا ضمير .

قال «ميشو» فى تاريخ الحروب الصليبية :

« . . لما استولى «عمر بن الخطاب» على بيت المقدس لم يلحق النصرانى ضرر ما ،  
فلما استعاده النصرانى قتلوا المسلمين قتلاً ، وأحرقوا اليهود حرقاً !! »  
وقال الحبر «ميشو» أيضاً :

« . . مما يؤسف له جداً بالنسبة إلى المسيحيين أن تأتيهم المسألة وشرف المعاملة من  
المسلمين . . » .

قال الكونت هنرى دى كاسترى : «إن مبالغة المسلمين فى الإحسان إلى خصومهم  
هى التى مهدت للثورة عليهم .

إذ أتاحت للمتعصبين أن يجمعوا أمرهم على العصيان ، وأن يستغلوا الفرص  
للقضاء على الدولة التى منحتهم حق الحياة . . وحرية التدين .

ولو أن المسلمين عاملوا الأسباب مثل ما عامل المسيحيون الأمم الساكسونية لأخلدوا  
إلى الإسلام واستقروا عليه » .

ثم قال الكونت المنصف :

« إن الإسلام لم ينتشر بالعنف والقوة كما يزعم المفرضون .

بل الأقرب إلى الصواب أن يقال : إن مسألة المسلمين ولين جانبهم كانا السبب فى  
سقوط دولتهم » .

\* \* \*



ولا حرج من أن نتقلِ المحاوره كلها لما تضمنته من دلالات شتى :

«نادى جورج : ليخرج إلى خالد ، فخرج خالد حتى التقى به بين الصفيين .

فلما أمرَ كلاهما صاحبه ، قال جورج : يا خالد ، أصدقنى ولا تكذبنى ، فإن الحر لا يكذب ولا تخادعنى فإن الكريم لا يخادع المسترسل .

بالله هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكمه فلا تسله على قوم إلا هزمتهم ؟

قال : لا !

قال : فيم سميت سيف الله ؟

قال : إن الله عز وجل بعث فينا نبيه ، فدعانا ، فنفرنا عنه ، ونأينا عنه جميعاً ، ثم إن بعضنا صدقه وتابعه ، وبعضنا باعده وكذبه ! فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله .

ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به فتابعناه .

فقال : أنت سيف من سيوف الله سله الله على المشركين ودعنا لى بالنصر ، فسميت سيف الله بذلك فأنا من أشد المسلمين على المشركين .

قال : صدقتنى .

ثم أعاد إليه جورج : يا خالد أخبرنى . . إلام تدعونى ؟

قال : إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، والإقرار بما جاء به من عند الله .

قال : فمن لم يجيبكم ؟

قال : فالجزية ، ومنعهم - أى نعميهم - من أعدائهم .

قال : فإن لم يعطها ؟

قال : تؤذنه بحرب ثم نقاتله .

قال : فما منزلة الذى يدخل فيكم ، ويجيبكم إلى هذا الأمر اليوم ؟

قال : منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا : شريفنا ووضيعنا ، وأولنا وآخرنا .

والغريب أن طلاب التطهر ومحبي الاستشهاد من أجل النصرانية لم يجدوا بابا لأرضاء المسيح ونيل غفرانه إلا بهذه الطريقة البذيئة .

فقتل أحد عشر شخصا في شهرين بهذه الجريمة . .

مع أن القضاة كانوا يصمون أذانهم حتى لا يحكموا على أحد .

وظالما أوعزوا إلى الحجاب أن يمنعوا من الدخول أمثال أولئك السفهاء . .

وقد ندد عقلاء النصارى بهذا المثلث ، ورأوه انتحارا شائنا .

غير أن «أيلوغوا» ورفقاء من القساوسة الخاقدين على الإسلام حسبوا ذلك انتصارا لدعوتهم وتدعيما لكنيستهم ، ورموا مخالفيتهم بخيانة المسيحية ، وألحوا على رعاياهم بضرورة سب محمد ودينه ، حتى أشاعوا الهياج في كنائس الأندلس كلها . .

فاستولى القلق على حاشية الخليفة وطلب «عبد الرحمن» الثاني الاجتماع برؤساء القسس كي يستفتيهم فيما هو حاصل من أتباعهم؟

فسكتوا عما وقع في الماضي ، وتعهدوا بالكف عن مثله في المستقبل !!

ورأى الخليفة ألا يحضر أمام القاضي مسيحي في مثل هذه الأحوال إلا إذا رفع أمره إليه ليبت فيه بنفسه رغبة منه في حقن دماء المحبوسين من أولئك النصارى المتعصبين .

ومع هذا النبيل الرائع فقد ظلت خواطر النصارى مهتاجة حتى سنة ٨٥٩ .

هذه هي فتنة «أيلوغوا» .

\* \* \*

إن الذين يدبرون الجريمة لا يعجزون عن تبريرها وعن تحميل الآخرين تبعتها ، وهذا ما فعله الراهب السقيم «أيلوغوا» إذ سمي الفترة التي وقعت فيها هذه الأحداث «عصر الاضطهاد في قرطبة» (!) .

وتبعه في هذه التسمية الوقحة بعض المؤرخين الصليبيين . .

وأحب من القارئ أن يلقي باله إلى هذه الحادثة وأمثالها .

وفرحة المسلمين بالداخل في دينهم تتوارثها العصور إلى يوم الناس هذا .  
والمسلم الذي يوفق إلى هداية امرئ حيران ، ويستطيع شرح صدره بالإيمان ، يحس  
بأنه ادخر لنفسه من المثوبة عند الله ما يقر عينه ويشيع القبضة في حياته كلها .  
وكيف لا ؟ وهو يستمع إلى قول النبي ﷺ : «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً  
خير لك من الدنيا وما فيها» .

لا جرم أن السلف الصالح خفوا إلى استقبال الأفواج الداخلة في دين الله .  
وعواطف الترحيب تهز جوانحهم .  
حتى إذا مضت الأيام على استقرارهم في الديانة التي أثاروها ، أضحى السابق  
واللاحق شركاء متساوين في حمل مفارمها ومغانمها .

فإن يكن موضع الملاحظة من القبيل الذي أشار إليه الكاتب الصليبي أنفاً فإن  
المؤرخ المنصف لن يفوته أبداً تسجيل المزايا التي حصلت عليها الشعوب الداخلة في  
الإسلام على حساب العرب أنفسهم .

ذلك أن خلو الدين من تفضيل جنس على جنس ، وتسويته المطلقة بين من اعتنقه  
كافة ، سمح للفرس والروم والترك وسائر الموالى أن يزاحموا العرب بالمناكب في ميادين  
النشاط العلمي والأدبي والفني ، وأن ينتزعوا القياد منهم في هذه الأفاق الحرة .

فلم غضّ خمسون سنة على ظهور الإسلام حتى كانت الكثرة الساحقة من فقهاء  
الأمصار الكبرى رجالاً من الأعاجم وغيرهم ، وصلوا إلى أماكن الصدارة دون أن يجدوا  
أمامهم عائقاً . .

وإننا لنلقى نظرة على تاريخ الإسلام الطويل ، فنجد أن علوم الشريعة من تفسير  
وسنة وتشريع ، بل علوم اللغة العربية نفسها ، قد بلغت غامها واعتلت قمعتها على  
أيدي رجال لا ينتمون للعروبة إلا بصلة التجنس .

ولولا الإسلام وما بثه في النفوس والجماعات من سماحة مشكورة ما حدث هذا  
قط .

ونحن لا يفنى عجبنا من سفاهة الأمويين في هذا المسلك ، فبح الله صنيعهم !  
كيف يصدون عن الإسلام من تنشرح صدورهم به حرصاً على ذريهمات ينفقونها في  
مذاتهم ؟

إن هذا إن دل على شيء فعلى مبلغ ما عانى هذا الدين الكريم من سفالة ملوكه  
الأوليين وحكامه المستبدين . .

ثم تحدث الكونت عن الحكم الإسلامي في الأندلس ، فأبان تسامح المسلمين  
العظيم مع الأسبان ، وكيف حاسنهم حتى صاروا في ظلهم أهنأ عيشاً بما كانوا عليه  
أيام خضوعهم لحكامهم القدماء من «الجرمان» .

يقول «دوزي» : إن الدولة الإسلامية أبقت السكان المسيحيين على دينهم وشرعهم  
وقضائهم ، وقلدوهم بعض الوظائف .

حتى أن أحدهم تولى قيادة الجيوش مثل «سيد» .

ونتج عن هذه السياسة الرحيمة انحياز عقلاء الأسبان إلى المسلمين ، وحصل  
بينهم تزاوج كثير ، واندماج ظاهر .

فكان القسيس يلومون النصارى على هذا الانعطاف ويحضونهم على العودة إلى  
أحضان الكنيسة . .

ولما وقع الاضطهاد الأوروبي على اليهود ، وفر هؤلاء المنكوبون إلى الأندلس ، وجدوا  
في رحابها الأمان والسعة !! .

لكن الملك «كارلوس» لما دخل «سراقطة» أمر جنوده بهدم جميع معابد اليهود  
ومساجد المسلمين . . !!

ونحن نعلم أن النصارى ما دخلوا بلداً في إبان الحروب الصليبية إلا أعملوا السيف  
في يهودها ومسلميها على سواء . . !!

وإذا كان الجنس اليهودي قد بقى في العالم إلى الآن فإن مرد ذلك إلى قيام الدولة  
الإسلامية في العصور الوسطى .

ولو بقى النصارى يملكون السيطرة على العالم لقضوا على اليهود قضاء مبرماً . . .

وبذلك استطاعت الأجناس الداخلة في الإسلام أن تجمع بين السيادة العلمية والسياسية .

\* \* \*

إنه منذ كون الإنجليز «إمبراطوريتهم» ما تحول الحكم عن جنس معين ولا انتقل من عاصمة معينة .

أما الدولة التي أقامها الإسلام ، فما أكثر الأجناس التي امتلكتها !  
وما أكثر العواصم التي تنقلت فيها بين الشرق والغرب ! .

ذلك أن الإسلام - كالعلم - لا وطن له ، وليس له مستقر يارز إليه إلا القلب الإنساني الكريم .

بل نستطيع القول بأن عدالة الإسلام المطلقة في المساواة بين الأجناس ومحق الفوارق الخاصة ، قد استغلت ضده استغلالاً قبيحاً .

فقد تظنعت إلى حكم المسلمين جميعاً عناصر من الأتراك والأعجام واهية الصلة بالعروبة ، مع أن الرسومخ في لغة العرب ضرورة لا بد منها لفهم الدين قبل الحكم به .

ومن ثم قامت دول إسلامية قوية من الأتراك ، لم تحسن سياسة رعاياها ، ولا سياسة الأجانب عنها ، فألحقت بالدين وأهله أضراراً فادحة .

أفتري أن العرب يتحولون إلى رعية في ميدان العلم ، ثم إلى رعية في ميدان الحكم ، لو أن أسلوبهم في أيام الفتح كان قائماً على إهانة الأمم المغلوبة ، ووضع أبنائها في مراكز دينية ؟

إن العرب الأوائل أدوا رسالتهم على نحو لم يعرف التاريخ - ولن يعرف - مثيلاً له في نزاهته وترفعه .

وإذا ذكر الصحابة الأمجاد الذين حرروا الأمم من إسار «كسرى» و «قيصر» ، فلنذكر رجالاً آثروا الموت على الحياة ، وآثروا ما عند الله على متاع الدنيا .

إنها فطر من طراز لا تعرفه دنيانا الغاصبة بالمطامع والأهواء ، ولا يستطيع أن يفقه سموها كتاب ملوثون وباحثون مفرضون .

وتمَّ سبب آخر لانتشار الإسلام وامتداد سلطانه وإقبال الجماهير على اعتناقه ؛  
ذلكم هو استبداد الرومان الذي بلغ منتهى العسف .

لقد وصل جور الحكام إلى درجة أزهقت النفوس .

فلما جاء الإسلام تراموا إليه هرباً من الضرائب الفادحة واستلاب الأموال .

فكلما أسلمت عشيرة رفعت عنها أثقال المغارم التي بليت بها ورُدَّ إليها حقها

المسلوب .

وبذلك آمنوا في ظل الدين الجديد ولم يتعرض أحد لعقائدهم .

ولم يفرق الإسلام بين أصلى في الكنيسة أو منشق عليها ، يعنى الكاثوليك

والأرثوذكس .

وسمى هؤلاء جميعاً ذميين ، ومن الخطأ الفاحش استعمال لفظة «ذمى» في

معنى الخسة والهوان لأن معناها الحق «مؤمن . . .» .

ثم قال الكونت «هنرى دى كاسترى» :

«إن الدولة الإسلامية لما استقرت في الشرق لم تعارض المسيحية أو تضع أمام بنيتها عائقاً .

فظلت «روما» حرة في مراسلاتها مع الأساقفة الخاضعين لحكم المسلمين .

وفى سنة ١٠٥٣م . كتب «البابا ليون» التامع إلى نصارى إفريقيا توصية باعتبار

أسقف قرطاجنة مطراناً عاماً .

وكان الوثام مستحكماً بين المسلمين والنصارى .

حتى إن البابا «غريغوريوس» السابع كتب يلومهم على المحاكمة مع أسقفهم أمام

المسلمين سنة ١٠٧٣م .

ومع التسامح المطلق الذي أبداه المسلمون مع النصرانية فقد ضعفت جداً حتى زالت

من شمال إفريقيا .

ولنذكر أن الإسلام لم يكن له موظفون مختصون بالدعوة إليه والتبشير بمبادئه .

ولو كان له أناس قائمون بهذه الوظيفة لسهل علينا تفسير امتداده وانكماشها .

إنهم انضموا - بعواظهم - أول الأمر إلى عبدة الأصنام !  
فلما رأوا كفة الإسلام توشك أن ترجح ، انضموا بأسلحتهم إلى الجانب المناوئ  
للدين الجديد ، دين التوحيد والأخوة ! !

وقد غير المسلمون موقفهم تبعاً لما طرأ على معسكر خصومهم من تغيرات .  
فقبل أن ينضم اليهود إلى جانب الوثنيين ، كان القرآن يوصي بالصفح عن أذاهم :  
﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ  
أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ  
شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١)

على حين يقول في السورة نفسها قاصداً عباد الأصنام :  
﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجَكُم وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ  
وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ  
الْكَافِرِينَ﴾ (٢)

فلما انحاز اليهود إلى المشركين في معركة الأحزاب وحاولوا معهم إسقاط المدينة  
وهي عاصمة الإسلام يومئذ ، قال الله عزوجل - واصفاً ما نشب بين المسلمين واليهود  
من عراق - :

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ  
فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ (٣)

اتسع نطاق القتال بعد ما تظاهر المشركون وأصحاب التوراة ضد الإسلام ثم زادت  
حدته بعدما تكاتف سكان الجزيرة كلها على حرب المسلمين .  
فنزل قوله تعالى :

﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٤)

\* \* \*

(٢) البقرة : ١٩١ .

(٤) التوبة : ٣٦ .

(١) البقرة : ١٠٩ .

(٣) الأحزاب : ٢٦ .

يعول الكونت الباحث : إن فينا من يستغرب أخذ الإسلام الوثنية بالشدة آخر الأمر ، وكيف طاردها الإسلام حتى قضى عليها في جزيرة العرب .  
ثم يقول : لكننا نقرأ في الكتاب الخامس من الزبور أمراً بالتشدد في معاملة الوثنيين :

«إذا أدخلك ربك في أرض لتملكها ، وقد أباد أمماً كثيرة من قبلك ؛ فقاتلهم حتى تفنيهم عن آخرهم ، ولا تعطهم عهداً ، ولا تأخذنك عليهم شفقة أبداً !

كذلك أمر الله إسرائيل باستئصال سكان المدائن التي اختص بها قومه ، ولم يرض بالشفقة إلا على المدن البعيدة ، التي لا تصل عدواها إليه . !!

وكتب القديس «أوغستان» إلى الكونت «بونيفاس» يشير عليه باستعمال القوة لردع أهل البدع وردهم إلى النصرانية .

وقد اعتبر المشقين على الكنيسة كالبيغال التي تعض وترفس قومًا يعالجونها بما أصابها ، وهم مكرهون على تعذيبها ليتمكنوا من تضييد جراحها .

قال الكونت هنرى : «ويحسن هنا أن نقابل بين تعاليم أبى بكر في حروب الردة ، وتعاليم الكتاب الخامس من الزبور فيما يتعلق بمعاملة الكلدانيين . . .» .

قال : «إذا اقتربت من مدينة لتحاصرها فاعرض عليها الأمان .

فإن قبلته فقد سلم كل من فيها ، وإن أبت وبادأتك بالعدوان فشد الحصار عليها .

ومتى وفقك الله للظفر بها فاحطم رأس كل ذكر فيها بحد الحسام .» .

\* \* \*

ولاحظ «الكونت» أن المسلمين فرقوا لأول يوم من قيام أمرهم بين عباد الأصنام وبين اليهود والنصارى ، ورسموا لكل منهما معاملة خاصة .

كما قرر أن الدولة الرومانية أساءت السيرة داخل حدودها وخارجها .

فكان المسلمون أجدر بسيادة العالم منها .

وقد أقر الأب «بروغلى» بعظمة محمد وفضل أصحابه وقال :



لَلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بَأْسٌ مِنْهُم قَسْبَينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا  
يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١١﴾

الواقع أن النصراني المعتدل يجد أحسن ما يطمئن إليه من ديانته واضحاً في  
الإسلام .

ولا يجد في الإسلام النقائص المستحيلة التي يجدها في ديانته .

وهذا سر إسلام الألوفا المؤلففة من الشعوب المسيحية .

على أن هناك وفوداً أضالت الكلام مع النبي في شأن «عيسى» وأصرت على إشراب  
شخصه معنى الألوهية !

وقد وقف النبي من هذه الوفود موقفاً يعتبر آية في الإخلاص ، والفناء في نشدان  
الحق .

إذ طلب من مجادليه أن يصلوا لله جميعاً مستنزلين اللعنة على من يكذب ويظلم :

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ  
وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٢) .

وثبت من وقائع التاريخ أن الوفد المسيحي رفض أن يردد مع الرسول ﷺ هذه الدعوات .

وهو رفض يدل على أن أولئك المنتصرين من العرب ما كانوا يجزمون بفكرة قاطعة  
في شأن عيسى .

وأن تأكيدهم له لا يعدو أن يكون اتباعاً لظنون ، وتقليداً لأباء .

وما أكثر هؤلاء الواهمين بين جمهور المسيحيين .

إلا أن النصرانية بدأت تناوش الإسلام فعلاً عندما أحست بدائرته تنداح ، وبدأت

(٢) آل عمران : ٦١ ، ٦٢ .

(١) المائدة : ٨٢ .

(۵)

هل أضررت بالمسلمين سماحتهم؟

وأن النصارى - وهم سكان اليمن يومئذ - كانوا مطلقى الخربة فى إجابة داعى الله أو الإعراض عنه .

وأن الرسول ﷺ حرم على ولاته ظم الناس ولو كانوا كفاراً ، فإن اختلاف الدين لا يبيح التظالم بين المتعاملين والمتجاورين .  
بل إن الظلم حرام ولو على امرئ سيئ .

روى أحمد عن أبى هريرة : «دعوة المظلوم مستجابة ، ولو كان فاجراً ، ففجوره على نفسه» .

إن الرسول الكريم لما تمكن من بسط رواق الإسلام على الجزيرة كلها أخذ صحابته بتعاليم مشددة فى ضرورة إشاعة العدل ونجوى الدقة فى تطبيقه على كل فرد وإظهاره فى كل عمل .

روى أحمد عن ابن مسعود أن النبى ﷺ قال : «إن الشيطان قد ينس أن تعبد الأصنام فى أرض العرب ، ولكنه سيرضى منكم بدون ذلك بالمحققات وهى المومقات يوم القيامة . اتقوا الظلم ما استطعتم ، فإن العبد يجرى بالحسنات يوم القيامة يرى أنها ستنجيه فما زال عبد يقول : يارب ظلمنى عبدك مظلمة ، فيقول : امحوا من حسناته ، ولا يزال كذلك حتى ما يبغى له حسنة ، من الذنوب - المظالم - وإن مثل ذلك كسفر نزلوا بفلاة من الأرض ليس معهم حطب ، فتفرق القوم ليحطبوا فلم يلبثوا أن حطبوا فأعظموا النار ، وطبخوا ما أرادوا ، وكذلك الذنوب» .

هذه تعاليم المنتصر ، وتلك أوامره فى معاملة الناس .

وكانت «نجران» - إحدى القبائل المسيحية التى تقطن الجنوب - من بين الذين شملهم هذا العدل الرحب ، فما وقع على فرد منهم غبن ولا أكره على إيمان .

ولماذا يستثنون من التعاليم التى ذكرناها أنفاً؟

لكن الكاتب الصليبيّ الحقود لا يعلق بحرف على خضوع اليمن كلها لمجوس فارس .

وإنما تشتعل نيرانه لسيطرة الإسلام على العرب فى وسط الجزيرة وجنوبها .

هن استنتج من هذه العداوة ميل الأقباط إلى ائتعاون مع الفاتح المسلم لا... إلخ ص ٢٠ .  
فالأسر في وهم هذا الكاتب لا يرجع إلى الإسلام لأنه دين عدل ، ولا إلى صاحبه  
لأنه نبى سمح ! لا .

إن أحقادهم لا تطوع له أن يتصور هذا العرض انقريب المتمشى مع مسلك المسلمين  
في البلدان المفتوحة كافة .

فتراه يرد ما يرى من عاطفة نبيلة إلى أسباب ما يليق إسنادها لنبي أرسله رب  
العالمين .

على أن الكاتب خبط في جمع الشواهد التي تدل على رعاية النبي لأهل مصر ،  
فهناك أحاديث صحيحة لم يذكرها ، وهناك أحاديث مكذوبة وقع عليها في كتب  
الأخبار ، وجاء بها إلى كتابه المشحون بانفتريات .

كأنما يأبى عبه . وهو يستدل لغرض صحيح - أن يأتي بحديث صحيح !

من ذلك ما نسيه إلى النبي - وهو باطل - «لو بقى إبراهيم ما تركت قبطيناً إلا  
وضعت عنه الجزية» .

فإن بقاء إبراهيم ومماته سواء بالنسبة إلى أحكام الشريعة ، وما يمنك أبوه نقض حكم  
أبرمه الله .

والجزية يضعها عن نفسه من يمتنع عن محاربة الإسلام .

فأما من حاربه أو أعان من يحاربه فمن حق المسلمين أن يجردوه من سلاحه ، على  
أن هذا التجريد لن يغرى أحداً بالعدوان عليه .

فإن المسلمين أنفسهم سيتولون حمايته بنفقة مشتركة بينهم وبينه .

ومن الأكاذيب التي رواها الكاتب منسوبة إلى النبي أنه قال للمسلمين :  
«يكفونكم - يعنى الأقباط - أعمال الدنيا وتتفرغون للعبادة» .

وهذا لغو سخيف ، فإن التفرغ للعبادة في نظر الإسلام معصية !

والمسلم الذي يقعد عن شئون الدنيا منتظراً من الآخرين أن يكفوه همومها ويحموه  
جهودها رجل متسول تافه .

فإن محمداً لم يحبس في بيته هذه الثياب ، وهو الذي عرف بين خصومه وأحبابه أنه «يرقع ثوبه ويخصف نعله» .

ولاشك أن ألف ثوب يكسى بها عرب الصحراء أرفق بنصارى اليمن من القناظير المقتنطرة التي كان يدفعها النصارى صاغرين لرسل كسرى ؛ كي يزدان بها إيوانه الأبيض في المدائن .

لكن وثنية فارس أحب إلى هذا الكاتب الصليبي من دين محمد .

ولذلك يظهره في كتابته التافهة كأنه زعيم قبائل ثارت بحثاً عن الفوائد المادية (!) .  
فوائد مادية لمن ؟ إن القرآن يقول : ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾<sup>(١)</sup> .

والنبي يقول : «ليس لى من مغنمكم إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم» .

والعلة في الاستيلاء على الخمس وإعادة توزيعه على الجهات المحتاجة تعود إلى إقامة التوازن الاقتصادي بين طبقات المجتمع ، كما نص القرآن في تقسيم الفى ، قال عز وجل :

﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ...﴾<sup>(٢)</sup> .

فأى نفع مادي يزعمه الكاتب في هذه الشئون ؟

ثم يمضى الأفاك في هذره قائلاً :

«لم يجروا أحد على فرض الجزية على هؤلاء العرب - النصارى» .

وهذا كذب فقد فرضت عليهم الجزية ودفعوها .

ويقول كذلك في ص ٢٩ : «حرص المسلمون أشد الحرص على عدم جرح عواطف مواطنيهم المسيحيين» .

والواقع أن المسلمين لم يجرحوا عواطف النصارى عربياً وروماً .

(٢) الحشر : ٧ .

(١) الأنفال : ٤١ .

على ألا يُغزوا ، ولا يُمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة .

شهد الزبير ، وعبد الله ومحمد ، ابنه ، كتب وردان وحضر . . . « ١٠٠ هـ .

\*\*\*

إن المبادئ الهامة التي تضمنتها هذه المعاهدة تعد صفحة جديدة في تاريخ العصور الوسطى .

وهي على نسق المعاهدات التي أبرمها المسلمون مع كثير من الشعوب التي صُردوا الفرس والرومان منها .

ويجب أن نقرر هنا بعض الأسباب التي جعلت المصريين يستريحون لهذا العهد المعروض عليهم وبمضونه راضين .

١- فقد استردت البلاد حرمتها الدينية كاملة ، ونالت ضماناً واضحاً أن تبقى للمعابد قداستها فلا يقتحمها أحد ، ولا تخدش شعائرها .

وكان الأقباط محرومين من هذا الأمان في أثناء حكم الرومان ، لاختلاف المذهب الديني ، وإن انتمى الفريقان للنصرانية !

٢- خف حمل الضرائب التي يدفعها المصريون للحكومة الإسلامية .

فإن تعداد مصر على عهد الفتح الإسلامي بلغ عشرة ملايين ساكن .

وكان الحد الأعلى لضريبة الجزية خمسين مليوناً من الدراهم ، أى متوسط ما يؤديه الفرد للحكومة خمسة دراهم في العام «نحو عشرة قروش» مع أن الرومان كانوا يستكروهم المصريين على دفع جملة أنواع من الضرائب الباهظة . .

٣- يلاحظ أن هذه الضريبة كانت تنقص تبعاً لهبوط الفيضان ، ولكنها لا تزيد على النسبة المقررة ، كما أنها تؤدي أقساطاً ثلاثة على مدى السنة .

٤- هذه المعاهدة معقودة مع المصريين الذين هم أصحاب البلاد .

فإذا رغب روماني أو نوبسي الدخول فيها ، فله حق المعاملة بالمثل ، وإلا فعلى العرب أن يصونوا دمه وحقوقه كلها حتى يبلغ المكان الذي يأمن فيه على نفسه ، أو ينقطع عنده سلطانهم .

وأوعزوا إلى القبائل النصرانية المتاخمة لحدود الشام أن تقف سداً منيعاً دون أى تقدم قد يحزره الإسلام فى هذه البقاع .

فلما بعث النبى وقدأ من الدعوة المسلمين يعلمون الناس مبادئ الإسلام ، وثبت عليهم جموع العرب الموالين للروم فقتلتهم جميعاً فى مكان يسمى «ذات الطلح» وكانوا خمسة عشر داعياً ، واستطاع رئيسهم النجاة بأعجوبة . .

وتمكن أعرابى من قبيلة «غسان» أن يقتل رسولاً بعثه النبى إلى الوالى الرومانى على بصرى<sup>(١)</sup> يدعوه إلى الإسلام .

وأشيع أن هذا الاغتيال كان برضا «هرقل» نفسه .

ونحن نستبعد هذه الإشاعة ، ونرى أن المتعصبين من القساوسة هم الذين ارتضوا هذه الخطة فى مقابلة الدعوة إلى الإسلام .

فإن موقف «هرقل» من الرسالة التى جاءته ينبئ عن حصافته وتنزهه عن ارتياد هذا المسلك الدنى . .

وليس أمام المسلمين بإزاء هذه الحوادث إلا أن يردعوا الروم وأشياعهم حتى لا يعاودوا هذا التهجم .

فأرسل النبى حملة تآديبية من ثلاثة آلاف مقاتل أخذت طريقها إلى الشام .

بيد أن الروم كانوا قد استعدوا بجيش كثيف للقاء هذه الكتيبة من المؤمنين المتحمسين .

فجمعوا نحو مائتى ألف من رجالهم ، ومن انضم إليهم من قبائل لخم وجذام والقيين وبهراء وبلى .

وماذا عسى يصنعه ثلاثة آلاف أمام مائتى ألف ؟

ولكن حرارة اليقين جعلت الكتيبة المتفانية تجازف بالاستيلاك مع جيش يربو عليها

سبعين مرة ، فقتل قادتها الثلاثة على التعاقب ، زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبى

طالب ، وعبد الله بن رواحة .

(١) اسم مدينة .

فلا جرم أن يرفض الإسلام أية مساومة على منحه حق البقاء ، وأن يمضى فى طريقه مستنأفاً إلى مبادئه وحدها وتضحيات المؤمنين بها .

فما إن استقر له الأمر حتى بدأ يجلى جيوش الروم والفرس عن الأقطار الفسيحة التى احتلت رقعته واستهلكت أهلها . . على ما قصصنا عليك .

وكانت مصر قبيل الفتح الإسلامى يتنازع احتلالها الفريقان معاً ، حتى انهزم الفرس آخر الأمر أمام خصوصهم فنوطد ملك الروم بها .

وأضحت - بموقعها وسواردها - معواناً قوياً للروم فى القتال الذى دار بينهم وبين المسلمين .

### جيش عمرو :

قرر أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» فتح مصر ، وسار إليها الجيش الزاحف بقيادة «عمرو بن العاص» فأخذ طريقه إلى القاهرة حيث التقى بهم جيش الروم وفيه الجاثليق «أبو مريم» ومعه الأسقف الذى أرسله المقوقس .

وقبل أن تشن بك القوى المتأهبة للنزال قال «عمرو» لقادة الروم : لا تعجلوا حتى نعذر إليكم ! وليبرز إلى الجاثليق ، والأسقف ، فخرجا إليه ، فدعاهما إلى الإسلام أو الجزية ، وأخبرهما بوصية النبى ﷺ بأهل مصر ، لأن «هاجر» أم إسماعيل جد النبى عليه الصلاة والسلام من مصر .

روى مسلم فى صحيحه أن النبى ﷺ قال : «إنكم ستفتحون مصر ، وهى أرض يسى فيها القيراط . فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها ، فإن لهم ذمة ورحماً» أو «ذمة وصهراً» فقالوا : «قراية بعيدة ، لا يصل مثلها إلا الأنبياء» .

ثم قالوا لعمرو «أما حتى نرجع إليك» فقال لهما : «مثنى لا يخذع ولكنى أو جلكما ثلاثاً لتنظرا» .

فقالا : «زدنا . . .» فزادهما يوماً .

فرجعا إلى المقوقس بطريق الأقباط ، وإلى «أرطوبون» الوالى الرومانى فأخبراهما خبر المسلمين .

ويبدو أن البطريق القبطى كان زاهداً فى قتال العرب .



وعلى رأسهم «العباس بن مرداس» ومن «أشجع» و «غطفان» الذين كانوا حلفاء اليهود ، حين نكب اليهود في خيبر ، ومن «عبس» و «ذبيان» و «فزارة» .  
فكانت وقعة «مؤتة» سببًا في استتباب الأمر للمسلمين في شمال المدينة إلى حدود الشام .

أفترضى الرومان أن تتطور الأمور إلى هذا المصير ؟

لقد تضاعفت وساوس النصراني ونمت مخاوفهم ! وزادهم حنقًا أن يتحول تقهقر العرب في «مؤتة» إلى انتصار يستثير إعجاب الناس ويفريهم باعتناق الإسلام .  
والكنيسة لا تطيق أن يعيش بجانبها رأي يخالف في الفروع النافهة ، فكيف تسمح بالبقاء لدين ينكر سلطة رجالها ، لأنه لا يرى بين العباد وربهم وسائط ، وينكر عقيدة الفداء التي تركز عليها ، لأنه يبني الجزاء على عمل الإنسان وحده .  
فليس للإنسان إلا ما سعى ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، ثم هو ينكر مبدأ الشركة في الألوهية ، فليس للعالم إلا رب واحد يخضع له «عيسى» وأمه .

لذلك رأى الروم أن يعيدوا الكرة فيضربوا الإسلام في شمال الجزيرة ضربة تردده من حيث جاء ، وتوصد عليه أبواب الحدود فلا يستطيع التسرب منها ، وتضمن الكنيسة انفرادها بالضمير البشري ، حتى إذا قرعت أجراسها لم يشب رنينها صدى لمؤذن يهتف بتكبير الله وتوحيده ، ويدعو للصلاة والفلاح .

وترامت إلى النبي في المدينة أنباء هذا الإعداد الماكر .

وتاريخ النصرانية منذ تولت مقاليد الحكم يؤكد نية العدوان لدى رجال الكهنوت .  
فلم ير النبي بدءًا من استنفار المسلمين لملاقاة هذا العدوان المبيت .

والتهيؤ لملاقاة الروم جاء في أيام قيظ وقحط ، والسير إليهم يتطلب جهدًا مضنيًا ونفقة كبيرة .

وقتل الروم ليس صدامًا مع قبيلة محدودة العدد والعدة .

بل هو كنفاح مرير مع دولة تبسط سلطانها على جملة قارات ، وتملك موارد ثرة من الرجال والأموال . .

وإذا كان هذا الكتاب صادقا في تصويره للوقائع التي تمخضت عن المذهب الجديد فإن ذلك تسجيل حاسم للريب التي تحيطُ بجملة العقائد المسيحية :

لا الواردة في العهدين فحسب ، بل الناشئة عن قرارات المجامع المختلفة . !  
وأياً كان الأمر فقد اضطربت الصلات بين مصر وروما ، واتسعت الفجوة بين الكاثوليك والأرثوذكس .

حتى إن المصريين فضلوا أن يحكمهم مجوس فارس عن أن يظلوا خاضعين للمسيحيين الرومان !!

إنهم كانوا يريدون البقاء على مذهبهم الديني آمين ، وهذا ما كان الرومان يظنون به . .

زد على ذلك أثقال الضرائب التي فرضها الحكام المتعسفون .

إن مصر المسيحية في ظل الإمبراطورية الرومانية المسيحية ظلت تنوء بما تحمل حتى خارت قواها ، وتحولت على مر الليالي السود إلى مستعمرة تزدهم بالرعاة والعبيد .

**الإسلام يدخل مصر :**

تختلف نشأة الإسلام اختلافاً كبيراً عن نشأة النصرانية .

فإن الإسلام يمتاز بأنه تحول على عجل إلى دولة تهيمن على جزيرة العرب .

كان النبي رئيسها الأعلى ، وكان القرآن - وهو دستورها الأصيل - محفوظاً بعناية راثعة ، ووعته صدور القراء الذين استظهروه كلمة كلمة .

والذين بلغ من كثرتهم أن تكونت منهم فرق مقاتلة كان لها أثر عميق في حرب الردة .

ووعته كذلك صحائف الكتبة الذين سطروا أي الوحي في أوراقهم .

فلم يمت النبي إلا والكتاب السماوي يكتب ويقرأ في نطاق بعيد المدى .

ولا شك أن حظ القرآن من ذلك لا يذكر إلا جانبه أبدأ حظ الإنجيل .

فإما نبت المسلمون أمام لدد الكنيسة المتعصبة ، وإما أحرقتهم نازها فلم يبق لديهم  
أثر . . .

وكان لهذا الخزم أطيب النتائج .

فخرج المسلمون في تعبئة لم يخرجوا من قبل في مثلها ، فانطلقوا صوب الشمال  
حيث تربض جيوش الروم .

فلما وصلوا إلى تبوك ، أحس الروم أن هذا الجيش أقوى مما يطمقون لقاءه ، فاختلفوا  
داخل حدود الشام .

وعسكر النبي وصحابته بإزاء هذه الحدود أمداً يسيراً ، ولم يشكروا في اجتيازها  
لأنهم لم يخرجوا من بلادهم مهاجمين ! .

فبقوا في أماكنهم قدر ما تشعر القبائل القاطنة بالحدود ، وقدر ما يشعر النصراني  
أنفسهم أن المسلمين ليسوا ضحايا سهلة المنال .

وفي تبوك عقد النبي معاهدات صلح وأمان مع طائفة من هذه القبائل .  
ثم قفل بعدها عائداً إلى المدينة .

\* \* \*

لو كانت لدى النصراني الروم نية خير تجاه الدين الجديد لوقفوا في الميدان مستندين  
إلى قواتهم الكثيفة .

ثم فاضوا المسلمين في عقد معاهدة متكافئة تحفظ لكلا الدينين كرامته ، وتتيح  
الحرية لمن شاء أن يعتنق أي الديانتين أحب . . .

لكن ، هل عرف هذا الاتجاه في تاريخ الكنيسة قط حتى يطمع في مثله ؟

إن الروم لا يحول بخلدتهم أن يعترفوا بهذا الدين ، وأن يعطوه مكاناً مساوياً  
بعقيدتهم ، بل أن يوقروا صاحبه أو يكرموا أتباعه !

إنهم تراجعوا وراء حدودهم ، كما تكمن الحية في جحرها تنتظر الفرصة السانحة  
للدغة القاتلة .

فما إن دخل الرومان واليونان والمصريون في النصرانية حتى فرضوا عليها معتقداتهم الأولى فشققوا مبدأ التوحيد ، وجعلوا الله أباً والمسيح ابناً له ، وضموا لهما إلهاً ثالثاً على مر الأيام .

\*\*\*

نعتذر لهذا الاستطراد ، لقد تمسنا مع الحديث رغبة منا في كشف كثير من الأحداث التي اكتنفت تاريخ النصرانية الأولى ، ومدى تأثير الديانة المستضعفة بها ، والدور الذي لعبته مصر مع غيرها من دول العالم الوثني في توليد مسيحية جديدة يزدوج فيها مبدأ التوحيد والتعدد .

ونستخلص من هذا السرد الجمل . أن مصر كانت وثنية في أغلب عصور الفراعنة . وأن النصرانية التي أرسل بها عيسى كالإسلام الذي جاء به محمد ، ديانة وافدة من الخارج .

وهذه أو تلك لا يقدح فيهما ولا يركبهما وصف بالخرية أو الألفة ، فإن الدين كالعلم لا وطن له .

وأن المسيحية التي انتشرت بعد في مصر لقيت حمايتها ورواجها على أيدي الرومانيين المحتلين للبلاد .

وكان جمهور المصريين ينظر إليها على أنها بعض مظاهر السيادة الأجنبية . وأن عبادة الأصنام ظلت متغلغلة في مصر قرابة ثلاثة قرون لم ير فيها بظاركة الكنيسة ما يزعج مسيحياتهم .

وأن المصريين لما استبان لهم أن الثالوث المسيحي تجديد للثالوث المصري القديم أقبلوا على المسيحية باعتبارها فلسفة مصرية بحتة ، وليست ديانة يفرضها الرومان الغاصبون لبلادهم .

\*\*\*

وهذه الخلاصات يمكننا أن نستدل عليها جميعاً من النقول والتعليقات التي ذكرها المؤلف الصنيبي في الباب الأول من كتابه .

وثم أمر آخر عنى الكاتب بإبرازه .

وهو أن الكنيسة المصرية شقت عصا الطاعة على كنيسة «روما» لأسباب سياسية مجردة .

أجل فى تحرير البلاد والعباد !

ولنتابع هذه الأئوية الزاحفة لنرى أكان خروج المسلمين من ديارهم بطراً ورتاء الناس ، أم كان تحقيقاً للأهداف التى تنشدها الأم الحرة ، والتى داسها الأقباء المثناحرون على استرقاق البشر من الفرس والروم ومن أمثالهم فى كل زمان ؟

أسرع «أبو بكر» فى تنفيذ أمر النبى بإرسال جيش «أسامة» ، ليعيد إلى المسلمين هيبتهم بعد أن قتل الرومان «الأمير» الذى صالحهم ، وبعد أن ألبوا أتباعهم من العرب على العبث بالمسلمين فى شمال الجزيرة .

وقد التزم «أبو بكر» الحدود التى شرع الجهاد من أجلها .

فأمر رجال الجيش الزاحف أن يكونوا مثلاً كريمة لدينهم ، فلا فساد ولا اضطهاد ، ولا سلب ولا نهب .

قال «أبو بكر» لأسامة وجنده : «لا تخونوا ، ولا تغدروا ، ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تعزقوا نخلاً ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ، ولا بعيراً إلا للأكل .

وإذا مررتم بقوم فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . . إلخ» .

قارن بين هذه الأوامر وبين ما صنعتته الولايات المتحدة - زعيمة الأمم الحديثة وسادنة الحضارة الحديثة كذلك - عندما أمرت ضايرها فى حربها الأخيرة مع اليابان فألقوا القنابل الذرية على مدينتين أهلتين فأحرقوا الحرث والنسل ، واستحل الشيوخ والأطفال والنساء إلى قيح وصدید وحم عفن ، وعظام نخرة ، وأنقاض متداعية كأن لم تغن بالأمس . .

لقد استحل الغربيون لأنفسهم المتكر محتجين أنهم يبشرون بقضايا العدل والحرية بين أم لاتعرف العدل والحرية !!

والعالم كنه يعرف أنهم فى هذه المزاعم كاذبون

ولو فرضنا - جدلاً - أنهم صادقون ، فإن المثل العالية لا تحقق بالمسالك النابية .

٣ إن جملة الرسائل التي تؤلف ما يسمى الآن بالعهد الجديد لا تنهض على أساسيد تعطيها قوة تاريخية معتبرة ، فهي غريبة عن لغة المسيح بعيدة عن عصره ، ويمكن القول بأن هذا العهد ما صنفه المسيح ولا الخواريون ، بل صنفه رجال مجهولو الاسم ثم نُسب إلى الحواريين ورفقائهم .

وكتب «استادلن» يقول : «إن كافة إنجيل «يوحنا» تصنيف طالب من جامعة الإسكندرية» ووافقته «برطشنييد» وزاد على ذلك أيضاً رسائل «يوحنا» .

ومع ذلك فإن العهدين القائمين ذكرت بهما أسماء نحو خمسة وعشرين سفرًا لا وجود لها !! .

\* \* \*

ونحن - المسلمين - لا نزعم أن ما ورد في أسفار العهدين القديم والجديد باطل محض ، ففيهما مزيج غامض مبهم من الخطأ والصواب .

وقد وردت فيهما كلمات تخضع وصف الألوهية على أناس أطبق أهل الأديان أجمعون على عداهم بشرًا فحسب .

جاء في الإصحاح السابع من سفر الخروج «فكأن الرب لموسى : انظر ، أنا جعلتك إلهًا لفرعون ، وهارون يكون نبيك» .

وجاء في الإصحاح الرابع من السفر المذكور : «هو يكلم الشعب عنك ، ويكون لك فمًا ، وأنت تكون له إلهًا» .

وهذا التهور في إطلاق الألوهية على الأناسي ، إما أن يكون عجزًا شائنا في الترجمة عن الأصل فأبدلت كلمة السيد مثلاً بالاله .

وإما أن يكون مسلکًا مغرضًا قصد به تضليل العامة عن سوء نية . . وكلا الأمرين استغل - كما رأيت - في تأليه «عيسى» لما كثرت هذه الإطلاقات عليه .

ولكن لماذا لم يؤله موسى كذلك؟

وقد ذكرت كلمة «ابن الله» كذلك على غير «عيسى» ، فأطلقت على آدم «ابني آدم ابن الله» لوقا «٣ : ٣٨» .

وإذا قدمت على جنك فأحسن صحبتهم ، وابدأهم بالخير ، عدهم إياه . . . وإذا وعظت فأوجز ، فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً . . .

وأصلح نفسك يصلح لك الناس ، وصل الصلاة لأوقاتها ، بإتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها .

وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم ، وأقلل لشهم حتى يخرجوا من عسكريك وهم جاهلون .

ولا تزينهم - حقيقة جيشك - فيروا خيلك ، ويعلموا علمك .

وأنزلهم في ثروة عسكريك ، وامنع من قبلك من محادثتهم .

وكن أنت المتولى لكلامهم ، ولا تجعل سرك لعلايتك فيختلط أمرك .

وإذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة ، ولا تخذل عن المشير خبرك فتؤتى من قبلك .

واسمُر بالليل في أصحابك تأتاك الأخبار وتكشف عندك الأستار .

وأكثر حرسك ، وبدلهم في عسكريك ، وأكثر مفاجأتهم في محارستهم بغير علم منهم بك .

فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أديه ، وعاقبه في غير إفراط .

واعقب بينهم بالليل والنهار ، واجعل التوبة الأولى أطول من الأخيرة ، فإنها أيسرها لقربها من النهار .

ولا تخف من عقوبة المستحق ، ولا تلجن فيها ، ولا تسرع إليها .

ولا تغفل عن أهل عسكريك فتفسده ، ولا تجسس عليهم فتفضحهم ، ولا تكشف الناس عن أسرارهم ، واكتف بعلايتهم ، ولا تجالس العابثين .

وجالس أهل الصدق والوفاء ، وأصدق اللقاء ولا تجبن فيجب الناس .

واجتنب الغلول فإنه يقرب الفقر ويدفع النصر .

لو أن عيسى عليه الصلاة والسلام استطاع أن يقيم لدينه دولة تحمى قواعده الحققة ما استطاعت الوثنية القديمة أن تفتك به هذا الفتك الذريع .

ولكن عيسى ذهب والنصرانية تدور بها دوامة عاصفة من أحقاد الوثنية التي تملك الدولة والصولة .

ولم يكن الرومان وحدهم عباد أصنام ، بل كان اليونان والفرس والمصريون والهنود وسائر البشر ، ما عدا فلول من اليهود لا يقام لهم وزن .

وودنا لو قرأنا تعاليم عيسى نفسه بلغته العبرانية ، أو لو قرأنا رسائل حواريه الكرام بهذه اللغة نفسها ، فهي اللغة التي دونوا بها عقائدهم وبشروا بها أمهم .

غير أنه - من المؤسف - ألا نجد إلا تراجم يونانية و لاتينية لهذه الكتب المفقودة ، وهؤلاء الذين كتبت تعاليم المسيح بلغتهم هم سدنة الوثنية القديمة وأشياعها .

والمدهش أن المترجمين أنفسهم أشخاص مجهولون !

فبأى وجه من المنطق يؤخذ دين عيسى من السنة أعدائه بعد ضياع الصحائف الأولى التي أنزلت عليه ، وبعد ضياع الأسفار التي كتبها عنه تلامذته ، وحلت محلها تراجم لا تعرف قيمتها العلمية ولا أمانة ذوبها ؟

ونحن نجزم بأن تغييرات هامة جداً طرأت على أصل النصرانية مالت بها إلى تعدد الآلهة ! ونحت بها نحو الوثنية السائدة في فكرة الفداء والقربان .

وقد عادها المصريون أولاً بالنظر إلى أصلها السماوى ، وحتى إذا حوروها كما يشتهون : دخلوا فيها .

أو بالأحرى لم يستطيعوا الانتقال إليها فنقلوها إليهم .

ولما كان المفروض أن الإنجيل ملحق بالتوراة ، وأنه يعتمد أحكامها ، وأن النصراني مكلف بالعهدين القديم والجديد معاً ، فإن عبث الوثنية لم يلحق الإنجيل فحسب ، بل تعداه إلى التوراة نفسها .

وقد لاحظ الباحثون دلائل ذلك فيما يلي :



إن إفلات العرب من عواقب حرب تنشب بينهم وبين الروم فحسب ، أو بينهم وبين  
الفرس فحسب ، يعتبر لهم كسباً جليلاً !!

فكيف ، وقد أحرزوا النصر في ميدانين هائلين !!

وهو ليس نصراً عسكرياً في معركة تكسب فيها أرض أو تخسر فيها أرض .

بل هو نصر في توجيه الأجيال واستنقاذ الشعوب وصيغ العالم بحضارة تبقى فيه  
إلى الأبد . . .

هذه هي المعجزة التي لم يعرفها فتح من قبل ولا من بعد . . . !!

\* \* \*

لقد تابعنا الألوية المنتصرة في تقدمها الظافر ، وشرحنا الأسباب المباشرة للقتال  
الذي خاضته .

وتريد أن نتساءل : هل من واجب المؤرخ المنصف استقصاء هذه الأسباب الموقوتة  
لتبرير ما وقع من حروب ؟

إننا نستغرب لماذا يتحول الحق المقتضب إلى حق مكتسب ؟ تقوم له حرمة وتضان  
له حدود ، ويسمى التعرض له عدواناً<sup>(١)</sup> .

إن هذا - للأسف الشديد - ما تواضع المجرمون على إقراره .

فإذا احتلت فرنسا بلاد المغرب وأذاقت أهلها الخسف ، وملاّت أفئدتهم بالخوف ، ثم  
جاء من يستنكر ذلك ويعلن سحقه ، صاححت فرنسا :

ما لكم تفحمون أنفسكم في مسائل داخلية لا شأن لكم بها ؟

إن المغرب قطعة من فرنسا نفسها ، يعتبر التعرض له خصومة لفرنسا تمتشق الحسام  
دفاعاً عنه !!!<sup>(٢)</sup> .

أرأيت إلى الوقاحة كيف تقلب الأوضاع فترد الحق باطلاً والباطل حقاً ؟

(١) مثل قضية فلسطين فإن المجتمع المدلس يتهم المجاهدين بشعدوان والإرهاب وينهم المعتصرين على مذابح  
الصهيونية بساندة الإرهاب . . . بينما يباح ما يسفكون من الدماء .

(٢) كان ذلك قبل استقلال المغرب .

ونضرب مثلاً لهذا التثبيت - يعنى تثبيت المصريين بوثنيتهم القديمة - من قراءة «السيناكسار» أى تاريخ القديسين .

وماذا يقول : «السيناكسار» هذا ؟

يقول - كما ترجم الكاتب من مرجع فرنسى - «فى معبد قيصرىون الذى شيده الملكة «كيلو بطرة» .

كان يوجد صنم كبير من النحاس اسمه «عطارده» وكان يحتفل سنوياً بعيدة وتقدم له الذبائح ، وقد ظلت هذه التقاليد معمولاً بها إلى أيام حكومة الأب «إسكندر» .

أى لمدة تزيد على ثلاثمائة عام .

فلما نصب «إسكندر» بطريكاً قرر تحطيم هذا الصنم .. بيد أن شعب الإسكندرية ثار قائلاً : لقد اعتدنا إحياء هذا الصنم .

ولقد تبرع على هذا الكرسى اثنا عشر بطريكاً ولم يجروا أحد منهم أن يصرفنا عن هذه العبادة » .

أرأيت أيها القارئ؟ ذلك هو تصرف الأمانى على ديانة نزلت من السماء بإزاء التقاليد الوثنية التى رفض العامة من المصريين أن يدعوها .

والغريب أن هذا الكاتب يقول قبل ذلك بطور : « .. إننا لن نناقش النتائج التى خرج بها بعض المستشرقين أمثال «لوفيفر» و «شميدت» و «شولتز» .

فقد اتفقوا على أن المسيحية ظلت غريبة على أهل مصر الأصليين ، كما ادعوا أن نجاح العرب يرجع بصفة عامة إلى «أن الإسلام اجتذب أقباط مصر ، الذين تبعوا من تزمت كنائسهم وتضييقها عليهم» .

ونحن نعرف أن أهل مصر الأول كانوا وثنيين متعصبين لعقائدهم .

وقد قرأنا - كذلك - فى تاريخ القديسين كيف احترم البطارقة هذه الوثنية وسأبروها .

فلم غضب المصريون آخر الأمر من كنائسهم ؟

فقد طلب إليهما أن يستنهضا من قاتل أهل الردة ، ومن ثبت على الإسلام بعد موت الرسول ، وألا يستعينا بمرتد وأن يسيرا بمن يحب ولا يستكرها أحداً .

فانفض عنهما كثير ممن معهما !!

ما هذا الأمر الغريب من خليفة يقاتل الفرس الذين دونهوا الروم عدة قرون ؟

كيف لا يستعين على قتالهم بكل من يستطيع تحنيدته ؟

لا . . . إن الخليفة يرى الجهاد في سبيل الله شرفاً لا يرشح له إلا الأكفاء ، إن الأمر في نظره ليس مقام يتسابق الأعراب لنيلها .

إنها رسالة تستند قوتها قبل كل شيء ، من إيمان رجالها وتفانيهم ثم تسير بعدئذ في ضمان السماء .

ومن ثم أصدر الخليفة أمره إلى قائده أن يحتفظ بخلاصة نقيه من الرجال الموقنين الثابتين فذلك أجدى عنده من الغنائ الكثير .

كما أصدر الخليفة أمراً آخر إلى خالد : « تألف أهل فارس ومن كان في ملكهم من الأمم . . . » .

أجل ، فإن القتال في الواقع للثوك فارس وأمرائها لا لفلاحيتها وأجرائها .

فلأولئك المستضعفين جاء الإسلام ، جاء ليخلصهم من الهون ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور .

وقد حرص خالد في موقعه ألا يمس الفلاحين بسوء ، وأن يعرض عليهم الجزية والذمة فيجيبوا ويتراجعوا .

**النصارى والمجوس يتحالفون ضد الإسلام:**

كلنا رجع المرء ببصره في تاريخ المسيحية يتبين له بعد الشقة بين حاضر هذه الديانة بعدما عشت بها الأيدي ، وبين ماضيها العريق .

يوم تنزلت من السماء آيات بينات ، وكان إنجيل عيسى دستوراً الفذ .

(٤)

**كيف دخلت المسيحية مصر**

**وكيف دخلها الإسلام؟**

الفرس في معركة «الوجهة» - وهؤلاء النصارى من العرب لا من الروم - وقد انهزم  
«الفرس» وتكبدوا خسائر جسيمة .

وأصيب كثير من نصارى «بكر بن وائل» فغضب لهم حلقاؤهم ، وقرروا الانضمام  
إلى الفرس ضد المسلمين !

فلما بلغ خالدًا تجمع نصارى العرب من بنى عجل ، وتيم اللات ، وعرب الضاحية  
من أهل الحيرة ، ولحاق الجوس بهم أسرع إلى ملاقاتهم في وقعة «أليس» حيث أنزل  
بهم كارثة جعلت دماءهم تخالط ماء النهر ، فسمى إلى اليوم نهر الدم . .

وتقدم خالد إلى «الحيرة» ، وكان الرجال قد تحصنوا في قصورها ، فأجأ الخيل في  
عرصاتها ، وأدار المعركة في الشوارع ياخزف والنيال .

فأحس الرهبان أن الأمر جد واستنزلوا أهل القصور يطلبون الصلح .

وكان أول الرؤساء طلبًا للصلح «عمرو بن عبد المسيح» ثم تبعه غيره .

فكان من كلام خالد لهم :

«ويحكم ! ما أنتم ؟ أعرب ؟ فما تنقمون من العرب<sup>(١)</sup> ؟ أو عجم ؟ فما تنقمون من  
العدل والإنصاف» .

وأمضى معهم صلحًا لا بأس أن نذكر نصه :

«هذا ما عاهد عليه «خالد بن الوليد» عديًا وعمراً ابني عدي ، وعمراً بن  
عبد المسيح وإياس بن قبيصة ، وحيرى بن إكال ، وهم نقباء أهل «الحيرة» ، ورضى  
بذلك أهل «الحيرة» وأمروهم به . .

عاهدهم على تسعين ومائة ألف درهم تقبل في كل سنة جزاء عن أيديهم في  
الدنيا ورهبانهم وقسيسبيهم ، إلا من كان منهم على غير ذى يد ، حبسًا عن الدنيا ،  
تاركًا لها ، وعلى المنعة . .

فإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم ، وإن غدروا بفعل أو بقول فالذمة  
منهم بريئة . كتب في شهر ربيع الأول سنة ١٢هـ .

(١) هل نعمت القومية العربية حينئذ . . ؟

وانطلق الحاققون على الإسلام ونبيه بصفونه بأقبح الخصال وأشنع السير فزعموا :  
« أن محمداً لص نياق ! وزعموه متهاكماً على اللهو ! وزعموه ساحراً ! وزعموه  
رئيس عصابة من قطاع الطريق !

بل زعموه قساً رومانياً مغيظاً محنقاً أن لم ينتخب لكرسى البابوية .  
وحسبه بعضهم إلهاً زائفاً يقرب له عباده الضحايا البشرية . . » .

وإن « حبيردونوجن » نفسه - وهو رجل جد - ليذكر أن محمداً مات في نوبة سكر  
بين ، وأن جسده وجد ملقى على كوم من الروث وقد أكلت منه الخنازير <sup>(١)</sup> . . الخ  
أرأيت هذه الحرب التي أعلنتها الكنيسة على الإسلام .

إنها ما تزال إلى عصرنا هذا حامية الوطيس في أوروبا وأمريكا .  
ولا يزال المبشرون السفهاء يحملون جراثيمها في دماهم الملوثة .

وأخر مظهر لسورة هذه الأضغان الكامنة تألب الصليبية العالمية مع اليهودية على  
طرد المسلمين من فلسطين .

أجل . ففي عماية الغضب الدفين على الإسلام وأهله ابتلع النصارى طعن اليهود  
في شرف مريم ونسب ابنها ، وتصافح الفريقان ليواجهها المسلمين جميعاً بحرب شعواء ،  
تذر الألوف المؤلفة من العرب البائسين يخرجون من ديارهم ليقتلهم الجوع والعراء .

\* \* \*

(١) هيكل : ترجمة عن الكاتب للفرنسي إميل در منجم .

الإسلام من مجوس الفرس ، ومن نصارى الروم والعرب جميعاً ، بجيش خالد بن الوليد .  
ولما تلاقت الجيوش المتحالفة وتذاكرت ماضيها القريب في قتال المسلمين صاحب  
الروم : «امتازوا حتى نعرف اليوم ما كان حسن أو قبيح من أيانا يحيى» .

فامتازت صفوفهم ليبدى كل صف غاية ما لديه من بلاء !  
بيد أن ذلك لم يغير من عقبى البيغى للبيغاة ، فانكسروا جميعاً .  
وقيل : إن خسارة الفرس والروم والعرب في هذه المعركة نحو مائة ألف ، لم يجدهم  
تحالفهم شيئاً . . .

ومضت الألوية المنتصرة تشق طريقها لتحرير العبيد ، وتهشم القيود .

وفي تلك المعركة أنشد القعقاع بن عمرو :

لقينا بالفراض جموع روم      وفرس غيرها طول السلام  
أبدنا جمعهم لما التقينا      وبيتنا بجمع بنى رزام  
فما فتئت جنود السلم حتى      رأينا القوم كالغنم السوام

والقارئ يلاحظ في هذه الأبيات أن الشاعر يسمي جيش المسلمين جنود السلم ،  
ويؤاخذ الروم والفرس وحلفاءهم بأنهم استحمقوا من طول مسألة المسلمين لهم ، حتى  
إذا لجوا في غوايتهم حل بهم التكال .

\* \* \*

ومن حق المرء أن يتساءل : أما كان هناك موضع لسلم شريف يصون هذه الدماء  
الغزيرة أن تسفك ، وهذه الأرواح الغالية أن تهلك؟

ولا تشك أنه كانت ثمة مندوحة من التورط في هذه الحرب الشعواء .

وإنما يحمل أوزارها من بيغى ، لا من نهض يؤدب البيغاة .

هناك صنفان من الناس لن تذوق الأرض حلاوة السلم ما بقيا :

أولهما : الرجال المفروضون على الدنيا يحكمونها بأمرهم ويسترقون البشر بسلطانهم

وذلك لما سبق مجيئهم من شهرة بالتسامح والنزاهة .  
وهم قد عانوا الأمرين من تعصب الكتلركة وعسف الأباطرة والولة .  
وتستطيع أن تدرك البون الشاسع بين طبيعة الحكم الإسلامى وطبيعة الحكم  
المسيحى فى هذه العصور البعيدة ، من موقف الفريقين بإزاء المعابد المخالفة .  
فإن الرومان كانوا يفتصبون من الأرثوذكس كنائسهم ، ويحولونها إلى كنائس  
كاثوليكية غير مكترئين بحرمة العقائد وغضب العامة .  
لكن «عمر بن الخطاب» لما قدم بيت المقدس ودخل كنيسة القيامة حضرته  
الصلاة .

فقال للبطريك : أريد الصلاة !

فقال له البطريك : صلّ موضعك .

فامتنع عمر ، وخرج من الكنيسة فصلى قريباً من بابها ، وصلى وحده!  
فلما فرغ من صلاته قال للبطريك : لو صليت داخل الكنيسة لأخذها المسلمون  
بعدى ، وقالوا : هنا صلى «عمر» .  
وكتب لهم ألا يجمع على الدرجة للصلاة - درجة السلم حيث صلى - كما أمر ألا  
يؤذن عليها .

ثم قال للبطريك : أرنى موضعاً أبني فيه مسجداً .

فاختار البطريك مكان الصخرة ، لأن الله - كما يحكى - كلم يعقوب عليها !!

وكان بالمكان ردم كثير فشرع «عمر» فى إزالته وتناوله بيده يرفعه فى ثوبه .

واقتنى به المسلمون كافة ، فزالت الأنقاض المتخلفة وأمكن بناء المسجد .

ذاك صنيع الخليفة الراشد «عمر» ، والمسلمون فى أوج قوتهم .

والإمبراطور «هرقل» يلم فلول جيشه المدحور قافلاً إلى القسطنطينية بعدما لفظ

الاستعمار الرومانى أنفاسه الأخيرة فى هذه الساحة الرحبة .

وليس يؤثر فى مسلك المسلمين ، أو يؤخذ على العهود التى أبرموها أى اتجاه إلى

الفتنة عن دين ، أو الاحتقار لشعيرة مخالفة .



ما جربوا إلا الاضطهاد والتعذيب ينصب على رؤوس من خالفهم .  
فأى عاقل يلوم الإسلام على رده ضربات المسيحيين بمثلها؟  
إن من رحمة الله بالناس أجمعين أن أعان قادة الإسلام الأوائل على حسم هذه  
الشرور .

وقد مضت ألبية المنتصرين إلى غايتها النبيلة كما رأيت على عهد الخليفة الأول .  
لم يعقها تساند النصارى والمجوس فى الكيد للإسلام ومحاولة الخلاص منه .

\*\*\*

فلما ولى «عمر» أمر المؤمنين حافظ على أهداف الفتح .  
وهى تنحصر فى كسر شوكة الملوك ، وإقرار الحرية الدينية ، وتنزيه الفاتحين عن  
اقتراف المآثم التى يعرفها التاريخ لمئات القادة والساسة من يسبحون فى الأرض ابتغاء  
المجد والمتعة .

فالجهد فى الإسلام إذا اقترن به هوى من أهواء الشهرة أو الثروة ، حبط أجره وسقط  
عند الله قدره .

إنه عبادة يخرج فيها المسلم طالب ثواب لا طالب دنيا ، ومحرر عبيد لا مستعبد  
أحرار ، ومصالح أوضاع لا مشير فوضى !!  
فإذا لم تتحقق هذه المعانى فى القتال فالإسلام منه برىء .

وما أحوج العالم بين الحين والحين إلى مجاهدين من هذا الطراز السامى .  
يغسلون الأرض من أوضارها المتكاثفة ويردون إليها صوابها إذا سلبه الجبارون من  
أهل الدنيا أو الدجالون من رجال الدين .

ووصايا «عمر» لقادته تشعرك أن هؤلاء الفاتحين لم يكونوا بشرًا معتادين بل كانوا  
ملائكة مكرمين فى صورة البشر .

انظر إلى ما كتبه إلى «سعد بن أبى وقاص» فى جبهة فارس قال : «بسم الله  
الرحمن الرحيم - أما بعد - فإننى أمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل  
حال .

وقد رأيت أننا لم نؤخذ شيئاً بعد شىء، إلا بانبعاثهم وغدرهم، وأن ملكهم هو الذى يبعثهم، ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا بالانسحاق فنسيح فى بلادهم ونزيل ملكهم فهناك ينقطع رجاؤهم .

فقال عمر : صدقتنى والله ! وصمم على اتباع مشورته .

\*\*\*

ماذا يبغى منك فارس ؟ لقد حمل شعبه قوائم عرشه حتى ناء بأثقالها .

فكان جزاء ولائهم له أن أكل فى السلم صحيحهم وسقيمهم ، واستذل غنيهم وفقيرهم ، وأصدر أمره «الكريم» إليهم أن يكونوا عبيده المخلصين فى حرب الإسلام ومشاقه نبيه .

فساروا وراءه مسحورين ببيروق التاج وميراث السيادة .

حتى إذا تلاحقت الهزائم ، وهتكت قوى الإيمان أستار الجيروت المكذوب ، وقرر العبيد عقد معاهدات متكافئة الدم مع الفاتحين الذين ساقطهم الأقدار . . أبى الملك المتشبهت بأذيال ماضيه إلا أن يحرض «الرعية» على الغدر ، ويحثهم على معاودة القتال مع المسلمين .

لو لم يكن للتعصب الإسلامى من ثمرات إلا أنه هدم هذه الوثنية السياسية وأحرق آثارها ، لكانت تلك بذاً جليلاً يشكرها العالم له .

فلما أحس «كسرى» باليأس من بقاء ملكه رأى أن يهرب أمواله وكنوزه إلى قطر آخر ، فينتقل إليه بثروته ، إن لم يستطع الانتقال إليه بسدنته !!

بيد أن الشعب الذى استيقظ آخر الأمر حرمه من هذا الأمل الباقى .

قال الأستاذ محمد الحضرى : قصد «يزدجرد» شطر «مرو» فحصر حاميتها واستخرج منها خزانته ، وأراد أن يرحل بها إلى «فرغانة» أو «الصين» ، فيقيم بإحدهما ، فلم يمكنه من ذلك أهل «خراسان» قائلين :

ارجع بنا إلى هؤلاء القوم - المسلمين - فصالحهم . فإنهم أوفياء ، وأهل دين .

وإذا وطئت أرض العدو فأذكِ العيون بينك وبينهم ، ولا يَخْفَ عليكم أمرهم .  
وليكن عندك من العرب - أو من أهل الأرض - من تظمنن إلى نصحه وصدقه .  
فإن الكذوب لا ينفَعك خبره ، وإن صدقك في بعض .  
والغاش عين عليك وليس عيناً لك . . الخ » ا . هـ .

إذا هبطنا من السماء إلى الأرض ، وانتقلنا من نصائح «عمر» في الحرب الإسلامية إلى أوامر «تشرشل» في الحرب الديمقراطية ، وجدنا رجلاً يقول : أنا أحالف الشيطان في سبيل الوصول إلى أغراضى<sup>(١)</sup> . . !

ووجدنا عهداً تكتب ثم ينكث بها قبل أن يجف مدادها . . !  
ووجدنا المهزوم مفروضاً عليه أن يسلم بدون قيد ولا شرط .  
ووجدنا قائداً أمريكياً في الفلبين «يطارد» غلاماً ليفق به .  
ووجدنا الجنود حيث كانوا ينظم لهم البغاء ، وتمهد لهم الجريمة ، ويباح لهم النهب .  
وذلك كله من أموال وأعراض البلاد المفتوحة .

وبرغم هذا البون الشاسع بين السماء والأرض ، بين حروب الإسلام في العصور الأولى ، وحرب الغرب في العصور الحديثة ، لا تعدم وقتاً سود الضغن قلبه على هذا الدين الخفيف ، فهو يتهم الفاتحين الملائكة بسوءات أبائهم وزعمائهم من الساسة والقادة .  
والمستشرقون والمبشرون من وراء هذا الإفك المفتري يحسبون أنهم إذا هدموا الإسلام بهذه الأوهام فقد خدموا النصرانية وأمدوا لها حبل البقاء .

\* \* \*

و «عمر» الذي يصدر أوامره تلك لقائد المسلمين في فارس يدري دراية جيدة من هم الذين يقاتلونهم ، وأى فساد تغلغل في صغوفهم ونفوسهم ويمكن له حكم الفرد المثاله في بلادهم .

(١) كان «تشرشل» يعتقد مبدأ «ميكافيليز» انعاية تبرير الوسيلة . «المحقق» .

وإذا وطئت أرض العدو فأذكِ العيون بينك وبينهم ، ولا يخفَ عليكم أمرهم .  
وليكن عندك من العرب - أو من أهل الأرض - من تطمئن إلى نصحه وصدقه .  
فإن الكذوب لا ينفعك خبره ، وإن صدقك في بعض .  
والغاش عين عليك وليس عيناً لك . . الخ » ا . ه .

إذا هبطنا من السماء إلى الأرض ، وانتقلنا من نصائح «عمر» في الحرب الإسلامية إلى أوامر «تشرشل» في الحرب الديمقراطية ، وجدنا رجلاً يقول : أنا أحالف الشيطان في سبيل الوصول إلى أغراضى<sup>(١)</sup> . . !

ووجدنا عهداً تكتب ثم ينكث بها قبل أن يجف مدادها . . !  
ووجدنا المهزوم مفروضاً عليه أن يسلم بدون قيد ولا شرط .  
ووجدنا قائداً أمريكياً في الفلبين «بطارد» غلاماً ليفسق به .  
ووجدنا الجنود حيث كانوا ينظم لهم البغاء ، وتمهد لهم الجريمة ، ويباح لهم النهب .  
وذلك كله من أموال وأعراض البلاد المفتوحة .

وبرغم هذا البون الشاسع بين السماء والأرض ، بين حروب الإسلام في العصور الأولى ، وحرب الغرب في العصور الحديثة ، لا تعدم وقحاً سوّد الضغن قلبه على هذا الدين الحنيف ، فهو يتهم الفاتحين الملائكة بسوءات آباءه وزعمائه من السياسة والقادة .  
والمستشرقون والمبشرون من وراء هذا الإفك المقتري يحسبون أنهم إذا هدموا الإسلام بهذه الأوهام فقد خدموا النصرانية وأمدوا لها حبل البقاء .

\* \* \*

و «عمر» الذي يصدر أوامره تلك لقائد المسلمين في فارس يدري دراية جيدة من هم الذين يقاتلونهم ، وأى فساد تغلغل في صفوفهم ونفوسهم ويمكن له حكم الفرد المتآكف في بلادهم .

(١) كان «تشرشل» يعنى مبدأ «ميكانيللي» الغاية تبرر الوسيلة . «المحقق» .

وقد رأيت أنا لم تؤخذ شيئاً بعد شيء إلا بانبيعتهم وغدرهم ، وأن ملكهم هو الذى بيعتهم ، ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا بالانسياع فنسيح فى بلادهم ونزبل منكم فهناك ينقطع رجاؤهم .

فقال عمر : صدقتنى والله ! وصمم على اتباع مشورته .

\*\*\*

ماذا يبغى منك فارس ؟ لقد حمل شعبه قوائم عرشه حتى ناء بأنقالها .

فكان جزاء ولائهم له أن أكل فى السلم صحيحهم وسقيمهم ، واستذل غنيهم وفقيرهم ، وأصدر أمره «الكريم» إليهم أن يكونوا عبيده المخلصين فى حرب الإسلام ومشافة نبيه .

فساروا وراءه مسحورين ببريق التاج وميراث السيادة .

حتى إذا تلاحقت الهزائم ، وهتكت قوى الإيمان أستار الخبروت المكذوب ، وقرر العبيد عقد معاهدات متكافئة الدم مع الفاتحين الذين ساقتهم الأقدار . . أبى الملك المتشبه بأذيال ماضيه إلا أن يحرض «الرعية» على الغدر ، ويحثهم على معاودة القتال مع المسلمين .

لو لم يكن للتعصب الإسلامى من ثمرات إلا أنه هدم هذه الوثنية السياسية وأحرق آثارها ، لكانت تلك بدءاً جليلاً يشكرها العالم له .

فلما أحس «كسرى» باليأس من بقاء ملكه رأى أن يهرب أمواله وكنوزه إلى قطر آخر ، فينتقل إليه بثروته ، إن لم يستطع الانتقال إليه بسدنته !!

بيد أن الشعب الذى استيقظ آخر الأمر حرمه من هذا الأمل الباقى .

قال الأستاذ محمد الخضرى : قصد «بزدجرد» شطر «مرو» فحصر حاميتها واستخرج منها خزائنه ، وأراد أن يرحل بها إلى «فرغانة» أو «الصين» ، فيقيم بإحدهما ، فلم يمكنه من ذلك أهل «خراسان» قائلين :

ارجع بنا إلى هؤلاء القوم - المسلمين - فصالحهم . فإنهم أوفياء ، وأهل دين .

ما جربوا إلا الاضطهاد والتعذيب ينصب على رؤوس من خالفهم .  
فأى عاقل ينوم الإسلام على رده ضربات المسيحيين يمثلها؟  
إن من رحمة الله بالناس أجمعين أن أعان قادة الإسلام الأوائل على حسم هذه  
الشؤون .

وقد مضت ألوية المنتصرين إلى غايتها النبيلة كما رأيت على عهد اخليفة الأول .  
لم يعقها تساند النصارى والمجوس فى الكيد للإسلام ومحاولة الخلاص منه .

\* \* \*

فلما ولى «عمر» أمر المؤمنين حافظ على أهداف الفتح .  
وهى تنحصر فى كسر شوكة الملوك ، وإقرار الحرية الدينية ، وتنزيه الفاتحين عن  
اقتراف المآثم التى يعرفها التاريخ لمنات القادة والساسة بمن يسبحون فى الأرض ابتغاء  
المجد والمتعة .

فالجهد فى الإسلام إذا اقترن به هوى من أهواء الشهرة أو الثروة ، حبط أجره وسقط  
عند الله قدره .

إنه عبادة يخرج فيها المسلم طالب ثواب لا طالب دنيا ، ومحزر عبيد لا مستعبد  
أحرار ، ومصالح أوضاع لا مثير فوضى !!

فإذا لم تتحقق هذه المعانى فى القتال فالإسلام منه برىء .

وما أحوج العالم بين الحين والحين إلى مجاهدين من هذا الطراز السامى .

يفسلون الأرض من أضرارها المتكاثفة ويردون إليها صوابها إذا سلبه الجبارون من  
أهل الدنيا أو الدجالون من رجال الدين .

ووصايا «عمر» لقادته تشعرك أن هؤلاء الفاتحين لم يكونوا بشرًا معتادين بل كانوا  
ملائكة مكرمين فى صورة البشر .

انظر إلى ما كتبه إلى «سعد بن أبى وقاص» فى جبهة فارس قال : «بسم الله  
الرحمن الرحيم - أما بعد - فإننى أمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل  
حال .

وذلك لما سبق مجيئهم من شهرة بالتسامح والنزاهة .  
وهم قد عانوا الأسرى من تعصب الكثلكة وعسف الأباطرة والولاة .  
وتستطيع أن تدرك البون الشاسع بين طبيعة الحكم الإسلامى وطبيعة الحكم  
المسيحى فى هذه العصور البعيدة ، من موقف الفريقين بإزاء المعابد المخالفة .  
فإن الرومان كانوا يفتصبون من الأرثوذكس كنائسهم ، ويحولونها إلى كنائس  
كاثوليكية غير مكثرئين بحرمة العقائد وغضب العامة .  
لكن «عمر بن الخطاب» لما قدم بيت المقدس ودخل كنيسة القيامة حضرته  
الصلاة .

فقال للبطريك : أريد الصلاة !

فقال له البطريك : صلّ موضعك .

فامتنع عمر ، وخرج من الكنيسة فصلى قريباً من بابها ، وصلى وحده!  
فلما فرغ من صلاته قال للبطريك : لو صليت داخل الكنيسة لأخذها المسلمون  
بعدى ، وقالوا : هنا صلى «عمر» .  
وكتب لهم ألا يجمع على الدرجة للصلاة - درجة السلم حيث صلى - كما أمر ألا  
يؤذن عليها .

ثم قال للبطريك : أرنى موضعاً أبني فيه مسجداً .

فاختار البطريك مكان الصخرة ، لأن الله - كما يحكى - كلم يعقوب عليها !!

وكان بالمكان ردم كثير فشرع «عمر» فى إزالته وتناوله بيده يرفعه فى ثوبه .

واقتنى به المسلمون كافة ، فزالت الأنقاض المتخلفة وأمكن بناء المسجد .

ذاك صنيع الخليفة الراشد «عمر» ، والمسلمون فى أوج قوتهم .

والإمبراطور «هرقل» يلم فلول جيشه المدحور قافلاً إلى القسطنطينية بعدما لفظ

الاستعمار الرومانى أنفامه الأخيرة فى هذه الساحة الرحبة .

وليس يؤثر فى منك المسلمين ، أو يؤخذ على العهود التى أبرموها أى اتجاه إلى

الفتنة عن دين ، أو الاحتقار لشعيرة مخالفة .

الإسلام من مجوس الفرس ، ومن نصارى الروم والعرب جميعاً ، بجيش خالد بن الوليد .  
ولما تلاقت الجيوش المتحالفة وتذاكرت ماضيها القريب في قتال المسلمين صاح  
الروم : «امتازوا حتى نعرف اليوم ما كان حسن أو قبيح من أبنا بجىء» .

فامتازت صفوفهم ليبدى كل صف غاية ما لديه من بلاء !  
بيد أن ذلك لم يغير من عقبي البغى لبغاة ، فانكروا جميعاً .  
وقيل : إن خسارة الفرس والروم والعرب في هذه المعركة نحو مائة ألف ، لم يجدهم  
تحالفهم شيئاً . . .

ومضت الألوية المنتصرة تشق طريقها لتحرير العبيد ، وتهشم القيود .  
وفي تلك المعركة أنشد القعقاع بن عمرو :

لقينا بالفراض جموع روم      وفرس غرها طول السلام  
أبدنا جمعهم لنا التقينا      وبيتنا بجمع بنى رزام  
فما فتئت جنود السلم حتى      رأينا القسوم كالغنم السوام

والقارئ يلحظ في هذه الأبيات أن الشاعر يسمي جيش المسلمين جنود السلم ،  
ويؤاخذ الروم والفرس وحلفاءهم بأنهم استحتمقوا من طول مسالة المسلمين لهم ، حتى  
إذا لجوا في غوايتهم حل بهم النكال .

\* \* \*

ومن حق المرء أن يتساءل : أما كان هناك موضع لسلم شريف يصون هذه الدماء  
الغزيرة أن تسفك ، وهذه الأرواح الغالية أن تهلك؟

ولا نشك أنه كانت ثمة مندوحة من التورط في هذه الحرب الشعواء .

وإنما يحمل أوزارها من بغى ، لا من نهض يؤدب البغاة .

هناك صنفان من الناس لن تذوق الأرض حلاوة السلم ما بقيا :

أولهما : الرجال المفروضون على الدنيا يحكمونها بأمرهم ويسترقون البشر بسلاطنتهم



وانطلق الحاققون على الإسلام ونبيه يصفونه بأقبح الخصال وأشنع السير فزعموا :  
« أن محمدا لص نياق ! وزعموه متهاكأ على اللهو ! وزعموه ساحراً ! وزعموه  
رئيس عصابة من قطاع الطريق !

بل زعموه قساً رومانياً مغيظاً محنقاً أن لم ينتخب لكرسى البابوية .  
وحسبه بعضهم إلهاً زائفاً يقرب له عباده الضحايا البشرية . . . » .

وإن « حبيردونوجن » نفسه - وهو رجل جد - ليذكر أن محمداً مات فى نوبة سكر  
بين ، وأن جسده وجد ملقى على كوم من الروث وقد أكلت منه الخنازير<sup>(١)</sup> . . الخ  
أرأيت هذه الحرب التى أعلنتها الكنيسة على الإسلام .

إنها ما تزال إلى عصرنا هذا حامية الوطيس فى أوروبا وأمريكا .  
ولا يزال المبشرون السفهاء يحملون جراثيمها فى دمائهم الملوثة .

وآخر مظهر لسورة هذه الأضغان الكامنة تأكب الصليبية العالمية مع اليهودية على  
طرد المسلمين من فلسطين .

أجل . ففى عماية الغضب الدفين على الإسلام وأهله ابتلع النصارى طعن اليهود  
فى شرف مريم ونسب ابنها ، وتصافح الفريقان ليواجهها المسلمين جميعاً بحرب شعواء ،  
تذر الألوف المؤلفة من العرب البائسين يخرجون من ديارهم ليقتلهم الجوع والعراء .

\* \* \*

(١) هيكال : ترجمة عن الكاتب الفرنسى إميل دو منجم .

الفرس فى معركة «الولجة» - وهؤلاء النصرارى من العرب لا من الروم - وقد انهزم «الفرس» وتكبدوا خسائر جسيمة .

وأصيب كثير من نصرارى «بكر بن وائل» فغضب لهم حلفاؤهم ، وقرروا الانضمام إلى الفرس ضد المسلمين !

فلما بلغ خالدًا تجمع نصرارى العرب من بنى عجل ، وتيم اللات ، وعرب الضاحية من أهل الخيرة ، ولحاق الجوس بهم أسرع إلى ملاقاتهم فى وقعة «أليس» حيث أنزل بهم كارثة جعلت دماءهم تخالط ماء النهر ، فسمى إلى اليوم نهر الدم . .

وتقدم خالد إلى «الخيرة» ، وكان الرجال قد تحصنوا فى قصورها ، فأجال الخيل فى عرصاتها ، وأدار المعركة فى الشوارع بالحزف والنبال .

فأحس الرهبان أن الأمر جد واستنزلوا أهل القصور يظليون الصلح .

وكان أول الرؤساء طلبًا للصلح «عمرو بن عبد المسيح» ثم تبعه غيره .

فكان من كلام خالد لهم :

«ويحكم ! ما أنتم ؟ أعرب ؟ فما تنقمون من العرب<sup>(١)</sup> ؟ أو عجم ؟ فما تنقمون من العدل والإنصاف» .

وأمضى معهم صلحًا لا بأس أن نذكر نصه :

«هذا ما عاهد عليه «خالد بن الوليد» عديًا وعمرًا ابنى عدى ، وعمرًا بن عبد المسيح وإياس بن قبيصة ، وحيرى بن إكال ، وهم نقباء أهل «الخيرة» ، ورضى بذلك أهل «الخيرة» وأمروهم به . .

عاهدهم على تسعين ومائة ألف درهم تقبل فى كل سنة جزاء عن أيديهم فى الدنيا ورهبانهم وتسيبيهم ، إلا من كان منهم على غير ذى يد ، حبسًا عن الدنيا ، تاركًا لها ، وعلى المنعة . .

فإن لم يمتنعهم فلا شىء عليهم حتى يمتنعهم ، وإن غدروا بفعل أو بقول فالذمة منهم بريئة . كتب فى شهر ربيع الأول سنة ١٢هـ .

(١) هل نعت القومية العربية حينئذ . . ؟

(٤)

**كيف دخلت المسيحية مصر**

**وكيف دخلها الإسلام؟**

فقد طلب إليهما أن يستنهضا من قاتل أهل الردة ، ومن ثبت على الإسلام بعد موت الرسول ، وألا يستعينا بمرتد وأن يسيرا بمن يحب ولا يستكرها أحداً .

فانفض عنهما كثير من معهما !!

ما هذا الأمر الغريب من خليفة يقاتل الفرس الذين دوخوا الروم عدة قرون ؟

كيف لا يستعين على قتالهم بكل حى يستطيع تجنيده ؟

لا . . إن الخليفة يرى الجهاد فى سبيل الله شرفاً لا يرشح له إلا الأكفاء ، إن الأمر فى نظره ليس مغام يتسابق الأعراب لتبيلها .

إنها رسالة تستند قوتها قبل كل شىء من إيمان رجالها وتفانيهم ثم تسير بعدئذ فى ضمان السماء .

ومن ثم أصدر الخليفة أسره إلى قائده أن يحتفظ بخلاصة نقيه من الرجال الموقنين الثابنين فذللك أجدى عليه من الغنائ الكثير .

كما أصدر الخليفة أمراً أحر إلى خالد : «تألف أهل فارس ومن كان فى ملكهم من الأمم . .» .

أجل ، فإن القتال فى الواقع ثلوث فارس وأمرائها لا لفلاحيتها وأجرائها .

فلأولئك المستضعفين جاء الإسلام ، جاء ليخلصهم من الهون ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور .

وقد حرص خالد فى موقعه ألا يمس الفلاحين بسوء ، وأن يعرض عليهم الجزية والذمة فيجيبوا ويتراجعوا .

**النصارى والمجوس يتحالفون ضد الإسلام:**

كلما رجع الثرى ببصره فى تاريخ المسيحية يتبين له بعد الشقة بين حاضر هذه الديانة بعدما عشت بها الأبدى ، وبين ماضيها التعريق .

يوم تنزلت من السماء آيات بينات ، وكان إنجيل عيسى دستوراً للفد .

ونضرب مثلاً لهذا التشبث - يعنى تشبث المصريين بوثنيتهم القديمة - من قراءة «السيناكسار» أى تاريخ القديسين .

وماذا يقول : «السيناكسار» هذا ؟

يقول - كما ترجم الكاتب من مرجع فرنسى - «فى معبد قيصرون الذى شيده الملكة «كيلو بطرة» .

كان يوجد صنم كبير من النحاس اسمه «عطارده» وكان يحتفل سنوياً بعيدة وتقدم له الذبائح ، وقد ظلت هذه التقاليد معمولاً بها إلى أيام حكومة الأب «إسكندر» -

أى لمدة تزيد على ثلاثمائة عام .

فلما نصب «إسكندر» بطريكاً قرر تحطيم هذا الصنم .. بيد أن شعب الإسكندرية ثار قائلاً : لقد اعتدنا إحياء هذا الصنم .

ولقد تبرع على هذا الكرسي اثنا عشر بطريكاً ولم يجرؤ أحد منهم أن يصرفنا عن هذه العبادة » .

أرأيت أيها القارئ؟ ذلك هو تصرف الأمراء على ديانة نزلت من السماء بإزاء التقاليد الوثنية التى رفض العامة من المصريين أن يدعوها .

والغريب أن هذا الكاتب يقول قبل ذلك بسطور : « .. إننا لن نناقش النتائج التى خرج بها بعض المستشرقين أمثال «لوفيفر» و «شميدت» و «شولتز» .

فقد اتفقوا على أن المسيحية ظلت غريبة على أهل مصر الأصليين ، كما ادعوا أن نجاح العرب يرجع بصفة عامة إلى «أن الإسلام اجتذب أقباط مصر ، الذين تبعوا من تزمّت كنائسهم وتضيقها عليهم» .

ونحن نعرف أن أهل مصر الأول كانوا وثنيين متعصبين لعقائدهم .

وقد قرأنا - كذلك - فى تاريخ القديسين كيف احترم البطارقة هذه الوثنية وسابروها .

فلِمَ غضب المصريون آخر الأمر من كنائسهم ؟

إن إفلات العرب من عواقب حرب تنشب بينهم وبين الروم فحسب ، أو بينهم وبين  
الفرس فحسب ، يعتبر لهم كسباً جليلاً !!

فكيف ، وقد أحرزوا النصر في ميدانين هائلين !!

وهو ليس نصراً عسكرياً في معركة تكسب فيها أرض أو تخسر فيها أرض .

بل هو نصر في توجيه الأجيال واستنقاذ الشعوب وصيغ العالم بحضارة تبقى فيه  
إلى الأبد . . .

هذه هي المعجزة التي لم يعرفها فتح من قبل ولا من بعد . . . !!

\* \* \*

لقد تابعتنا الألوية المنتصرة في تقدمها الظافر ، وشرحنا الأسباب المباشرة للقتال  
الذي خاضته .

ونريد أن نتساءل : هل من واجب المؤرخ المنصف استقصاء هذه الأسباب الموقوتة  
لتبرير ما وقع من حروب ؟

إننا نستغرب لماذا يتحول الحق المقتصب إلى حق مكتسب ؟ تقوم له حرمة وتسان  
له حدود ، ويسمى التعرض له عدواناً؟<sup>(١)</sup> .

إن هذا - للأسف الشديد - ما تواضع المجرمون على إقراره .

فإذا احتلت فرنسا بلاد المغرب وأذاقت أهلها الخسف ، وملاّت أفئدتهم بالخوف ، ثم  
جاء من يستنكر ذلك ويعلن سحقه ، صاححت فرنسا :

ما لكم تفحمون أنفسكم في مسائل داخلية لا شأن لكم بها ؟

إن المغرب قطعة من فرنسا نفسها ، يعتبر التعرض له خصومة لفرنسا تمتشق الحسام  
دفاعاً عنه !!!<sup>(٢)</sup> .

أرأيت إلى الوقاحة كيف تقلب الأوضاع فتزد الحق باطلاً والباطل حقاً ؟

(١) مثل قضية فلسطين فإن المجتمع المدلس يتهم المجاهدين بالعدوان والإرهاب وينهم المعترضين على مذابح  
الصهيونية بمساندة الإرهاب . . . بينما يباح ما يسفكون من الدماء .

(٢) كان ذلك قبل استقلال المغرب .

فإن عيسى عليه الصلاة والسلام استطاع أن يقيم لدينه دولة تحمى قواعده أخفة  
ما استطاعت الوثنية القديمة أن تفعلك به هذا الفتك الذريع .

ولكن عيسى ذهب والنصرانية تدور بها دوامة عاصفة من أحقاد الوثنية التي غمك  
الدولة والصولة .

ولم يكن الرومان وحدهم عباد أصنام ، بل كان اليونان والفرس والمصريون والهنود  
وسائر البشر ، ما عدا فلول من اليهود لا يقام لهم وزن .

وددنا لو قرأنا تعاليم عيسى نفسه بلغته العبرانية ، أو لو قرأنا رسائل حواريه الكرام  
بهذه اللغة نفسها ، فهي اللغة التي دونوا بها عقائدهم وبشروا بها أهمهم .

غير أنه - من المؤسف - ألا نجد إلا تراجم يونانية و لاتينية لهذه الكتب المفقودة ،  
وهؤلاء الذين كتبت تعاليم المسيح بلغتهم هم سدنة الوثنية القديمة وأشياعها -

والمدهش أن المترجمين أنفسهم أشخاص مجهولون !

فبأى وجه من المنطق يؤخذ دين عيسى من ألسنة أعدائه بعد ضياع الصحائف  
الأولى التي أنزلت عليه ، وبعد ضياع الأسفار التي كتبها عنه تلامذته ، وحلت محلها  
تراجم لا تعرف قيمتها العلمية ولا أمانة نوبها ؟

ونحن نجزم بأن تغييرات هامة جداً طرأت على أصل النصرانية مالت بها إلى تعدد  
الآلهة ! ونحت بها نحو الوثنية السائدة في فكرة الفداء والقربان .

وقد عادها المصريون أولاً بالنظر إلى أصلها السماوى ، وحتى إذا حوروها كما  
يشتهون : دخلوا فيها .

أو بالأحرى لم يستطيعوا الانتقال إليها فنقلوها إليهم .

ولما كان المفروض أن الإنجيل ملحق بالتوراة ، وأنه يعتمد أحكامها ، وأن النصراني  
مكلف بالعهدين القديم والجديد معاً ، فإن عبث الوثنية لم يلحق الإنجيل فحسب ، بل  
تعداه إلى التوراة نفسها .

وقد لاحظ الباحثون دلائل ذلك فيما يلي :

وإذا قدمت على جنك فأحسن صحبتهم ، وابدأهم بالخير ، عدوهم إياه . . وإذا  
وعطت فأوجز ، فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً . . .

وأصلح نفسك يصلح لك الناس ، وصلِّ الصلاة لأوقاتها ، بإتمام ركوعها  
وسجودها والتخشع فيها .

وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم ، وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكريك  
وهم جاهلون .

ولا تزينهم - حقيقة جيشك - فيروا خللك ، ويعلموا علمك .

وأنزلهم في ثروة عسكريك ، وامنع من قبلك من محادثتهم .

وكن أنت المتولى لكلامهم ، ولا تجعل سرك لعلايتك فيختلط أمرك .

وإذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة ، ولا تخذل عن المشير خبرك  
فتؤتى من قبلك .

واسمّر بالليل في أصحابك تأتاك الأخبار وتكشف عندك الأستار .

وأكثر حرسك ، وبدلهم في عسكريك ، وأكثر مفاجأتهم في محارستهم بغير علم  
منهم بك .

فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه ، وعاقبه في غير إفراط .

واعقب بينهم بالليل والنهار ، واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة ، فإنها  
أيسرها لقربها من النهار .

ولا تخف من عقوبة المستحق ، ولا تلجئ فيها ، ولا تسرع إليها .

ولا تغفل عن أهل عسكريك فتفسده ، ولا تجسس عليهم فتفضحهم ، ولا تكشف  
الناس عن أسرارهم ، واكتف بعلايتهم ، ولا تجالس العابثين .

وجالس أهل الصدق والوفاء ، وأصدق اللقاء ولا تجبن فيجبن الناس .

واجتنب الغلول فإنه يقرب الفقر ويدفع النصر .



٣ إن جملة الرسائل التي تؤلف ما يسمى الآن بالعهد الجديد لا تنهض على أسانيد تعطيها قوة تاريخية معتبرة ، فهي غريبة عن لغة المسيح بعيدة عن عصره ، ويمكن القول بأن هذا العهد ما صنفه المسيح ولا الحواريون ، بل صنفه رجال مجهولو الاسم ثم نُسب إلى الحواريين ورفقائهم .

وكتب «استادلن» يقول : «إن كافة إنجيل «يوحنا» تصنيف طالب من جامعة «الإسكندرية» ووافق «برطشنيدي» وزاد على ذلك أيضاً رسائل «يوحنا» .

ومع ذلك فإن العهدين القائمين ذكرت بهما أسماء نحو خمسة وعشرين سفرًا لا وجود لها !!» .

\*\*\*

ونحن - المسلمون - لا نزعم أن ما ورد في أسفار العهدين القديم والجديد باطل محض ، ففيهما مزيج غامض مبهم من الخطأ والصواب .

وقد وردت فيهما كلمات تخلع وصف الألوهية على أناس أطبق أهل الأديان أجمعون على عداهم بشرًا فحسب .

جاء في الإصحاح السابع من سفر الخروج «فقال الرب لموسى : انظر ، أنا جعلتك إلهًا لفرعون ، وهارون يكون نبيك» .

وجاء في الإصحاح الرابع من السفر المذكور : «هو يكلم الشعب عنك ، ويكون لك فمًا ، وأنت تكون له إلهًا» .

وهذا الشهور في إطلاق الألوهية على الأناسي ، إما أن يكون عجزًا شائئًا في الترجمة عن الأصل فأبدلت كلمة السيد مثلاً بالإله .

وإما أن يكون مسلكًا مغرضًا قصد به تضليل العامة عن سوء نية . . وكلا الأمرين استغل - كما رأيت - في تأليه «عيسى» لما كثرت هذه الإطلاقات عليه .

ولكن لماذا لم يؤله موسى كذلك؟

وقد ذكرت كلمة «ابن الله» كذلك على غير «عيسى» ، فأطلقت على آدم «ابني آدم ابن الله» لوقا «٣ : ٣٨» .

أجل في تحرير البلاد والعباد !

ولنتابع هذه الألوية الزاحفة لنرى أكان خروج المسلمين من ديارهم بطراً ورتاء الناس ، أم كان تحقيقاً للأهداف التي تتشدها الأم الحرة ، والتي داسها الأقوياء المتناحرون على استرقاق البشر من الفرس والروم ومن أمثالهم في كل زمان ؟

أسرع «أبو بكر» في تنفيذ أمر النبي بإرسال جيش «أسامة» ، ليعيد إلى المسلمين هيبته بعد أن قتل الرومان «الأمير» الذي صالحهم ، وبعد أن ألجأ أتباعهم من العرب على العيب بالمسلمين في شمال الجزيرة .

وقد التزم «أبو بكر» الحدود التي شرع الجهاد من أجلها .

فأمر رجال الجيش الزاحف أن يكونوا مثلاً كريمة لدينهم ، فلا فساد ولا اضطهاد ، ولا سلب ولا نهب .

قال «أبو بكر» لأسامة وجنده : «لا تخونوا ، ولا تغدروا ، ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تعزقوا نخلاً ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ، ولا بعيراً إلا للأكل .

وإذا مررتم بقوم فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . . الخ» .

قارن بين هذه الأوامر وبين ما صنعتها الولايات المتحدة - زعيمة الأمم الحديثة وسادنة الحضارة الحديثة كذلك - عندما أمرت طياريتها في حربها الأخيرة مع اليابان فألقوا القنابل الذرية على مدينتين أهلتين فأحرقوا الحرث والنسل ، واستحال الشيوخ والأطفال والنساء إلى قيح وصدید وغم عفن ، وعظام نخرة ، وأنقاض متداعية كأن لم تغن بالأمس . .

لقد استحال الغربيون لأنفسهم المنكر محتجين أنهم يبشرون بقضايا العدل والحرية بين أم لا تعرف العدل والحرية !!

والعالم كله يعرف أنهم في هذه المزاعم كاذبون

ولو فرضنا - جدلاً - أنهم صادقون ، فإن المثل العالية لا تحقق بالمسالك النابية .

فما إن دخل الرومان واليونان والمصريون في النصرانية حتى فرضوا عليها معتقداتهم الأولى فشققوا مبدأ التوحيد ، وجعلوا الله أباً وأنسيح ابناً له ، وضموا لهما إلهاً ثالثاً على مر الأيام .

\*\*\*

نعنذر لهذا الاستطراد ، لقد تمسينا مع الحديث رغبة منا في كشف كثير من الأحداث التي اكتنفت تاريخ النصرانية الأولى ، ومدى تأثير الديانة المستضعفة بها ، والدور الذي لعبته مصر مع غيرها من دول العالم الوثني في توليد مسيحية جديدة يزدوج فيها مبدأ التوحيد والتعدد .

ونستخلص من هذا السرد المجلل . أن مصر كانت وثنية في أغلب عصور الفراعنة . وأن النصرانية التي أرسل بها عيسى كالإسلام الذي جاء به محمد ، ديانة وافدة من الخارج .

وهذه أو تلك لا يقدح فيهما ولا يزيكهما وصف بالغربة أو الألفة ، فإن الدين كالعلم لا وطن له .

وأن المسيحية التي انتشرت بعد في مصر لقيت حمايتها ورواجها على أيدي الرومانيين المحتلين للبلاد .

وكان جمهور المصريين ينظر إليها على أنها بعض مظاهر السيادة الأجنبية .

وأن عبادة الأصنام ظلت متغلغلة في مصر قرابة ثلاثة قرون لم ير فيها بطاركة الكنيسة ما يزعج مسيحتهم .

وأن المصريين لما استبان لهم أن الثالوث المسيحي تجديد للثالوث المصري القديم أقبلوا على المسيحية باعتبارها فلسفة مصرية بحتة ، وليست ديانة يفرضها الرومان الغاصبون لبلادهم .

\*\*\*

وهذه الخلاصات يمكننا أن نستدل عليها جميعاً من النقوش والتعليقات التي ذكرها المؤلف الصليبي في الباب الأول من كتابه .

وتم أمر آخر عنى الكاتب بإيرازه .

وهو أن الكنيسة المصرية شقت عصا الطاعة على كنيسة «روما» لأسباب سياسية مجردة .

فإما ثبت المسلمون أمام لدد الكنيسة المتعصبة ، وإما أحرقتهم نارها فلم يبق لدينهم  
أثر . .

وكان لهذا الحزم أطيب النتائج .

فخرج المسلمون في تعبئة لم يخرجوا من قبل في مثلها ، فانطلقوا صوب الشمال  
حيث تربض جيوش الروم .

فلما وصلوا إلى تبوك ، أحس الروم أن هذا الجيش أقوى مما يطيقون لقاءه ، فاختلفوا  
داخل حدود الشام .

وعسكر النبي وصحابته بإزاء هذه الحدود أمداً يسيراً ، ولم يفكروا في اجتيازها  
لأنهم لم يخرجوا من بلادهم مهاجمين ! .

فبقوا في أماكنهم قدر ما تشعر القبائل القاطنة بالحدود ، وقدر ما يشعر النصارى  
أنفسهم أن المسلمين ليسوا ضحايا سهلة المنال .

وفي تبوك عقد النبي معاهدات صلح وأمان مع طائفة من هذه القبائل .  
ثم قفل بعدها عائداً إلى المدينة .

\* \* \*

لو كانت لدى النصارى الروم نية خير تجاه الدين الجديد لوقفوا في الميدان مستندين  
إلى قواتهم الكثيفة .

ثم فاضوا المسلمين في عقد معاهدة متكافئة تحفظ لكلا الدينين كرامته ، وتتيح  
الحرية لمن شاء أن يعتنق أي الديانتين أحب . . .

لكن ، هل عرف هذا الاتجاه في تاريخ الكنيسة قط حتى يطمع في مثله ؟

إن الروم لا يجول بخلداهم أن يعترفوا بهذا الدين ، وأن يعطوه مكاناً مساوياً  
بعقيدتهم ، بل أن يوفروا صاحبه أو يكرموا أتباعه !

إنهم تراجعوا وراء حدودهم ، كما تكمن الحية في جحرها تنتظر الفرصة السانحة  
للدغة القاتلة .

وإذا كان هذا الكاتب صادقاً في تصويره لملوqانق التي تمخضت عن المذهب الجديد فإن ذلك تسجيل حاسم للريب التي تحيط بجمنة العقائد المسيحية :

لا الواردة في العهدين فحسب ، بل الناشئة عن قرارات الجماع المختلفة . !  
وأياً كان الأمر فقد اضطربت الصلات بين مصر وروما ، واتسعت الفجوة بين الكاثوليك والأرثوذكس .

حتى إن المصريين فضلوا أن يحكمهم مجوس فارس عن أن يظلوا خاضعين للمسيحيين الرومان !!

إنهم كانوا يريدون البقاء على مذهبهم الديني آمنين ، وهذا ما كان الرومان يظنون به . .

زد على ذلك أفعال الضرائب التي فرضها الحكام المتعسفون .

إن مصر المسيحية في ظل الإمبراطورية الرومانية المسيحية ظلت تنوء بما تحمل حتى خارت قواها ، وتحولت على مر الليالي السود إلى مستعمرة تزدهم بالرعاة والعبيد .

**الإسلام يدخل مصر :**

تختلف نشأة الإسلام اختلافاً كبيراً عن نشأة النصرانية .

فإن الإسلام يمتاز بأنه تحول على عجل إلى دولة تهيمن على جزيرة العرب .

كان النبي رئيسها الأعلى ، وكان القرآن - وهو دستورها الأصيل - محفوظاً بعناية رائعة ، ووعته صدور القراء الذين استظهروه كلمة كلمة .

والذين بلغ من كثرتهم أن تكونت منهم فرق مقاتلة كان لها أثر عميق في حرب الردة .

ووعته كذلك صحائف الكتبة الذين سطوروا أي الوحي في أوراقهم .

فلم يمت النبي إلا والكتاب السماوي يكتب ويقرأ في نطاق بعيد المدى .

ولا شك أن حظ القرآن من ذلك لا يذكر إلا جانبه أبداً حظ الإنجيل .

وعلى رأسهم «العباس بن مرداس» ومن «أشجع» و «غصقان» الذين كانوا حلفاء اليهود ، حين نكب اليهود في خيبر ، ومن «عبس» و «ذبيان» و «فزارة» .  
فكانت وقعة «مؤتة» سبباً في استتباب الأمر للمسلمين في شمال المدينة إلى حدود الشام .

أفترضى الرومان أن تتطور الأمور إلى هذا المصير ؟

لقد تضاعفت وساوس النصارى وعت مخاوفهم ! وزادهم حنقاً أن يتحول تفهقر العرب في «مؤتة» إلى انتصار يستثير إعجاب الناس ويغريهم باعتناق الإسلام .

والكنيسة لا تصيق أن يعيش بجانبها رأى يخالف فى الفروع التافهة ، فكيف تسمح بالبقاء لدين ينكر سلطة رجالها ، لأنه لا يرى بين العباد وربهم وسائط ، وينكر عقيدة الفداء التى تركز عليها ، لأنه يبني الأجزاء على عمل الإنسان وحده .

فليس للإنسان إلا ما سعى ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، ثم هو ينكر مبدأ الشركة فى الألوهية ، فليس للعالم إلا رب واحد يخضع له «عيسى» وأمه .

لذلك رأى الروم أن يعيدوا الكرة فيضربوا الإسلام فى شمال الجزيرة ضربة ترده من حيث جاء ، وتوصد عليه أبواب الحدود فلا يستطيع التسرب منها ، وتضمن الكنيسة انفرادها بالضمير البشرى : حتى إذا قرعت أجراسها لم يشب رنينها صدى لمؤذن يهتف بتكبير الله وتوحيده ، ويدعو للصلاة والفلاح .

وترامت إلى النبی فى المدينة أنباء هذا الإعداد الماكر .

وتاريخ النصرانية منذ تولت مقاليد الحكم يؤكد نية العدوان لدى رجال الكهنوت .

فلم ير النبي بدأ من استنفار المسلمين لملاقاة هذا العدوان المبيت .

والتهيؤ لملاقاة الروم جاء فى أيام قيظ وقحط ، والسير إليهم يتطلب جهداً مضنياً ونفقة كبيرة .

وقتال الروم ليس صداماً مع قبيلة محدودة العدد والعدة .

بل هو كفاح مرير مع دولة تبسط سلطانها على جملة قارات ، وتملك موارد ثرة من

الرجال والأموال . .

فلا جرم أن يرفض الإسلام أية مساومة على منحه حق البقاء ، وأن يمضى فى طريقه مستنداً إلى مبادئه وحدها وتضحيات المؤمنين بها .

فما إن استقر له الأمر حتى بدأ بجلى جيوش الروم والفرس عن الأقطار الفسيحة التى احتلت رقعته واستهلكت أهلها . . على ما قصصنا عليك .

وكانت مصر قبيل الفتح الإسلامى يتنازع احتلالها الفريقان معاً ، حتى انهزم الفرس آخر الأمر أمام خصوصتهم فتوخذ ملك الروم بها .

وأضحت - بموقعها ومواردها - معروناً قوياً للروم فى القتال الذى دار بينهم وبين المسلمين .

### جيش عمرو :

قرر أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» فتح مصر ، وسار إليها الجيش الزاحف بقيادة «عمرو بن العاص» فأخذ طريقه إلى القاهرة حيث التقى بهم جيش الروم وفيه الجاثليق «أبو مريم» ومعه الأسقف الذى أرسله المقوقس .

وقبل أن تشتبك القوي المتأهبة للنزال قال «عمرو» لقادة الروم : لا تعجلوا حتى نعذر إليكم ! وليبرز إلى الجاثليق ، والأسقف ، فخرجنا إليه ، فدعاهما إلى الإسلام أو الجزية ، وأخبرهما بوصية النبى ﷺ بأهل مصر ، لأن «هاجر» أم إسماعيل جد النبى عليه الصلاة والسلام من مصر .

روى مسلم فى صحيحه أن النبى ﷺ قال : «إنكم ستفتحون مصر ، وهى أرض يمسى فيها القيراط . فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها ، فإن لهم ذمة ورحماً» أو «ذمة وصهر» فقالوا : «قراية بعيدة ، لا يصل مثلها إلا الأنبياء» .

ثم قال لعمر «أما حتى نرجع إليك» فقال لهما : «مثلنى لا يخذع ولكنى أو جلكما ثلاثاً لتنظرا» .

فقالا : «زدنا . . .» فزادهما يوماً .

فرجعا إلى المقوقس بطريق الأقباط ، وإلى «أرطوبون» الوالى الرومانى فأخبراهما خبر المسلمين .

ويبدو أن البطريرك القبطى كان زاهداً فى قتال العرب .

وأوعزوا إلى القبائل النصرانية المتاخمة لحدود الشام أن تقف سداً منيعاً دون أي تقدم قد يحزره الإسلام في هذه البقاع .

فلما بعث النبي وفداً من الدعوة المسلمين يعلمون الناس مبادئ الإسلام ، وثبت عليهم جموع العرب الموالين للروم فقتلتهم جميعاً في مكان يسمى «ذات الطلح» وكانوا خمسة عشر داعياً ، واستطاع رئيسهم النجاة بأعجوبة . .

وتمكن أعرابي من قبيلة «غسان» أن يقتل رسولاً بعثه النبي إلى الوالي الروماني على بصرى<sup>(١)</sup> يدعو إلى الإسلام .

وأشيع أن هذا الاغتيال كان برضا «هرقل» نفسه .

ونحن نستبعد هذه الإشاعة ، ونرى أن المتعصبين من القساوسة هم الذين ارتضوا هذه الخطة في مقابلة الدعوة إلى الإسلام .

فإن موقف «هرقل» من الرسالة التي جاءت به ينبي عن حصافته وتنزعه عن ارتياد هذا المسلك الدنيء . .

وليس أمام المسلمين بإزاء هذه الحوادث إلا أن يردعوا الروم وأشباعهم حتى لا يعاودوا هذا التهجم .

فأرسل النبي حملة تاديبية من ثلاثة آلاف مقاتل أخذت طريقها إلى الشام .

بيد أن الروم كانوا قد استعدوا بجيش كثيف للقاء هذه الكتيبة من المؤمنين المتحمسين .

فجمعوا نحو مائتي ألف من رجالهم ، ومن انضم إليهم من قبائل لخم وجذام والقيين وبهراء وبلي .

وماذا عسى يصنعه ثلاثة آلاف أمام مائتي ألف ؟

ولكن حرارة اليقين جعلت الكتيبة المتفانية تجازف بالاشتباك مع جيش يربو عليها

سبعين مرة ، فقتل قادتها الثلاثة على الشعاقب ، زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي

طالب ، وعبد الله بن رواحة .

(١) اسم مدينة .



على ألا يُغزوا ، ولا يُمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة .

شهد الزبير ، وعبد الله ومحمد ، ابنه ، كتب وردان وحضر . . . « ١ . ١ . هـ .

\*\*\*

إن المبادئ الهامة التي تضمنتها هذه المعاهدة تعد صفحة جديدة في تاريخ العصور الوسطى .

وهي على نسق المعاهدات التي أبرمها المسلمون مع كثير من الشعوب التي طردوا الفرس والرومان منها .

ويجب أن نقرر هنا بعض الأسباب التي جعلت المصريين يستريحون لهذا العهد المعروض عليهم وبمضونه راضين .

١ - فقد استردت البلاد حريتها الدينية كاملة ، ونالت ضماناً واضحاً أن تبقى للمعابد قداستها فلا يفتحمها أحد ، ولا تخدش شعائرها .

وكان الأقباط محرومين من هذا الأمان في أثناء حكم الرومان ، لاختلاف المذهب الديني ، وإن انتمى الفريقان للنصرانية !

٢ - خف حمل الضرائب التي يدفعها المصريون للحكومة الإسلامية .

فإن تعداد مصر على عهد الفتح الإسلامي بلغ عشرة ملايين ساكن .

وكان الحد الأعلى لضريبة الجزية خمسين مليوناً من الدراهم ، أي متوسط ما يؤديه الفرد للحكومة خمسة دراهم في العام «نحو عشرة قروش» مع أن الرومان كانوا يستكروهم المصريين على دفع جملة أنواع من الضرائب الباهظة . .

٣ - يلاحظ أن هذه الضريبة كانت تنقص تبعاً لهبوط الفيضان ، ولكنها لا تزيد على النسبة المقررة ، كما أنها تؤدي أقساطاً ثلاثة على مدى السنة .

٤ - هذه المعاهدة معقودة مع المصريين الذين هم أصحاب البلاد .

فإذا رغب روماني أو نوبي الدخول فيها ، فله حق المعاملة بالمثل ، وإلا فعلى العرب أن يصونوا دمه وحقوقه كلها حتى يبلغ المكان الذي يأمن فيه على نفسه ، أو ينقطع عنده سلطانهم .

فإن محمداً لم يحبس في بيته هذه الثياب ، وهو الذي عرف بين خصومه وأحبابه أنه «يرقع ثوبه ويخصف نعله» .

ولاشك أن ألف ثوب يكسى بها عرب الصحراء أرفق بنصارى اليمن من القناطير الملقطة التي كان يدفعها النصارى صاغرين لرسل كسرى ؛ كي يزدان بها إيوانه الأبيض في المدائن .

لكن وثنية فارس أحب إلى هذا الكاتب الصليبي من دين محمد .

ولذلك يظهره في كتابته النافهة كأنه زعيم قبائل ثارت بحثاً عن الفوائد المادية (١) .  
فوائد مادية لمن ؟ إن القرآن يقول : ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ  
وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾<sup>(١)</sup> .

والنبي يقول : «ليس لي من غنمكم إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم» .

والعلة في الاستيلاء على الخمس وإعادة توزيعه على الجهات المحتاجة تعود إلى إقامة التوازن الاقتصادي بين طبقات المجتمع ، كما نص القرآن في تقسيم الفىء ، قال عز وجل :

﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ  
وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ...﴾<sup>(٢)</sup> .

فأى نفع مادي يزعمه الكاتب في هذه الشئون ؟

ثم يمضى الأفاك في هذره قائلاً :

«لم يجرؤ أحد على فرض الجزية على هؤلاء العرب - النصارى» .

وهذا كذب فقد فرضت عليهم الجزية ودفعوها .

ويقول كذلك في ص ٢٩ : «... حرص المسلمون أشد الحرص على عدم جرح  
عواطف مواطنهم المسيحيين» .

والواقع أن المسلمين لم يجرحوا عواطف النصارى عربياً وروماً .

(٢) الحشر : ٧ .

(١) الأنفال : ٤١ .

هل استنتج من هذه العداوة ميل الأقباط إلى التعاون مع الفاتح المسلم ؟ ... إلخ ص ٢٠ .  
فالأمر في وهم هذا الكاتب لا يرجع إلى الإسلام لأنه دين عَدُوٌّ ، ولا إلى صاحبه  
لأنه نبي سمح ! لا .

إن أحقاده لا تطوع له أن يتصور هذا العرض القريب المتمشي مع مسلك المسلمين  
في البلدان المفتوحة كافة .

فتراه يرد ما يرى من عاطفة زبيلة إلى أسباب ما يفتق إسنادها لنبي أرسله رب  
العالمين .

على أن الكاتب خبط في جمع الشواهد التي تدل على رعاية النبي لأهل مصر ،  
فهناك أحاديث صحيحة لم يذكرها ، وهناك أحاديث مكذوبة وقع عليها في كتب  
الأخبار ، وجاء بها إلى كتابه المشحون بالتفريعات .

كأنما يأبى عبه - وهو يستدل لغرض صحيح - أن يأتي بحديث صحيح !

من ذلك ما نسبته إلى النبي - وهو باطل - «لو بقى إبراهيم ما تركت قبطياً إلا  
وضعت عنه الجزية» .

فإن بقاء إبراهيم ومانه سواء بالنسبة إلى أحكام الشريعة ، وما يملك أبوه نقض حكم  
أبرمه الله .

والجزية يضعها عن نفسه من يمتنع عن محاربة الإسلام .

فأما من حاربه أو أعان من يحاربه فمن حق المسلمين أن يجردوه من سلاحه ، على  
أن هذا التجريد لن يغرى أحداً بالعدوان عليه .

فإن المسلمين أنفسهم سينزلون حمايته بنفقة مشتركة بينهم وبينه .

ومن الأكاذيب التي رواها الكاتب منسوبة إلى النبي أنه قال للمسلمين :  
« يكفونكم - يعني الأقباط - أعمال الدنيا وتفرغون للعبادة » .

وهذا نعو سخيف ، فإن التفرغ للعبادة في نظر الإسلام معصية !

والمسلم الذي يقعد عن شؤون الدنيا منتظراً من الآخرين أن يكفوه همومها ويحموه  
جهودها رجل متسول تافه .

وأن النصرارى - وهم سكان اليمن يومئذ - كانوا مطلقى الحرية فى إجابة داعى الله أو الإعراض عنه .

وأن الرسول ﷺ حرم على ولاته ظلم الناس ولو كانوا كفاراً ، فإن اختلاف الدين لا يبيح التظالم بين المتعاملين والمتجاورين .  
بل إن الظلم حرام ولو على امرئ سيئ .

روى أحمد عن أبى هريرة : «دعوة المظلوم مستجابة ، ولو كان فاجراً ، ففجوره على نفسه» .

إن الرسول الكريم لما تمكن من بط رواق الإسلام على الجزيرة كلها أخذ صحابته بتعاليم مشددة فى ضرورة إشاعة العدل ونحرى الدقة فى تطبيقه على كل فرد وإظهاره فى كل عمل .

روى أحمد عن ابن معود أن النبى ﷺ قال : «إن الشيطان قد يشس أن تعبد الأصنام فى أرض العرب ، ولكنه سيرضى منكم بدون ذلك بالمحقرات وهى الموبقات يوم القيامة . اتقوا الظلم ما استطعتم ، فإن العبد يجىء بالحسنات يوم القيامة يرى أنها ستنجيه فما زال عبد يقول : يارب ظلمنى عبدك مظلمة ، فيقول : امحوا من حسناته ، ولا يزال كذلك حتى ما ييضى له حسنة ، من الذنوب - المظالم - وإن مثل ذلك كسّفَر نزلوا بفلاة من الأرض ليس معهم حطب ، فتفرق القوم ليحتطبوا فلم يلبثوا أن حطبوا فأعظموا النار ، وطبخوا ما أرادوا ، وكذلك الذنوب» .  
هذه تعاليم المنتصر ، وتلك أوامره فى معاملة الناس .

وكانت «نجران» - إحدى القبائل المسيحية التى تقطن الجنوب - من بين الذين شملهم هذا العدل الرحب ، فما وقع على فرد منهم غبن ولا أكره على إيمان .

ولماذا يستثنون من التعاليم التى ذكرناها آنفاً؟

لكن الكاتب الصليبيّ الحقود لا يعلق بحرف على خضوع اليمن كلها لمجوس فارس .

وإنما تشتعل نيرانه لسيطرة الإسلام على العرب فى وسط الجزيرة وجنوبها .

(٥)

هل أضررت بالمسلمين سماحتهم؟

لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بَأْسٌ مِنْهُم قَسْبَينَ وَرَهْبَانَا وَآنَهُم لَا يَسْكُرُونَ ﴿١١﴾

الواقع أن النصراني المعتدل يجد أحسن ما يضمئن إليه من ديانتة واضحاً في الإسلام .

ولا يجد في الإسلام النقائص المستحيلة التي يجدها في ديانتة .

وهذا سر إسلام الألوف المؤلفة من الشعوب المسيحية .

على أن هناك وفوداً أظالت الكلام مع النبي في شأن «عيسى» وأصرت على إشراب شخصه معنى الألوهية !

وقد وقف النبي من هذه الوفود موقفاً يعتبر آية في الإخلاص ، والفناء في نشدان الحق .

إذ طلب من مجادلتيه أن يصلوا لله جميعاً مستنزلين اللعنة على من يكذب ويظلم :  
﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ  
وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ .

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿١٢﴾ .

وثبت من وقائع التاريخ أن الوفد المسيحي رفض أن يردد مع الرسول ﷺ هذه الدعوات .  
وهو رفض يدل على أن أولئك المنتصرين من العرب ما كانوا يجزمون بفكرة قاطعة في شأن عيسى .

وأن تأكيهم له لا يعدو أن يكون اتباعاً لظنون ، وتقليداً لآباء .

وما أكثر هؤلاء الواهمين بين جمهور المسيحيين .

إلا أن النصرانية بدأت تناوش الإسلام فعلاً عندما أحسست بدائرتة تنداح ، وبدأت

(٢) آل عمران : ٦٦ ، ٦٤ .

(١) المائدة : ٨٢ .

يعول الكونت الباحث : إن فينا من يستغرب أخذ الإسلام للوثنية بالشدة آخر الأمر ، وكيف طاردها الإسلام حتى قضى عليها في جزيرة العرب .

ثم يقول : لكننا نقرأ في الكتاب الخامس من الزبور أمراً بالتشدد في معاملة الوثنيين :

«إذا أدخلك ربك في أرض لتملكها ، وقد أباد أمماً كثيرة من قبلك ؛ فقاتلهم حتى تفنيهم عن آخرهم ، ولا تعطهم عهداً ، ولا تأخذنك عليهم شفقة أبداً !

كذلك أمر الله إسرائيل باستئصال سكان المداين التي اختص بها قومه ، ولم يرض بالشفقة إلا على المدن البعيدة ، التي لا تصل عدواها إليه . . . !»

وكتب القديس «أوغستان» إلى الكونت «بونيفاس» بشير عليه باستعمال القوة لردع أهل البدع وردهم إلى النصرانية .

وقد اعتبر المشفقين على الكيسة كالبغال التي تعض وترفس قومًا يعالجونها بما أصابها ، وهم مكرهون على تعذيبها ليتمكنوا من تضييد جراحها .

قال الكونت هنري : «ويحسن هنا أن نقابل بين تعاليم أبي بكر في حروب الردة ، وتعاليم الكتاب الخامس من الزبور فيما يتعلق بمعاملة الكلدانيين . . .»

قال : «إذا اقتربت من مدينة لتحاصرها فاعرض عليها الأمان .

فإن قبلته فقد سلم كل من فيها ، وإن أبت وباداتك بالعدوان فشدد الحصار عندها .

ومتى وقفك الله للظفر بها فاحطم رأس كل ذكر فيها بحد الحسام .»

\* \* \*

ولاحظ «الكونت» أن المسلمين فرقوا لأول يوم من قيام أمرهم بين عباد الأصنام وبين اليهود والنصارى ، ورسموا لكل منهما معاملة خاصة .

كما قرر أن الدولة الرومانية أساءت السيرة داخل حدودها وخارجها .

فكان المسلمون أجدر بسيادة العالم منها .

وقد أقر الأب «بروغلي» بعظمة محمد وفضل أصحابه وقال :

إنهم انضموا - بعواظهم - أول الأمر إلى عبدة الأصنام !  
فلما رأوا كفة الإسلام توشك أن ترجح ، انضموا بأسلحتهم إلى الجانب المناوئ  
للدين الجديد ، دين التوحيد والأخوة !!

وقد غير المسلمون موقفهم تبعاً لما طرأ على معسكر خصومهم من تغيرات .  
فقبل أن ينضم اليهود إلى جانب الوثنيين ، كان القرآن يوصي بالصفح عن أذاهم :  
﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ  
أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ  
شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾<sup>(١)</sup>

على حين يقول في السورة نفسها قاصداً عباد الأصنام :  
﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمُوهُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ  
وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ  
الْكَافِرِينَ﴾<sup>(٢)</sup>

فلما انحاز اليهود إلى المشركين في معركة الأحزاب وحاولوا معهم إسقاط المدينة  
وهي عاصمة الإسلام يومئذ ، قال الله عزوجل - واصفاً ما نشب بين المسلمين واليهود  
من عراك - :

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صِيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبَ  
فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾<sup>(٣)</sup>

اتسع نطاق القتال بعد ما تظاهر المشركون وأصحاب التوراة ضد الإسلام ثم زادت  
حدته بعدما تكاتف سكان الجزيرة كلها على حرب المسلمين .  
فنزل قوله تعالى :

﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾<sup>(٤)</sup>

\* \* \*

(٢) البقرة : ١٩١ .

(٤) التوبة : ٣٦ .

(١) البقرة : ١٠٩ .

(٣) الأحزاب : ٢٦ .



وتمَّ سبب آخر لانتشار الإسلام وامتداد سلطانه وإقبال الجماهير على اعتناقه ؛  
ذلكم هو استبداد الرومان الذى بلغ منتهى العسف .  
لقد وصل جور الحكام إلى درجة أزهقت النفوس .  
فلما جاء الإسلام تراموا إليه هرباً من الضرائب الفادحة واستلاب الأموال .  
فكلما أسلمت عشيرة رفعت عنها أنقال المغارم التى بليت بها وردَّ إليها حقها  
المسلوب .

وبذلك آمنوا فى ظل الدين الجديد ولم يتعرض أحد لعقائدهم .  
ولم يفرق الإسلام بين أصلى فى الكنيسة أو منشق عليها ، يعنى الكاثوليك  
والأرثوذكس .

وسمى هؤلاء جميعاً ذميين ، ومن الخطأ الفاحش استعمال لفظة «ذمى» فى  
معنى الخسة والهوان لأن معناها الحق «مؤمن . . .» .

ثم قال الكونت «هنرى دى كاسترى» :

«إن الدولة الإسلامية لما استقرت فى الشرق لم تعارض المسيحية أو تضع أمام بنيتها عائقاً .  
فظلت «روما» حرة فى مراسلاتها مع الأساقفة الخاضعين لحكم المسلمين .  
وفى سنة ١٠٥٣م . كتب «البابا ليون» التاسع إلى نصارى إفريقيا توصية باعتبار  
أسقف قرطاجنة مطراناً عاماً .

وكان الوثام مستحكماً بين المسلمين والنصارى .

حتى إن البابا «غريغوريوس» السابع كتب يلومهم على المحاكمة مع أسقفهم أمام  
المسلمين سنة ١٠٧٣م .

ومع التسامح المطلق الذى أبداه المسلمون مع النصرانية فقد ضعفت جداً حتى زالت  
من شمال إفريقية .

ولنذكر أن الإسلام لم يكن له موظفون مختصون بالدعوة إليه والتبشير بمبادئه .

ولو كان له أناس قائمون بهذه الوظيفة لسهل علينا تفسير امتداده وأنكماشها .

وبذلك استطاعت الأجناس الداخلة في الإسلام أن تجمع بين السیادتين العلمیة والسیاسیة .

\*\*\*

إنه منذ كون الإنجلیز «إمبراطوریتهم» ما تحول الحكم عن جنس معین ولا انتقل من عاصمة معینة .

أما الدولة التي أقامها الإسلام ، فما أكثر الأجناس التي امتلكتها !  
وما أكثر العواصم التي تنقلت فیها بین الشرق والغرب ! .

ذلك أن الإسلام - كالعالم - لا وطن له ، وليس له مستقر یأرز إليه إلا القلب الإنسانی الکریم .

بل نستطیع القول بأن عدالة الإسلام المطلقة فی المساواة بین الأجناس ومحق الفوارق الخاصة ، قد استغلت ضده استغلالاً قبیحاً .

فقد تطلعت إلى حکم المسلمین جمیعاً عناصر من الأتراك والأعجام واهیة الصلة بالعروبة ، مع أن الرسوخ فی لغة العرب ضرورة لا بد منها لفهم الدین قبل الحكم به .

ومن ثم قامت دول إسلامیة قوية من الأتراك ، لم تحسن سیاسة رعاياها ، ولا سیاسة الأجناب عنها ، فألحقت بالدين وأهله أضراراً فادحة .

أفتیری أن العرب يتحولون إلى رعیة فی میدان العلم ، ثم إلى رعیة فی میدان الحكم ، لو أن أسلوبهم فی أيام الفتح كان قائماً علی إهانة الأمم المغلوبة ، ووضع أبنائها فی مراكز دینیة ؟

إن العرب الأوائل أدوا رسالتهم علی نحو لم يعرف التاريخ - ولن يعرف - مثیلاً له فی نزاهته وترفعه .

وإذا ذكر الصحابة الأمجاد الذين حرروا الأمم من إسار «كسرى» و «قیصر» ، فلنذكر رجالاً آثروا الموت علی الحياة ، وآثروا ما عند الله علی متاع الدنيا .

إنها فطر من طراز لا تعرفه دنیانا الغاصبة بالمطامع والأهواء ، ولا یستطیع أن یفقه سموها كتاب ملوثون وباحثون مغرضون .

ونحن لا بفنى عجبنا من سفاهة الأمويين فى هذا المسلك ، قبح الله صنيعهم !  
كيف يصدون عن الإسلام من تشرح صدورهم به حرصاً على دريهمات ينفقونها فى  
منذاتهم ؟

إن هذا إن دل على شىء فعلى مبلغ ما عانى هذا الدين الكريم من سفالة ملوكه  
الأولين وحكامه المستبدين ..

ثم تحدث الكونت عن الحكم الإسلامى فى الأندلس ، فأبان تسامح المسلمين  
العظيم مع الأسبان ، وكيف حاسنهم حتى صاروا فى ظلهم هنا عيشاً مما كانوا عليه  
أيام خضوعهم لحكامهم انقضاء من «الجرمان» .

يقول «دوزى» : إن الدولة الإسلامية أبقت السكان المسيحيين على دينهم وشرعهم  
وقضائهم ، وقلدوهم بعض الوظائف .

حتى أن أحدهم تولى قيادة الجيوش مثل «سيد» .

ونج عن هذه السياسة الرحيمة انحياز عقلاء الأسبان إلى المسلمين ، وحصل  
بينهم تزواج كثير ، واندماج ظاهر .

فكان القسس يلومون النصارى على هذا الانعطاف ويحضونهم على العودة إلى  
أحضان الكنيسة ..

ولما وقع الاضطهاد الأوروبى على اليهود ، وفر هؤلاء المتكوبون إلى الأندلس ، وجدوا  
فى رحابها الأمان والسعة !! .

لكن الملك «كارلوس» لما دخل «سراقسطة» أمر جنوده بهدم جميع معابد اليهود  
ومساجد المسلمين .. !!

ونحن نعلم أن النصارى ما دخلوا بلداً فى إبان الحروب الصليبية إلا أعملوا السيف  
فى يهودها ومسلميها على سواء .. !!

وإذا كان الجنس اليهودى قد بقى فى العالم إلى الآن فإن مرد ذلك إلى قيام الدولة  
الإسلامية فى العصور الوسطى .

ولو بقى النصارى يملكون السيطرة على العالم لقضوا على اليهود قضاء مبرماً ...

وفرحة المسلمين بالداخل في دينهم تتوارثها العصور إلى يوم الناس هذا .  
والمسلم الذي يوفق إلى هداية امرئ حيران ، ويستطيع شرح صدره بالإيمان ، يحس  
بأنه ادخر لنفسه من المثوبة عند الله ما يقر عينه ويشبع الغبطة في حياته كلها .  
وكيف لا ؟ وهو يستمع إلى قول النبي ﷺ : «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً  
خير لك من الدنيا وما فيها» .

لا جرم أن السلف الصالح خفوا إلى استقبال الأفواج الداخلة في دين الله .  
وعواطف الترحيب تهز جوانحهم .  
حتى إذا مضت الأيام على استقرارهم في الديانة التي أثروها ، أضحى السابق  
واللاحق شركاء ، متساوين في حمل مغارمها ومغانمها .

فإن يكن موضع الملاحظة من القبيل الذي أشار إليه الكاتب الصليبي أنفاً فإن  
المؤرخ المنصف لن يفوته أبداً تسجيل المزايا التي حصلت عليها الشعوب الداخلة في  
الإسلام على حساب العرب أنفسهم .

ذلك أن خلو الدين من تفضيل جنس على جنس ، وتسويته المطلقة بين من اعتنقه  
كافة ، سمح للفرس والروم والترك وسائر الموالى أن يزاحموا العرب بالمناكب في ميادين  
النشاط العلمي والأدبي والفني ، وأن ينتزعوا القياد منهم في هذه الآفاق الحرة .

فلم تمض خمسون سنة على ظهور الإسلام حتى كانت الكثرة الساحقة من فقهاء  
الأمصار الكبرى رجالاً من الأعاجم وغيرهم ، وصلوا إلى أماكن الصدارة دون أن يجدوا  
أمامهم عائقاً . .

واننا لنلقى نظرة على تاريخ الإسلام الطويل ، فنجد أن علوم الشريعة من تفسير  
وسنة وتشريع ، بل علوم اللغة العربية نفسها ، قد بلغت تمامها واعتلت قممها على  
أيدي رجال لا ينتمون للعروبة إلا بصلة التجنس .

ولولا الإسلام وما بثه في النفوس والجماعات من سماحة مشكورة ما حدث هذا  
قط .

والغريب أن طلاب التطهر ومحبي الاستشهاد من أجل النصرانية لم يجدوا بابا لإرضاء المسيح ونيل غفرانه إلا بهذه الطريقة البذيئة .

فقتل أحد عشر شخصا في شهرين بهذه الجريمة . .

مع أن القضاة كانوا يصمون أذانهم حتى لا يحكموا على أحد .

وظالما أوعزوا إلى الحجاب أن يمنعوا من الدخول أمثال أولئك السفهاء . .

وقد ندد عقلاء النصارى بهذا المسلك ، ورأوه انتحارا شائنا .

غير أن «أيلوغوا» ورفقائه من القساوسة الخاقدين على الإسلام حسبوا ذلك انتصارا لدعوتهم وتدعيما لكنيستهم ، ورموا مخالفيتهم بخيانة المسيحية ، وألحوا على رعاياهم بضرورة سب محمد ودينه ، حتى أشاعوا الهياج في كنائس الأندلس كلها . .

فاستولى القلق على حاشية الخليفة وطلب «عبد الرحمن» الثانى الاجتماع برؤساء القسس كى يستفتيهم فيما هو حاصل من أتباعهم؟

فسكتوا عما وقع فى الماضى ، وتعهدوا بالكف عن مثله فى المستقبل !!

ورأى الخليفة ألا يحضر أمام القاضى مسيحي فى مثل هذه الأحوال إلا إذا رفع أمره إليه ليبت فيه بنفسه رغبة منه فى حقن دماء المحبولين من أولئك النصارى المتعصبين .

ومع هذا النبيل الرائع فقد ظلت خواطر النصارى مهتاجة حتى سنة ٨٥٩ .

هذه هى فتنة «أيلوغوا» .

\* \* \*

إن الذين يدبرون الجريمة لا يعجزون عن تبريرها وعن تحميل الآخرين تبعتها ، وهذا ما فعله الراهب السقيم «أيلوغوا» إذ سمي الفترة التى وقعت فيها هذه الأحداث «عصر الاضطهاد فى قرطبة» (!) .

وتبعه فى هذه التسمية الوقحة بعض المؤرخين الصليبيين . .

وأحب من القارئ أن يلقى باله إلى هذه الحادثة وأمثالها .

ولا حرج من أن ننقل المحاوره كلها لما تضمنته من دلالات شتى :

«نادى جورج : ليخرج إلى خالد ، فخرج خالد حتى التقى به بين الصفيين .

فلما أمّن كلاهما صاحبه ، قال جورج : يا خالد ، أصدقني ولا تكذبني ، فإن أخرج

لا يكذب ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع المسترسل .

بالله هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكمه فلا تسله على قوم إلا

هزمتهم ؟

قال : لا !

قال : فيم سميت سيف الله ؟

قال : إن الله عز وجل بعث فينا نبيه ، فدعانا ، فنفرنا عنه ، ونأينا عنه جميعاً ، ثم

إن بعضنا صدقه وتابعه ، وبعضنا باعده وكذبه ! فكننت فيمن كذبه وباعده وقاتله .

ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به فتابعناه .

فقال : أنت سيف من سيوف الله سله الله على المشركين ودعنا لى بالنصر ،

فسميت سيف الله بذلك فأنا من أشد المسلمين على المشركين .

قال : صدقتنى .

ثم أعاد إليه جورج : يا خالد أخبرنى . . إلام تدعونى ؟

قال : إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، والإقرار بما جاء به من

عند الله .

قال : فمن لم يجيبكم ؟

قال : فالجزية ، ومنعهم - أى نحميمهم - من أعدائهم .

قال : فإن لم يعطها ؟

قال : تؤذنه بحرب ثم نقاتله .

قال : فما منزلة الذى يدخل فيكم ، ويجيبكم إلى هذا الأمر اليوم ؟

قال : منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا : شريفنا ووضيعنا ، وأولنا وآخرنا .

وحماقة هؤلاء المبشرين لا تقف عند حدٍّ ، ألم يدخل أحدهم الجامع الأزهر في العصر الأخير ليدعو فيه إلى النصرانية ؟

إن ذلك ينبئ عن مشاعر المقت التي طغت على عواطف أولئك الناس ؛ فأفقدتهم أترانهم ، وأركستهم في أعمال ينفر منها الصبية .  
لكن الحق لا عقل له ولا ضمير .

قال «ميشو» في تاريخ الحروب الصليبية :

« . . لما استولى «عمر بن الخطاب» على بيت المقدس لم يلحق النصارى ضرر ما ، فلما استعاده النصارى قتلوا المسلمين قتلاً ، وأحرقوا اليهود حرقاً !! »  
وقال الخبير «ميشو» أيضاً :

« . . بما يؤسف له جداً بالنسبة إلى المسيحيين أن تأتيهم المسألة وشرف المعاملة من المسلمين . . . »

قال الكونت هنري دي كاستري : «إن مبالغة المسلمين في الإحسان إلى خصومهم هي التي مهدت للثورة عليهم .

إذ أتاحت للمتعصبين أن يجمعوا أمرهم على العصيان ، وأن يستغلوا الفرص للقبض على الدولة التي منحتهم حق الحياة . . وحرية التدين .

ولو أن المسلمين عاملوا الأسبان مثل ما عامل المسيحيون الأمم الساكسونية لأخلدوا إلى الإسلام واستقروا عليه .

ثم قال الكونت المنصف :

«إن الإسلام لم ينتشر بالعنف والقوة كما يزعم المغرضون .

بل الأقرب إلى الصواب أن يقال : إن مسألة المسلمين ولين جانبهم كانا السبب في سقوط دولتهم .

\* \* \*

ياغوثاه! هل يبلغ الحقد بذويه حتى يتدلوا إلى هذا الدرك السحيق من الإسفاف؟  
من قال من مؤرخي الأولين والآخرين:

إن صحابة رسول الله ﷺ كانوا ينظرون إلى الأمم التي دخلت في الإسلام نظرة  
تنقص؟ أو أنهم كانوا يحلونهم في مراتب وضيعة؟

إن الأجناس التي دخلت في الإسلام لم تلقَ في وجهها أحداً يزعم أنه أولى منهم  
بالله أو أحق برسوله.

كانت الأجيال المتفاوتة تدخل فيه كما تدخل الجماهير المرحمة إلى حديقة عامة،  
لا حظر عليها ولا بواب، ولا يفخر فيها أحد على أحد بأى ادعاء.

ولقد قاتل الله للرعييل الأول من أصحاب محمد - محمداً لهم مسلكهم من  
المشركين المقاتلين -:

﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَتُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ  
يَعْلَمُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

ولم يجعل للقاتمين بأمر الدعوة إلى الله منزلة معينة يستحقون بها تسمية خاصة،  
بل زجهم في الغمار العام الذي يسوى بينهم وبين غيرهم تحت عنوان واحد:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

لا سيادة ولا تبعية، ولا مراكز أولية وأخرى ثانوية، إنه من المسلمين فحسب.

وقد جرت نصوص القرآن متراكضة تؤكد هذا المبدأ.

فهدد الله العرب في إبان نزول الوحي أنهم إن لم يستقيموا على سواء الصراط،  
وينهضوا بأعباء الرسالة التي وكلهم بها، سوف يحرمهم من أفضلها ويلقى إلى غيرهم  
بمقاليدها.

فإن الكل في ساحته سواء، لا يمتاز عنصر على عنصر إلا بمدى ووفائه لهذا  
الدين العام:

(٢) نصت: ٣٣.

(١) التوبة: ١١.



وعلم بالحادثة بعض الناس فأبلغوها إلى «ابن طولون» .

فأحضر القائد والحاجب والراهب .

ثم قال للراهب : كان سبيلك - ويلك - أن تدعى عليه - أى على القائد - بثلاثة آلاف دينار ، حتى أخذها لك منه ، وأجعل ذلك تأديباً له ولغيره .

ثم قال للحاجب : والله لولا أنها مكرمة سارعت إليها ، وجميل رغبت فيه ، وقد قال الله عز وجل :

﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾<sup>(١)</sup> لعمرت بك المطبق «سجن ابن طولون» .

ولكن احذر أن تعاود مثلها ، ولا تستبدن بأمر تأتيه دون أن تعرفنا به ، ولا تطوِّعنا خيراً ولا سراً ولا قصة ترفع .

فقال له الحاجب : أفلنى أيها الأمير أقالك الله ، فوالله لا أعود لمثلها أبداً .

قال : فانصرف إلى موضعك !

ثم التفت «ابن طولون» إلى القائد وقال له : أفى رزقك تقصير عن مؤنتك ؟

قال : لا .

قال : فأخر عنك استحقاقك تأخيراً يضطرك إلى ما أتيته ؟

قال : لا . قال : فبأى حال استحللت أن تأخذ من هذا البائس الضعيف ما تقطع به

قلبه ، وتبكي عينه ، وتفقره وأهله ؟

ألك حاجة أوجبت ذلك عليك ، أو ضرورة دعتك إليه ؟ . . المطبق !

وأمر بسجنه !

وهكذا حبس القائد الكبير فى قبطى مظلوم !

\* \* \*

ومن قرون فقد المسلمون سبقهم الأدبى والمادى فقداناً أزرى بأعتهم الكبرى وألحق

بهم هزائم شنيعة .

(١) الرحمن : ٦٠ .

## الإسلام وحرب الأجناس :

لم يعرف الإسلام حرب الأجناس ، ولا ينبغي أن تتسبب هذه الحروب الداعرة لئدين ما .  
فإن الله لم يفضل لوناً على لون ، ولم يؤثر بكرامته جنساً دون جنس .  
وما يزعمه الأقوياء لأنفسهم من ميزات هو ادعاء يسنده الناب والظفر ، لا الحق والبرهان .  
وقد استطاع العرب - برحمة الله وتأيينه - أن يهيمنوا على العالم كله ، وأن يكونوا  
الدولة الأولى فيه .

وربما جاء من أعقابهم من افتخر بدمه أو اعتز بعنصره - وهو في ذلك دعوى مغرور - .  
ولكن الإسلام نفسه ورجاله الأولين كانوا أبعد أهل الأرض عن اقتراف هذا المنكر .  
بل قد رأينا كسرى «يزدجرد» يقول لوفد العرب :

إني لا أعلم أمة في الأرض كانت أشقى ، ولا أقل عدداً ، ولا أسوأ ذات بين منكم . .  
فما يجيبه أحد منهم بكلمة ينوه فيها بالدم العربي ، ويرد اتهامات العاهل الفارسي .  
واتما كان كلام «قيس بن زرارة» له :

أما ما ذكرت من سوء الحال ، فكما وصفت أو أشد .  
ثم إن الإسلام هو الذي رفع شأن العرب وأعز جانبهم .

\* \* \*

لذلك أخذتنا دهشة بالغة عندما تحدث الكاتب الصليبي في ص ٢٦ عن التفوق  
العنصري عند العرب .

وقد نقل تحت هذا العنوان جملة مفتريات يجزم السذج بافتعالها ! قال :

«إن الإقامة في شبه جزيرة العرب ، والتفوه باللغة العربية لم يكونا كافيين  
لاعتبار القاطنين فيها عرباً إذا كانوا من المهاجرين ، حتى لو كانت هجرتهم ترجع  
إلى عدة قرون .

إنهم يعبدون الله تعبدًا ذهنيًا ، وليس لدينهم من علامات أو وسائل خارج النفس .  
وهم يرون في احتفالات النصارى ضربًا من الوثنية .  
وهم - وإن سموا أرباب الإنجيل أهل كتاب - لا يجعلونهم في الرتبة التي تلي  
المسلمين .

بل ربما مقتوهم لأنهم غيروا ما أنزل الله عليهم من الدين !!» .  
ونحن ننبه مرة أخرى إلى أن الكاتب مسيحي فرنسي ، وأنه يقول هذا في صدد  
التحدث عما تعانيه فرنسا من صعوبة في تنصير الجزائريين .  
ولعلك تفهم بعدئذ بقية كلامه حين يقول :

.. إن أعظم عامل في انتشار الإسلام - خصوصًا بين الزنوج - هو بساطة مذهبه  
وسداجة تعاليمه ، كما يبدو ذلك جليًا في آيات القرآن .

فهو أكثر ملاءمة لطبائع الهمج الذين لم يعرفوا دينًا من قبل «كذا» .  
وكلما وجد الرجل الجاهل دينين متحدين في تقريرهما لوحدانية الله وخلود الروح ،  
كالإسلام والنصرانية تراه يختار الدين الذي لا يزيد شيئًا عن هاتين الحقيقتين ،  
فيعتنق الإسلام لا محالة .

وهذه مزية يفضل بها الإسلام غيره في حسن التلقى وسرعة الانتشار ، وهي مزية  
عرفت من القرن السابع عشر .

قال القس «ماراشي» في كتابه «الرد على القرآن» :

«... ولا يفهم عن ذهن الفارئ أن هذه الطائفة الشريرة ، أو المخرفة ، أو ما تشاء  
لها من أسماء - يعنى المسلمين - لا تزال حافظة لكل ما فى النصرانية من أمور ظاهرة  
الوضوح قريبة التصديق ، يضاف إليها ما يوافق نظام الكون وقانون تشأة الدنيا .

وقد أبعد الإسلام عنه أحاجى الإنجيل التى نخالها أول الأمر غير صحيحة ،  
أو بعيدة عن المعقول ، كما أنه جرد تعاليمه من كل قاعدة يشد بها الخناق على البشر .

وبذلك أزاح من طريقه العقبتين اللتين يحس الواحد منا بأنهما الحاجز بينه  
وبين الدين الحق «يعنى النصرانية» .

ندعوكم إلى ديننا ، وهو دين حسن الحسن ، وقبَّح القبيح كله .

وقد تسأل : فما هذه الجزية التي طلبها الفاتحون ؟

أهي ثمن منحهم حريتهم الدينية ؟

نقول : إنها ليست ثمن شيء من ذلك!

ولو أن ألوفا مؤلفة من البشر تمت أن تدفع هذا الثمن للمسيحية الخاكمة في روما  
والقسطنطينية وتظفر - بعد دفعه - بحريتها الدينية .

ولكن رجال الكنيسة رفضوا ، فإما الموت ، وإما الدخول في المسيحية .

إن الكنيسة لم تخير اليهود والوثنيين في أنحاء العالم إلا بين شيئين ، فإما التنصر  
وإما الغناء .

بل إن المذاهب المسيحية المتناحرة لم تعرف هذا التخيير في علاقاتها فوقعت المذابح  
البشعة بين الأشياع المتعصبين .

وكم كانت الأقليات الدينية في الشرق والغرب تتمنى لو ظفرت بالأمان على  
أموالها ودمائها لقاء دريهمات تدفعها .

ومع ذلك عز عليها هذا الأمل البعيد .

أما الإسلام فقد أوضح - على لسان مثليه من القادة الفاتحين - أن هذه الجزية في  
مقابل دفاع المسلمين أنفسهم عن الأمم التي دخلت في ذمتهم .

وذلك معنى قول «النعمان» لكسرى : «إن بذلتكم الجزاء قبلنا منكم ومنعناكم» .

ومن الظلم أن يتولى المسلمون وحدهم نفقات جيش يقوم بالدفاع عنهم وعن  
غيرهم .

وقد تقول : فلم لا يترك المسلمون هؤلاء يعدون من القوة ما يشتغلون به في حماية  
أنفسهم ؟

اسندونى بأقراص الزبيب ، أنعشونى بالفتح فإنى مريضة حباً .

شماله تحت رأسى وبينه تعانقنى .

أحلفكن يا بنات أورشليم بالظباء ، وبأبائل الحقول ألا تيقظن ولا تنبهن الحبيب

حتى يشاء .

هو ذا واقف وراء حائطنا يتطلع من الكوى ، بوصول من الشبابيك .

أجاب حبيبي وقال لى : قومى يا حبيبتى ، يا جميلتى وتعالى .

فى الليل على فراشى طلبت من تحبه نفسى ، طلبته فما وجدته إنى أقوم

وأطوف فى المدينة فى الأسواق وفى الشوارع أطلب من تحبه نفسى .

طلبته فما وجدته وجدنى الحرس الطائف فى المدينة فقلت : أرايتم من تحبه

نفسى ؟

فما جاوزتهم إلا قليلاً حتى وجدت من تحبه نفسى فأمسكته ولم أرخه حتى

أدخلته بيت أمى وحجرة من حبلت بهى . أحلفكن يا بنات أورشليم بالظباء ،

وبأبائل الحقول ألا تيقظن ولا تنبهن الحبيب حتى يشاء .

ها أنت جميلة يا حبيبتى عيناك حمامتان من تحت نقابك . . شفتاك كسلكة من

القرمز . وفمك حلو . خدك كفلقة رمانة تحت نقابك . ثدياك كحشفة ظبية . كلك

جميل يا حبيبتى ليس فيك عيب . هلمى معى من لبنان يا عروس معى من لبنان .

قد سلبت قلبى يا أختى العروس كم محبتك أطيب من الخمر . وكم رائحة

أدهانك أطيب من كل الأطياب . شفتاك يا عروس تقطران شهداً .

تحت لسانك عسل ولبن ورائحة ثيابك كرائحة لبنان . ليأت حبيبي إلى جنته

ويأكل ثمرة النقيس .

كلوا أيها الأصحاب واشربوا ، واسكروا أيها الأحياء ، أنا نائمة وقلبي

متيقظ وصوت حبيبي قارعاً . افتحى يا أختى يا حبيبتى يا حمامتى .

وقد خلعت ثوبى فكيف ألبسه وقد غسلت رجلى فكيف أوسخهما . حبيبي مد

يده من الكوة فأنت عليه أحشائى .

حبيبي أبيض وأحمر . . قصصه مسترسلة حالكة كالغراب . . خداه كخميلة

والتزموا في كفاحهم - ملوك الدولتين الباطشتين بالعالم يومئذ - حدوداً من الحق  
والعفة والاستقامة لا تعرف أبداً إلا في موارث النبوات النابعة من السماء .

وكان المسلمون في هذه المعارك جميعاً أقل من أعدائهم عدداً وعدة .

بيد أن إيمانهم الدافق وحماسهم البالغ وسباقهم الفذ إلى موارد المنايا ، يطلبون  
الاستشهاد ويفرحون بنيله أشد مما يفرحون بالعودة إلى الوطن والأهل .

ذلك كله صنع المعجزة التي لم يعرف تاريخ الأرض مثيلاً لها .

ألم يعجز «الروم» أن يهزموا «الفرس» في قرون طوال مع بسطة الماء والرجال؟

ولكن «الروم» و «الفرس» جميعاً هزموا في سنين معدودات أمام القبائل التي وحد  
الإسلام صفوفها وغرس الحق في أفئدتها . .

ذلك أن الأمر كما قال العربي لرستم : إنك لا تجادل الإنس ، وإنما تجادل القدر .

والقضاء النازل لا يدفعه الخلق ، مجتمعين ولا مفترقين .

وانتشار الإسلام في الأرض وانهدام معاقل الطغيان أمام مده العريض يتمشى مع  
سنن التطور التي تفسح الطريق لنظام حسن بعد أن تخليه من نظام سيئ .

وقد ألمح «رستم» إلى هذه الحقيقة وهو يقول للفسقة من ولاة الفرس - لما اعتدوا  
على الجمهور : والله إن العرب مع هؤلاء - وهم لهم حرب - أحسن سيرة منكم .

والواقع أن أسلافنا من المسلمين الضاحين لم يرثوا الأرض إلا وهم لقيادتها أهل ،  
وكانت مصلحة العالم أجمع ، في انتقال هذا القياد إلى أيديهم اللبقة ، بعدما لعبت به  
الروم والفرس .

ولن يعود هذا الزمام الضائع إلى أيديهم إلا يوم يكونون أرجح في موازين الصلاحية  
العامّة من غيرهم ، مصداق قول الله في كتابه :

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾<sup>(١)</sup> .

(١) الأبياء : ١٠٥ .

ولكن لماذا نعترض ؟

إن المسئمين أغبياء لأنهم لم يرتفعوا إلى المستوى الذى يفهمون فيه كيف أن الثلاثة واحد .

وهم أغبياء . كذلك . لأنهم لا يريدون أن يفهموا كيف يقتل امرؤ بخطايا آخرين .  
وهم أشد غباوة لأنهم لا يفهمون من الآيات السابقة فى نشيد سليمان أنها دعوة إلى الأدب العالى وتهذيب للشهوة الحيوانية الطاغية . !!

لست أشك فى أن الألوف المؤلفة من المسيحيين لم يقرأوا هذه «الآيات» الملتاعة !!  
إنهم وزتوا الدين كما يرث المرء لقب أسرته .

فهو يتعصب له لأنه لقب أسرته فحسب .

ومن يدري ؟ ربما كنا كذلك لو لم نستمع إلى القرآن الكريم ونتعرف الحق من نصوصه التى لا يرقى إليها شك .

ومن خلال الوحي الخكم الذى نتلوه ونتدبره عرفنا أن الله واحد .

وأن كل امرئ رهين بما كسب .

وأن الرسل جميعاً متفقون على تعليم البشر هذه الحقائق السهلة .

وأن هؤلاء المرسلين كانوا معلمين أخباراً ، وكانوا جميعاً على طراز عال من الخلق الزكى والمسلك الطهور . .

وعرفنا أيضاً من قرأنا أن النصرانية الأصيلة لم تخرج قط عن هذا النطاق الواضح ، وكذلك اليهودية .

لكن طوائف الفساد التى غلبت على تراث موسى وعيسى أتاحت للوثنية الأولى أن تفرض نفسها على تعاليم الديانتين .

وأبرز مظاهر الوثنية ، هو تعدد الآلهة ، وتقديم قربان كفارة الخطايا ، واسقاط كرامة الأنبياء جميعاً حتى لا تكون بهم أسوة حسنة .

وقد جعل دور عيسى بن مريم مشتركاً فى هذه النواحي كلها .

فهو إله مع الله ، وهو قربان تكفر به الذنوب .

فقام قيس بن زرارة فقال :

أما ما ذكرت من سوء الحال فكما وصفت أو أشد .

ثم ذكر من عيش العرب ورحمة الله بهم بإرسال النبي مثل مقالة «النعمان» . .

ثم قال : - اختر ، إما الجزية عن يد وأنت صاغر ، أو السيف ، وإلا فنج نفسك بالإسلام .

فقال «يزدجرد» : لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم ، لا شئ لكم عندي .

ثم استدعى بوقر من تراب ، وقال لقومه احملوه على أشرف هؤلاء ، ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن .

فقام «عاصم بن عمرو» وقال : أنا أشرفهم ! وأخذ التراب فحملة وخرج إلى راحلته فركبها ، ولما وصل إلى «سعد» قال له : أبشر ، فوالله لقد أعطانا الله مقاليد ملكهم ! .

ثم إن «رستم» خرج بجيشه الهائل مائة ألف أو يزيدون من «ساباط» .

فلما مر على «كوثي» لقيه رجل من العرب ، فقال له «رستم» :

ما جاء بكم ؟ وماذا تطلبون منا؟

قال العربي : جئنا نطلب موعود الله بملك أرضكم وأبنائكم إن أبيتم أن تسلموا .

قال رستم : فإن قتلتم قبل ذلك ؟

قال : من قتل منا دخل الجنة ، ومن بقى أنجزه الله وعده ! فنحن على يقين .

قال «رستم» : قد وضعنا إذن في أيديكم ! .

قال العربي : أعمالكم وضعتكم ، فأسلمكم الله بها ، فلا يغرنك ما ترى حولك فإنك لست تجادل الإنس وإنما تجادل القدر .

فغضب منه «رستم» وقتله .

فلما مر بجيشه على «البرس» غضبوا أبناء أهله وأموالهم وشربوا الخمر ، ووقعوا على النساء .

فشكا أهل «البرس» إلى «رستم» فقال لقومه :

والله لقد صدق العربي ! والله ما أسلمنا إلا أعمالنا ، والله إن العرب مع هؤلاء

- وهم لهم حرب - أحسن سيرة منكم . . .

\* \* \*



وليس أدنى على ذلك من أن بطريك المارون «أنطون عريضة» ، والمطران «غناطيوس مبارك» كانا حربنا على الجامعة العربية لتوهمهما أنها مقدمة جامعة إسلامية ! وكانا عونًا على عرب فلسطين مع اليهود لأنه حبيب إلى قلوبهم أن يكون اليهود مواطنين ، وأن يكون المسلمون مشردين !

وذلك شكر اليد التي قدمها الإسلام في العصور الوسطى يوم كان قادرًا على إفناء هذه الطوائف ثم تنزه على الإساءة إليها ، أو سلبها حرية عبادتها .  
لأنه لا إكراه في الدين !

\* \* \*

لقد شعر الدعاة إلى التصرانية أن إدخال المسلمين في ديانتهم مستحيل .  
فماذا يصنعون لهدم الإسلام الذي يعقونه أشد المقت؟  
قرروا أن يفسدوا أبناءه بتسليط الشهوات عليهم وإشاعة الإلحاد الأعمى بينهم .  
سئل رئيس مدرسة تبشيرية في فلسطين : كم نصرت من أبناء المسلمين ؟  
فكتب إلى ساداته الذين أرسلوه ، لا تسألوني : كم مسلمًا نصرت؟ ولكن سلوني :  
كم معولاً صنعت من هؤلاء الأبناء لهدم الإسلام نفسه؟!!!  
ومناهج الدراسة التي تخرج اليوم أبناء الإسلام مفروض فيها أن تقطع صلتهم  
بدينهم فلا يتعلمون منه حكمًا ولا يتربون منه على فضيلة .  
وبنك تشب الأجيال الجديدة غريبة عن الإسلام بل عدوًا لتقاليد وشرائعه .  
فإذا كانت هذه الناشئة المقطوعة عن دينها هي التي تلى الوظائف الصغرى ،  
والمناصب الكبرى فلن ينتظر منها إلا أن تصنع بدورها الموروث مثل أو أشد مما يصنعه به  
خصومه المناقمون عليه .

وذلك ما يثلج صدور الصليبيين في حملتهم الحديثة على الإسلام .

إن الحضارة المادية الأخيرة تهاجم مبدأ الإيمان بالله واليوم الآخر .

وأما «المغيرة» فقد أوغر صدور العامة على كبرائها . وقال :  
«إنا - معشر العرب - لا يستعبد بعضنا بعضاً» .

ثم رماهم بهذه الكلمة الخطيرة :

«ظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسي» !

فلما وثب إلى جوار القائد المستعلى على سريرته ، كانت وثبته تلك إيماءة ذكية إلى أن الإسلام يرفع المستضعفين إلى مصاف السادة .

وسواء أكان توافق المفاوضين العرب في آرائهم عفواً أو عمدًا ، فهو بيان حاسم عن طبيعة المبادئ التي يحملها الفاتحون . . .

أى عار في هذه المبادئ ؟

إنها - والله - لو لم تكن دينًا لكانت في حياة الأمة نظامًا حسنًا .

فماذا ينقم الكاتب الصليبي على هذه الفتوح ؟

إنه يزعم في ص ٢٢ أن أسباب الفتح الإسلامي لم تكن دينية فحسب ، بعد أن يزعم أن الجذب والبحث عن القوت هما اللذان اضطرا العرب للغارة على الأمم المجاورة ! .

لئن كان جوع العرب هو الذى حملهم على التطواف فى الأرض بهذه المبادئ الرائعة فإنه جوع يفضل شيع البيطونيين من رجال الكهنوت الذين مهدوا للإلحاد فى العالم كله بتحجر عواطفهم وسقم أفكارهم .

أم إنه الخقد الذى يغشى على البصائر والأبصار؟ :

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ

وَأَنْ أَكْتَرِكُمْ فَاسِقُونَ﴾ (١)

\* \* \*

وهذه محاورة أخرى بين «كسرى» نفسه وبين وفد آخر من مفاوضى العرب سبقت المحاورة الأولى .

فقد أرسل «سعد» دعاة إلى «يزدجرد» منهم «النعمان بن مقرن» و«قيس بن زرارة» و«الأشعث بن قيس» و«فرات بن حبان» . . الخ .

فلما وصلوا المدائن أدخلوا على «يزدجرد» فسألهم بواسطة ترجمانه :

(١) المائدة : ٥٩ .

إذ الكنيسة تعلم أنه في سوق التنافس الحُر بين الأفكار والأديان لن تلقى بضاعتها رواجًا .

فهى تلجأ إلى وسائل الدس أو العنف لتطرد السلع الأخرى من السوق ، وتمنعها من التداول .

المهم أن الحضارة المادية الحاكمة في الغرب والكنيسة المسيحية المحكومة هناك قد اتفقت مصالحهما في القضاء على الإسلام وإخلام حاضره ومستقبله .

وأنتهما رأتا الطريقة المثلى لتحقيق مآربهما هى إفساد التعليم بأقضاء الدين عنه .  
وبذلك يتخرج الوزير الكبير والضابط الكبير والطبيب الكبير والمهندس الكبير . . . إلخ .

وكل أحد منهم لا يفهم من دينه حرفًا ، بل لعله يعرف عن دينه ما يزهده فيه .  
وبذلك يتم الارتداد عن الإسلام فى صمت وأمان . . . !!!

ويصل الصليبيون الجدد إلى ما عجز أجدادهم عن الاقتراب منه فى العصور الوسطى بعد حرب دامت أجيالاً !!

وقد شعر المسلمون المخلصون بخطورة المصير المرسوم لدينهم ، فهبوا يصرخون محذرين من عواقبه حتى بحت أصواتهم وليس من مجيب !!

وأخر ما قرأناه فى ذلك نداء وجهته جبهة علماء الأزهر إلى رئيس مجلس الوزراء قالت فيه :

«إن الشعب المصرى من أقوم الشعوب علمًا بشريعة الإسلام ، وتمسكًا بأحكامه وأدابه ، وحفظًا لكتابه وسنته .

وكان لتعليم الدين المكان الأول فى مدارسه .

لأنه عرف أن طلب العلم الدينى فريضة على كل مسلم ومسلمة .

وبهذا حافظ المصريون على شعائره وتقاليده وأقاموا أحكامه وحدوده ، فعزوا وترعموا غيرهم من الأمم .

فقال رستم : ويلكم ، إنما أنظر إلى الرأى والكلام والسيره ، والعرب تستخف الثياب  
وتصون الأحساب .

فلما كان اليوم الثانى من نزول «رستم» ، أرسل إلى «سعد» أن ابعث إلينا هذا الرجل !  
فأرسل إليه «حذيفة بن محصن الغطفانى» ! فلم يختلف عن «ربعى» فى العمل  
والإجابة .

فقال له رستم : ما قعد بالأول عنا ؟

قال : «أميرنا يعدل بيننا فى الشدة والرخاء ، وهذه نوبتى» .

فقال له رستم : والمواعدة إلى متى ؟

قال : إلى ثلاث من أمس !!

وفى اليوم الثالث . أرسل إلى «سعد» : أن ابعث إلينا رجلاً . فأرسل إليه  
«المغيرة بن شعبه» فتوجه إليه ، ولما كان بحضرته جلس معه على سريره .

فأقبلت إليه الأعوان يجذبونه ، فقال لهم :

«قد كانت تبلغنا عنكم الأحلام ، ولا أرى قومًا أسفه منكم .

إنا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضًا ! . . إلا أن يكون محاربًا لصاحبه .  
فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى . .

وكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض !! وأن هذا الأمر  
لا يستقيم فيكم .

وإنى لم أتكم ، ولكنكم دعوتونى ، اليوم علمت أنكم مغلوبون .

وأن ملكًا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول .

فقال السوقة : صدق والله العربى ! .

وقالت الدهاقين - الزعماء - لقد رمى بكلام لا تزال عبيدنا تنزع إليه ، قاتل الله  
سابقينا حيث كانوا يصغرون أمر هذه الأمة .

ثم تكلم «رستم» بكلام عظيم فيه شأن الفرس وصغر شأن العرب ، وذكر ما كانوا  
عليه من سوء الخلق وضيق العيش .

فقال المغيرة : أما الذى وصفتنا به من سوء الخلق ، والضيق والاختلاف ، فنعرفه

فيجب أن تكون أداة تصوغ لمصر جيلاً جديداً يعرف حقوق ربه ، وحقوق  
الناس .

يميز الخبيث من الطيب ، والحلال من الحرام ، يتذوق طعم الحياة الكريمة المحافظة ،  
فيؤثر التمسك بها .

وذلك لا يوجد إلا في تعاليم الدين .

فالضمان لا يوقظها ولا يهذبها إلا خوف الله .

ومن المفارقات الغربية أن نقص نصف درجة في الموسيقى أو الرسم يرسب به  
الطالب ، وأن جهله بالدين كله لا يضره شيئاً .

إن ذلك جعلنا نجنى أمر الثمرات ، ونشاهد في ناشئتنا مظاهر التمرد  
والاستخفاف بكل فضيلة ، والخروج على كل معنى كريم .<sup>(١)</sup>



لكن هذه الشناعات التي يجأر العلماء من فشوها ، هي بعض ما تجتهد أوروبا  
الصليبية لإشاعته بيننا ، إن الفساد الذي عرا الأخلاق ، والتصدع الذي أصاب  
الجماعات خير في نظر رجال الكنيسة من إشراف الإسلام على التوجيه العام لسياسة  
التعليم والتنظيم !! .

وإنك لتدرك حقيقة الشعور الكنسى نحو الإسلام من القصة التالية :

من عشرين عاماً وفد قسيس مسيحي إلى القدس كيما يشتغل بالدعاية إلى  
النصرانية ، وبدأ هذا القسيس - واسمه «ألفريد نيلسون» - يرسل نقرأ من المفكرين  
المسلمين ، يناقشهم في بعض حقائق الدين ! ويوزع عليهم نشرات تتضمن أفكاره !  
وقد فند العلماء الذين عنوا به جميع ما أورد من شبهات .

والحق أن الرجل كان محامياً مخلصاً في الدفاع عن ديانتته ، وما أزرى به أمام  
مجادليه إلا موضوع قضيته .

(١) يلاحظ في بيان الأيهر أن سياسة التعليم تعتمد - ومازالت - تجيب دراسة الدين دراسة جادة . فمما زال  
الدين بعيداً عن المجموع ، وحذفت منه المعلومات التي ترمى الأجيال وضمحت دراسة اللغة العربية على  
حساب مواد أخرى . . وقد كان للنتيج صولات في انتنيد بهذه السياسة . انظر محمد الغزالي «الحق المرءى -  
الجزء الرابع والخامس صبعة دار نهضة مصر .

فإن المسلمين أذنوا للمجوس بالبقاء على دينهم ، ولم يحاولوا استكراهم على إيمان .  
أفهدا ما صنعه المسيحيون الضافرون بالوثنية وأهلها ؟ كلا !  
لقد أعلنوا عليهم حرب فناء في أرجاء ملكهم حتى استأصلوهم ، فلما دارت رحى  
الحرب بينهم وبين الفرس عجزوا - بعد مئات السنين - عن النتيجة الموفقة الرائعة التي  
وصلت إليها جيوش الإسلام في بضع سنين .  
بل سترى في سير الفتح أن المسيحيين قد انضموا إلى الوثنيين في مقاتلة الإسلام  
والنيل منه !

وإنه لأمر عجاب أن يتحالف المشركون وأتباع « الإنجيل » على مقاتلة الدين الذي  
يدعو إلى عبادة الله الواحد القهار .

ولكنه الحقد الأعمى ، ونسيان المسيحية لأصلها السماوى ونزعها الطارئة إلى  
جعل الألوهية شركة ، مما سول لأشباعها أن يشبعوا ضغينتهم على مبدأ التوحيد ، ولو  
حالقوا الشيطان في سبيل القضاء عليه ، وبأبى الله إلا أن يتم نوره .

ولعل من بقايا هذه السخيمة المتقدمة أن يجيء هذا المؤلف المسيحي فيرد انسياب  
الجيوش الفاتحة إلى أسباب اقتصادية قائلاً :

« إن الحاجة تبرر كل عمل عدائى ، وإن العرب كثيراً ما قاموا بأعمال عدوانية  
بحسب عن القوت . . . » ص ٢٢ .

ثم ينقل زعمًا لباحث في علم الجغرافيا يقول :

« إن مناخ الجزيرة أصيب بجفاف فى القرن السابع مما دفع العرب إلى الهجرة  
منها ومهاجمة البلدان التى تناخمتها » .

ونحن لا نقف عند هذا اللغو ، ولكن قبل أن ندوسه وننتهى من سحقه نحب أن  
نتقل حوارًا جليلاً دار بين نفر من فرسان المسلمين وبين قواد كسرى وحاشيته ليرى  
أولو الألباب مبلغ فقه الصحابة الفاتحين لدينهم ، ومعرفتهم العميقة لأحوال الشعوب  
التي قدموا عليها ، وأنواع الحكم التي قرروا إسقاطها .

وليروا كذلك : بأى ضمائر نقية وأسلحة عفيفة كان حملة الإسلام يلقون خصومهم  
بها .

قال القسيس : « . . . لأن أهم نقطة في الدين عمل المسيح للناس كالوسيط بينهم وبين الله تعالى ، حتى يؤكد لهم مغفرة خطاياهم ويدخلهم في حالة أولاد الله ! فيبعدنا عن سلطة الجرب ! ويقوينا حياة صالحة !

ومع احترام المسلمين للمسيح فإنهم لا يجدون فيه شيئاً من ذلك .

إن اعتقادهم في المسيح أعلى جداً من عقائد الأمم الأخرى ، ولكن لا نقدر إلا أن نبشرهم بتلك البشارة . . . » .

وكلام هذا المبشر المسكين يشير إلى أن إيمان المسلمين بالله الأحد ويقينهم في يوم الحساب لا قيمة له ، لماذا ؟

لأن الشيء الأول والأخير في الدين أن تعتقد بأن « عيسى » قتل فداء لخطاياك وخطايا آبائك وأبنائك « كذا » .

فإذا قلت أيها المسلم : إن ثوابي أو عقابي ليس إلا نتيجة عادلة لخطئي أو صوابي ، ولا مدخل لأحد أبداً في حسابي .

قال لك هذا المبشر المسكين : إنك كفرت وطردت ، ولا قيمة لإيمانك بالله وإجلالك عيسى بن مريم . . .

ولما كان الإيمان بالله واليوم الآخر هو التراث الباقي لدى النصرانية من وحى السماء ، وكانت فكرة القربان فداء الخطيئة هي العنصر الدخيل من الوثنية الأرضية كان معنى ذلك ، أن مسلك المبشرين النصارى يقوم على تحقير الصلة الوحيدة التي تربطهم بالسماء ، وتضخيم الخرافة الكبيرة التي تصفهم بالأرض .

ولو كان لدى هؤلاء القساوسة نصيب من سداد ، لجعلوا الإيمان بالله ركناً قائماً لا مسألة نافهة ، وجعلوا الصليب ناقلة ثانوية لا دعامة خطيرة !!

ولكن حظ الشيطان غلب .

ولا أدل على غلبة حظ الشيطان من أن الكنيسة رتبت أعداءها الألداء ، فكان الإسلام أول أولئك الأعداء .

في سبيل القضاء عليه ، حالفت الخوسية ولو كانت كفرًا بالله .

وفي سبيل القضاء عليه ، حالفت اليهودية ولو كانت تحقيراً لعيسى .

كما أن جماهير غفيرة من اليهود والنصارى رأيت في هذا الدين الكريم الأصول الصحيحة لليهودية والنصرانية ، فأمنت بمحمد وعيسى وموسى جميعاً ، واعتنقوا الإسلام عن رغبة واعزاز .

إلا أن هناك طوائف أخرى من الوثنيين واليهود والنصارى بقيت على ما ورثت ، وحرصت على تجريح الإسلام ونبيه .

ولم يزلوا يتناولون الأيام إلا افتراء على الرسالة العظمى وصاحبها الأمين .

وهم - بعد ألف من السنين وأربعمائة - لا يزالون يتحدثون عن رواية دامية صنعها خيال رجل لا صلة له بالسما . !! .

ما أشبه أولئك المتخلفين بقطع من العميان ، كلما طلع عليهم النهار واستفاضت على الناس أشعته بقوا في ليلهم الدائم لا يحسون جديداً ، ولا يدركون نقصاناً ، ولا مزيداً . .

أفتري حجاب أولئك المحرومين قادحاً في مطلع الشمس ، أو كاسفاً من بريقها؟

إن الأدلة التي تثبت بها نبوة محمد أرسخ - في عصرنا هذا - من الأدلة التي تثبت نبوة موسى وعيسى .

ومن الإجراء بالعقل أن نزع القرآن كتاباً بشرياً ، وأن نطالب بعدئذ بعد التوراة والإنجيل تراثاً سماوياً محضاً . !! .

والمؤلف الذي تناول قصة الفتوح على أنها غارة شعواء ، وتعرض لأصحاب محمد من ساسة وقادة على أنهم رجال ذوو مطامع وأهواء ، من طراز «الإسكندرية» و«نابليون» وغيرهما .

هذا المؤلف المكين ، ليس إلا مثلاً للتعصب الذميمة .

تعصب العميان ضد الضياء .

تعصب الكهان المشدوهين ضد الديانة التي أسقطت وساطتهم ونسخت خرافتهم .

وسندكر خلطه في الكلام عن الفتوح الأولى معقبين عليه بالحق المبين .

قال في ص ٢١ : « . . الواقع أن الفرس والروم كانوا ينشدون الراحة لأن الحروب التي وقعت بينهم أنهكتهم .



لقد بدأ الإسلام فصيح :

﴿فَلذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنَّا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾<sup>(١)</sup>.

فكان أهل الكتاب من يهود ونصارى كانوا يحتكرون رب العالمين لأديانهم ، برغم ما خالطها من تشويه ، وشاب تاريخها من إجحاف .

فهم يشبون على الإسلام ودعائه من كل جانب . يريدون إخراس ألسنتهم ، بل يريدون انتزاع أرواحهم من جسومهم .

فأى عاقل يلقي هذا التنكر والصدود بالراح العزلاء ؟

وأى كريم يبذل وده لمن يرفض وده ويبغى قتله ؟

إن الإسلام مازال على موقفه الأول ، لولقى من اليهود والنصارى عرفاناً بالحقائق واحتراماً لذويها ، والتزاماً للحدود الصحيحة في شتى المعاملات .

\* \* \*

ويوجد من أهل الكنائس أناس أوتوا حظاً من السماحة والبصر ، عاملوا المسلمين بكرم وتبيل ، فبادلهم المسلمون التحية بخير منها ، وحافظوا أتم المحافظة على مشاعرهم ومناسكهم .

وكم نرجو لو يكثر هؤلاء المنصفون ، وكم نرجو لو ملكوا زمام قومهم ، فعاشوا وعشنا معهم في وئام وطمانينة .

لكن هؤلاء المعتدلين لا يجدون استجابة من قومهم .

فإن روح الحقد المتأصل على الإسلام تدمر ما أمامها ، وتجاهبه المسلمين بأوضاع محرجة . وقد لاحظنا ذلك حتى في الأقليات الدينية التي تخلفت بهذه الديار بعد انتشار الإسلام فيها .

(١) التورى : ١٥ .

إن هذه الأقليات تأبى الاعتراف بأن ديناً جديداً قد ألقى رحاله هنا ، وأن كثرة كبيرة قد أمنت به !!

ويبدو هذا الإباء في محاولاتها المتعمدة أن تفرض وجودها بالعنف أو اللطف على كل شيء ولو على حساب الكثرة الضيعة المهادنة .

فإذا كان في بلد ما مائة أسرة ، تسعون منها مسلمة ، تصلى في أربعة مساجد ، فإن الأسر العشر الباقية تحاول أن يكون لها أربع كنائس أو خمس !!!

ولماذا تبذل هذه المحاولات ؟

إنها رغبة من القلة المتوجسة في إثبات بقائها وتدعيم كيانها ، وإبراز طابعها على الأرض التي تحيا فيها . . عليها كلها !

وربما أحست الكثرة بهذه النيات ، فوضعت قيوداً على بناء الكنائس ، محافظة منها كذلك على أن يكون مظهر البلاد إسلامياً مادامت كثرة السكان مسلمين .

والنزاع بين القلة والكثرة هنا ليس نزاعاً على حرية العبادة ، فهي ليست موضع جدل . بل نزاع على أي الفريقين يترك طابعه على البلاد ؟

الكثرة المسألة أم القلة المتحدية ؟ !!

القلة التي تريد أن تبني في كل قرية متداعية البنيان كنائس سامقة الجدران - للإعلان لا للعبادة - والتي تتخبر الأحياء الحساسة في المدائن الكبرى لتدفع بأبراجها في الفضاء ، كأنما تقول للكثرة المسلمة :

إنكم هنا غرباء طارئون !! وإن دينكم في عواصم الكبرى لا ينبغي أن يحتل إلا منزلة مهينة .

وقد امتد هذا التحدي من ناحية العقائد إلى الناحية العمرانية العامة .

فإن الأقليات المتحفزة للسيطرة على البلاد ، الحاملة بعودة الحكم المطلق إليها ، تعمل - جاهدة - على استغلال كل نفوذ تحوزه في الإدارة والوظائف ، لخدمة مصالحها الخاصة .

وعندما تولى «بطرس غالى باشا» رئاسة الوزارة فى القرن السابق تمكن من أن يبيع للأقباط من أملاك الحكومة أرضاً شاسعة فى الصعيد بأثمان سمحة<sup>(١)</sup>.

وذلك سر الثروات الضخمة التى تكونت لهم هناك .

عنى حين يعيش أكثر المسلمين فقراء مضيعين .

ولست أبخس الأقباط حقهم باعتبارهم طائفة نشيطة تسحق حياة حسنة .

فمعاذ الله أن أجنح إلى ظلم .

بل غاية ما أريده أن أضع حدوداً واضحة بين ما يحصل المرء عليه بجنده ، وما يكسبه بوسائل ملتوية .

أهمها استغلال الكثرة وانتهاز سماحتها لإصاعة حقها ، ثم الضعن عليها بعدئذ ، واتهامها بالتعصب الأعمى !!

وهكذا ينقلب الظالم مظلوماً .

\* \* \*

إننى أكره التعصب ، وأحس المرارة التى ذاقها المستقدمون والمستأخرون من لوثاته .

وكيف لا نكره التعصب ، ونحن - المسلمين - أشد الأمم تعرضاً لأثامه وألامه ؟

إلا أننا - وإن كرهنا التعصب - ننبه إلى منقصة شر منه .

ونعنى بها جحود السماحة واستضعاف صاحبها الكرم السهل .

أليس مما يفص الإنسان به أن ثلاثمائة وألفاً من السنين تمر على الأقلية اليهودية فى بلاد الإسلام ، فلا تضار فى مائل أو وئيد . ويتم عليها هذا الدهر الطويل فى بلاد النصرانية وهى تضار من بلد إلى بلد . . . ثم ماذا تكون العقوبى ؟

أما جزاء المضاردين فقد ترك اليهود بلادهم هارين .

أما جزاء السمعاء الأختيار فقد أقبل اليهود على بلادهم هاجمين .

كأن جزاء التعصب أن يسلم أصحابه من العدوان ، وجزاء الاعتدال أن يتحمل أصحابه الهوان .

(١) ولا ينسى التاريخ أن «بطرس غالى باشا» كان عضواً فى محكمة دنشواي الشهيرة . وإننى ندد بها الرعييم

مصطفى كامل . المحقق .



(٦)

افتراء من الالف إلى الياء

دخل الإسلام مصر بعدما تمكنت قواته من طرد الرومان المحتلين ، وتعقب فلولهم أندحورة حتى اضطرتهم إلى الجلاء عن البلاد كلها .

وقد أحسن المصريون على عجل بأنهم ليسوا أمام فاتح تغريبه نشوة النصر بالبغى والاستعلاء . بل أمام رجال تحكمهم أخلاق فاضلة ، وتضبط سلوكهم شريعة واضحة ، وأن اليون بعيد بين كبرياء الرومان وبساطة المسلمين .

ومع كثرة مؤرخى النصرانية الخافدين على الإسلام ، فإن أحدًا منهم لم يجروا على اتهام العرب بأنهم أكرهوا قبطياً على ترك دينه ، أو حرصوا على دخول الإسلام بأساليب تجافى المنطق الحكيم .

ومع ذلك فإنه لم يمضِ نصف قرن على دخول الإسلام فى مصر ، حتى تحول إليه أكثر النصارى ، كما يتحول الناصيون فى البلاد الحرة من حزب إلى حزب ، وكما يؤثرون منهاجاً على منهاج .

وما هى إلا أيام حتى أصبحت النصرانية دين قلة محدودة تعتمد فى بقاء موروثاتها وطقوسها . . على سماحة الإسلام وأهله فحسب .

والحق أن هناك ألوفاً مؤلفة من النصارى تستبطن الريبة فى عقيدتى الثالث والقداء ، أو تستشعر التبرم الخفى بهما .

وتود لو تخلصت منهما كما يتخلص الحمام المثقل من عبء أبيهظ كواهله .

فإذا وابت فرص مناسبة للدخول فى عقيدة أخرى دون غضاضة تلحق النفس من الانخلاع عن عقيدتها الأولى ، كان ذلك إيذاناً بتحول واسع النطاق .

وذاك سر انتشار الإسلام لا فى مصر وحدها ، بل فى الرقعة الفسيحة التى أبعد عنها سلطان الضغط والقسر .

إن جماهير الأقباط - الذين أسلموا عن رغبة - لم يتركوا نصرانيتهم الأولى إلا بعد اقتراب نفسى وعقلى من تعاليم الدين الجديد .

وقد كان الحكام المسلمون فى العصر الأول يرقبون هذا التطور فى صفوف الشعب وهم فى موقف الحياد الدقيق .

بل ربما كان مسلك بعضهم أقرب إلى الصد عن الإسلام من تحبيب الناس فيه وإغرائهم باعترافه .

ولا ريب أن في الأقباط رجالاً كرهوا هذا الأمر ، وراعهم الانتفاض المفاجئ على الكنيسة . وربما اعتبروا إقبال إخوانهم على الإسلام خيانة لتراث النصرانية ، وسوالة للدولة المقبلة ، وربما أهاج ذلك ضعائهم على الدين الجديد ، فأضمرُوا لأهله الشر . بيد أن ذلك كله لم يجعل الحكومة في يد الإسلام سوط عذاب على المخالفين . فبقيت الديانات الأخرى لمن رضى بها لا تلقى من أحد عنثاً ، ولا يجد أهلها في الاستمساك بها حرجاً .

وقد أثبت التاريخ حقيقة رائعة ، أن المسيحية أو اليهودية تستطيع أن تعيش في ظل الإسلام - إذا حكم - معيشة طيبة .

لكن كلتا الديانتين إذا حكمت لا تسمح للإسلام أن يعيش في ظلها . وتلك علة بقاء الأقليات الدينية في الشرق الإسلامي ، وفنائها في أوروبا المسيحية .

\* \* \*

ولو قارنا بين الفتح الإسلامي للبلاد المسيحية ، والفتح المسيحي<sup>(١)</sup> للبلاد الإسلامية لاسودت وجوه الأدعياء المفترين .

وسنفرد باباً خاصاً بإفناء المسلمين في أسبانيا ، والمراسيم والقوانين التي أصدرها الباي والمملوك النصارى لتنظيم هذا الإفناء الفريع .

إن المسلمين لا تتحرك في ضمايرهم نوايا الغدر والفتك بين يخالفونهم في الدين . وقد مضت قرون طوال على انفراد الإسلام بالسلطة المطلقة في العالم أجمع . لو شاء المسلمون خلالها أن يبيدوا خصومهم لفعلوا .

لكن الذي حدث أن المسلمين كفلوا حياة خصومهم ، ودافعوا عنها كما يدافعون عن دمايتهم وأموالهم .

فلما انتقل زمام القوة من أيديهم تحين اليهود والنصارى كل فرصة للإيقاع بهم ، فاستؤصل المسلمون من بقاع شتى .

(١) وستجد النتيجة حتمًا ، أنه لم يكن فتحًا ، وإنما كان غزواً واحتلالاً وسطواً . . . !!

ورأينا اليهود الذين سمح المسلمون ببقائهم في فلسطين يتحولون إلى دولة لا تعيش إلا على أنقاض المسلمين .

ورأينا الحبشة - التي سمح حكامها المسلمون ببقاء الأقباط فيها - تتحول إلى دولة صليبية هدفها إفناء الإسلام وأهله<sup>(١)</sup> .

ونصارى الحبشة هم القلة الحاكمة ، ومسلموها هم الكثرة المحكومة .

كأن أسلافنا احترموا حق الحياة لأولئك جميعاً كيما يرتدوا على ذرايعهم يسلبونهم حق الحياة ، ويستكفرون عليهم أن يبقوا بإسلامهم أو يبقى بهم إسلام !  
أريد حياته ويريد قتلى . !! عذيرك من خليلك من مراد

\* \* \*

ثم جاء أخيراً هذا الكاتب الناقم على الإسلام فرأى أن يعلن عليه حرباً أخرى تقوم على سلسلة من الأكاذيب الضخمة .

وهداه حقه إلى الاتجاه إلى أقباط مصر ، ينبئهم بما لا يعلمون هم ولا أبائهم ، ويلقى في روعهم أنهم عاشوا في البلاد غرضاً لحملا متتابعة من التعصب المقيت «كذا» . . تعصب من ؟ تعصب المسلمين ضد النصارى !!

وعنى الكاتب الكاثوليكي عن تاريخ كنيسته المفضوح في ماضي الحياة وحاضرها ، ونسى أنه هو نفسه موظف مسيحي يأخذ مرتباً سخياً من حكومة مسلمة ، ويجلس على كرسيه ليوثر ليصدر الأوامر إلى جملة من الموظفين المسلمين تحت يده . . !!

لقد عمى عن هذا ، ونسى ذلك ، وجحد النعمة الدافقة التي يعيش فيها هو وألوف من أمثاله في بلاد الإسلام . .

ثم أمسك بقلمه يكتب أن الإسلام دين تعصب ، وأن حكامه وشعوبه قوم متعصبون ضد الأديان الأخرى !!

والدليل على ذلك أنه منح في بلاد الإسلام ما يعز عليه مناله في بلاد النصرانية نفسها .

\* \* \*

(١) عن سطو الصليبية على بلاد الحبشة والمجازر التي أشرفوا عليها هناك . . انظر : محمد الغزالي - الاستعمار أحقاد وأطماع - طبعة دار نهضة مصر . «المحقق» .



من الأمراض التي تلحق النفس الإنسانية ما يسميه العلماء بـ«الإسقاط» .  
فقد تكمن في طوايا المرء رذيلة معينة أو شهوة جامحة ، تلون الحياة أمام ناظره  
بصورة لا تمت إلى الواقع بصلة ، لأنها فيض من نفس الناظر الذي تخيل فتعال !  
وقد روى الأستاذ «القوصي» في كتابه «الصحة النفسية» قصة فتاة عانس طال  
عليها الحرمان ، وأدبرت عنها الحياة .

ولكن تشبثها العاضى بصحبة رجل ورغبتها الشديدة في أن تسمع ألفاظ التدليل  
والإعزاز أخرجها عن طورها .

فكتبت يوماً إلى النياية العامة تتهم رجلاً شريفاً بأنه أساء الأدب معها وتجراً على  
مغازلتها !!

وجيء بالرجل الذي اندهش لتهمة لم تخطر بباله ! وحقق مع العانس .

فتبين أن أشواقها الكامنة خيلت إليها ما لم يكن ، فاتهمت الرجل بما تود لو وقع  
منه ! لأنه حاجة نفسها المكبوتة !!

وانك لتجد كثيراً من الناس يعيبون غيرهم برذائل هي فيهم ، وليست في غيرهم لا  
تدرى : أيحسبون غيرهم مثلهم . . أم أن نفوسهم قد رشحت بما اكتضت به ؟ فهي  
تسقط رشحها هذا على الآخرين !!

إن الكاتب الصليبي الذي سود صحائفه بأشنع التهم ضد الإسلام كان لاشك  
يعانى حالة مرضية من هذا النوع الشاذ .

فالتعصب الكنسى الذى يجر وراءه مخازى قرون طوال أوهمه أن الحياة كلها لاتدور  
إلا على محور من التعصب الأعمى .

فيإذا بالمؤلف يفعل فعلة الفتاة العانس السابقة ، فيطلب محاكمة الإسلام بتهم هو  
منها براء .

لأنها فيه وفي قومه داء عيا .

وحدث عن رجل يريد أن يشوه حقائق دين وتاريخ أمة !

ماذا يصنع في أربعة عشر قرناً كانت الأقليات الدينية فيها مروعة في كل مكان إلا في أرض الإسلام؟

إنه يكذب ويكذب ويكذب ، لعله يستطيع أن ينفث من دخان قلبه المحترق ما يعكس به الأفق النقي الذي امتازت به بلادنا (١) .

على حين كانت «أوروبا» ترغى وتزبد ، وتضطرم أجواؤها بنيران العداوة واليغضاء بين مذاهب النصرانية المتناحرة ، أو بين النصارى واليهود الثائمين في كل مكان . . .

إن هذا الكاتب مارونى كاثوليكي ، وقد جاء يستجيش أحقاد القلة من أقباط مصر على الكثرة الغامرة من سكانها ، مدعياً أن المسلمين أساءوا إلى الأقباط ! وأن تاريخ العلاقات بين الفريقين يشهد بذلك !

كأن الكاثوليك حراس العدالة في الأرض .

أو كأنهم ليسوا آخر من يتكلم في هذا الموضوع !!

إن الكاثوليك حكموا الأقباط قبل المسلمين فأذاقوهم ألوان العذاب .

ولو أن أولئك الكاثوليك أخذوا الأقباط معهم إلى فرنسا مثلاً ، أفيكون حظهم أفضل من حظ البروتستانت الذين تعرضوا لمذابح شنعاء ؟ !

وحفظ التاريخ أحسن ضروب الغدر لما أوقعه بهم أولئك الكاثوليك الأشراف ، ولكن «إذا لم تستح فاصنع ما شئت» .

لقد جاء هذا الكاتب إلى تاريخنا يرمينا بدائه ، فاستعرض حال الأقباط .

فما وجد من خير واستطاع أن يدفنه سكت عنه سكوت القبر ، وما بهره على مر القرون من إحسان في المعاملة . ادعى - في صفاقة نادرة - أن له أسباباً أخرى غير الإسلام وسماحته!

فإذا وقع على خطأ تافه بالغ في وصفه .

وإذا لم يجد ما ينشده من أخطاء ، ففي الكذب متسع لمن يريد المشى بالنميمة والتماس العيوب للأبرياء .

وعلى هذا النحو ألف كتابه .

(١) شارك الشيخ الغزالي في إطفاء كثير من أحداث الفتن الطائفية ، أثارها المسيحيون بلا داع يذكر ، وادعاه الإعلام الغربي لزعزعة الكيان الاجتماعي في مصر . . .

والغريب أن من الأقباط من تلقفه ، ثم بدأ يتحدث عن هذا الاضطهاد الموهوم .  
ويشكو من وقعه !!

ونحن نعرف أن سعى المسلمين لطرد الصليبيين المستعمرين لأوطانهم هو سر تلك  
المزاعم المفتعلة ، وأن تأليب الأقباط على الكثرة التي حاستهم دهوراً لن يبطل حقوق  
المسلمين ، كما أنه لن يجر أى نفع للأقباط .

ولئن أصررنا على تحرير بلادنا من الإنجليز وغيرهم وتطلعنا إلى حكم إسلامي  
نظيف بصون أخلاقنا وعباداتنا ، فنحن مرتقبون من الأقباط أن يكونوا إلى جوارنا في  
كفاحنا ، ومقدرون أنهم لن ينسوا النعماء التي يرحون في بحبوحتها منذ دخل  
الإسلام مصر ، ومنتظرون أن يضربوا على أيدي السفهاء الذين ينالون من الإسلام ،  
ويفترون على تعاليمه الزور وعلى أهله البهتان .

نعم إن هناك قوماً باعوا ضمائرهم للإنجليز ، واشتغلوا بخدمة مصالحهم في طول  
الوادي وعرضه .

لكن هذه القلة من اخونة لن يفوتها جزاؤها العدل : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ  
مَنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

إننا قبل أن نشرح ملابسات الحوادث التي شوهها هذا الكاتب ، نحب أن نؤكد مرة  
أخرى هذه الحقيقة :

«إن أرض الإسلام لم تشهد البتة لوثاً من الاضطهاد الديني الذي عرفته أرض  
المسيحية .

وإن التعاليم المقررة التي سوّت بين الكثرة والقلة في الحقوق والواجبات كفلت  
الحرية الدينية والمدنية ، على نحو لم يعرف في أرقى بلاد أوروبا وأمريكا .

وإنه إذا كانت هناك أحداث مؤسفة شابت علائق القلة المسيحية بالكثرة المسلمة ،  
فهى - فى معرض المقارنة - توافه لا تذكر بالنسبة للشناعات القبيحة التي فعلها  
المسيحيون بغيرهم .

(١) الشعراء : ٢٢٧ .

ثم هي - في أسبابها الأصلية - تعود إلى شذوذ نفر من المتعصبين النصارى يريدون تحقير الإسلام والإساءة إلى أمته .

وينتهزون مرونة الكثرة الطيبة لتمكين طائفتهم من الامتداد والتغلغل على حساب الجمهور المسلم .

ولنعد إلى مناقشة الكاتب الصليبي .

وصف هذا الرجل في خمسين صحيفة « ٦٠٠ - ١١١١ » «أحوال الأقباط الحقيقية تحت حكم الولاة العرب» .

ولم ينسلخ عن طبيعته المتلوية في غمز المسلمين والتنديد بهم ، لكي يظهر الأقباط وكأنهم فريسة سهلة لاحتلال جشع مريب .

وهذا الباب الذي عقده الكاتب تحت عنوانه السالف لا يتفق مع موضوعه ، فقد وصف أحوال مصر من ٢٠ إلى ٢٥٢ للهجرة «أى من الفتح إلى قيام دولة ابن طولون» .

ومصر في هذه الفترة كانت إسلامية لا قبطية .

فإنه لم يمضِ نصف قرن على الفتح ، حتى كانت النصرانية دين طائفة قليلة في البلاد .

ولقد بلغ من قوة المسلمين المصريين بعد عشرة أعوام من الفتح أن وفودهم شاركت في الفتن الكبرى من مقتل «عثمان» فما بعده .

وقد اختار الخليفة الأموي المطارد «مروان بن محمد» مصر ليجد فيها ملجأ من بطش العباسيين الغالبين .

ولكى تدرك مدى انتشار الإسلام في البلاد المفتوحة يكفي أن ترى «دمشق» بعد إجلاء الرومان عنها قد تحولت إلى عاصمة للمسلمين جميعاً ، ولم يستغرق ذلك أكثر من ربع قرن .

ولو أن «معاوية» كان والياً لمصر ، لجعل القاهرة عاصمة المسلمين بدل المدينة ، فإن ظلال النصرانية كانت قد تقلصت فعلاً عنها .

ولو سلمنا جدلاً مع الكاتب الصليبي أن الاضطراب ساد العلاقات بين الولاة والشعوب ، وأن العرب كانوا بحاجة إلى سياسة ثابتة . . إنخ .  
فما صنة هذا بالأقباط ، وما موضع القول بأنهم تحملوا أوزار الفتن والاضطرابات السائدة؟

يقول الكاتب «أهملت الإصلاحات العامة إهمالاً تاماً .

ولكن لما كان من اللازم الاستفادة من مياه النيل الغنية بالطمي الخصب ، لاسيما أثناء الفيضان ، فقد كان الحكام يسخرون السكان لتطهير القنوات ، وإعادة بناء الطرق والجسور مقابل إعفائهم من قسط من الضرائب يتناسب مع المهمة التي قاموا بها» ص ٦٣ .

ونظام السخرة الذي أشار إليه الكاتب كان معروفاً في مصر حتى سنة ١٩٣٦ .  
وكان المسلمون - بحكم كثرتهم - يحملون أعباءه ومغارمه .

فكيف يعتبر هذا تعصباً ضد الأقباط ؟

ويضئ الكاتب في كلامه قائلاً :

«لا نجد أي أثر لنشر التعليم حتى بعد إنشاء المستعمرات العربية في الدلتا بوقت طويل .

ومن جهة أخرى أنشأ العرب نظاماً للضرائب . . ولكنهم لم يفكروا في تنظيم إدارة للحسابات في المدينة المتورة» .

لنفرض أن العرب لم يعلموا أولادهم ، فهل هذا يعد تعصباً ضد الأقباط ؟

ثم من الذي وصف المسلمين في هذه العصور بالتخلف العقلي وضعف العناية بالعلوم ؟

ويتساءل الكاتب عن عدم وجود إدارة حسابات بالمدينة .

إن المدينة بعد فتح مصر بأعوام قلائل لم تصبح عاصمة الإسلام .

فما معنى هذا التساؤل ؟ وما وجه التعصب فيه ضد النصرانية ؟

ويستطرد الكاتب لُغوه قائلاً :

« . . . ثم بينما كان بناء الكنائس محظوراً في المدن التي أنشأها العرب سمح عبد العزيز بن مروان ببناء كنيسة في حلوان .

ويعتل هذا التساهل بوجود بعض النصارى الملكيين في خدمة الوالى .

ولم تختلف سياسة «المأمون» عند إقامته بمصر .

واستخدم النصارى الذين التمسوا منه تشييد كنيسة بالقرب من قبة الهواء ، فسمح لهم بذلك» .

وهذا الأسلوب الملتوى فى عرض الأمور ناضح بنية صاحبه .

إن مصر المسلمة فى عهد «المأمون» ، ومن قبل ومن بعد ، لم تحجر على حرية العبادة ولم تحظر بناء الكنائس على الأقباط الذين يحتاجون إلى كنائس .

ولكن إذا حدث أن بنى المسلمون مدينة لهم وكانوا فيها الكثرة الساحقة ولم يكن النصارى فيها عدداً يذكر فما معنى بناء الكنائس فيها ؟

فإذا بلغ النصارى عدداً يحتاج إلى معبد خاص فإن أحداً لن يقف فى طريق رغبتهم . وهذا ما فعله «ابن مروان» و «المأمون» .

لم يكن السبب فى سماحهم ببناء الكنائس أن أحداً من الأقباط كان موظفاً لديهم ، فأذنوا بذلك من أجله .

كلا ، إن الأمر قائم على سياسة بينة ، غير أنه يحدث أحياناً أن نفرأ يعدون على الأصابع يريدون مراغمة المسلمين وتحدى مشاعرهم ، فيحاولون بناء كنيسة على كل شبر من الأرض يقع لهم .

وهذا يسبب مناوشات خفيفة ما إن تنشب حتى تهدأ .

إذ يلزم الأقباط حدود الاعتدال ، وينسى المسلمون كل ما حدث ، ويستأنف الفريقان حياتهما المعتادة .

ومسلك المسلمين مع الأقباط فى هذا الشأن أنظف وأعف من مسلك الكاثوليك معهم .

وإن كان هذا الكاتب - لنقمته على الإسلام - يكره أن ينسب إليه ذرة من خير .  
فهو يمول في ص ٧٢ . . . . . نفذ عمرو بن العاص أوامر الخليفة «عمر» لأنها  
كانت تتفق ومطامعه الشخصية ، فكان تسامحه مع مصر أثناء ولايته مثار دهشة  
المصريين وإعجابهم» فتسامح الفاح سببه الطمع لا الدين (!) .

ثم يقول الكاتب ناقلاً عن حنا النقيوس :

« . . . لم يتول «عمرو» على ممتلكات الكنيسة ، ولم يرتكب أعمال السرقة والنهب » .

وهذه الكلمة إشارة لما كان يفعله الرومان الكاثوليك مع الأقباط المصريين .

ومضى الكاتب يسرد وقائع التاريخ من الزاوية التي يراها فقال نقلاً عن «ساويرس» :

« . . أدرك «عمرو» منزلة البطريك اليعقوبى «بنيامين» فى نفوس الشعب ،

فسارع إلى استقطار أخباره من أفواه الناس ليعرف المكان الذى لجأ إليه البطريك

هرباً من اضطهاد «قيرس» - ممثل الروم الكاثوليك فى مصر - .

وقال عمرو فى هذا الصدد : له العهد والأمان والسلامة من الله ! فليحضر أمنا

مطمئناً وليدبر حال بيعته ومياسة طائفته .

ولما سمع القديس «بنيامين» هذا ، عاد إلى الإسكندرية بفرح عظيم بعد غيبة

ثلاث عشرة سنة ، منها عشر سنين «لهرقل» الرومى الكافر ، وثلاث سنين قبل أن

يفتح المسلمون الإسكندرية - كما فى النص - لابساً إكليل الصبر والجهاد الذى

كان الشعب الأرثوذكسى قد استحقه من اضطهاد الخالفين .

فلما ظهر فرح الشعب والمدينة كلها لمجيئه ، وأمر «عمرو بن العاص» بإحضاره

بكرامة وإعزاز ومحبة .

فلما رآه أكرمه وقال لأصحابه وخواصه : «إن جميع الكور التى ملكناها إلى

الآن ما رأيت رجلاً - لله - يشبه هذا» .

وكان «بنيامين» حسن المنظر جداً ، جيد الكلام بسكون ووقار .

ثم التفت «عمرو» إليه وقال له : «جميع بيعك ورجالك ، اضبطها ودبر أحوالها .

وإذا أنت صليت عَلَيَّ حتى أمضى إلى المغرب والخمس مدناً وأملكها مثل مصر ، وأعود إليك سالماً ، فعلت لك كل ما تطلبه مني .»

فدعا له القديس «بنيامين» وأورد له كلاماً حسناً أعجبه هو والحاضرين ، وفيه وعظ وريح كثير لمن يسمعه ، وأوحى إليه بأشياء ، وانصرف من عنده مكرماً مبجلأ .

واستطرد الكاتب يقول : « . . . ثم إن اهتمام عمرو باليعاقبة - الأقباط - جعلهم يبتون الآمال الكبار على المستقبل مما حدا بالأسقف المؤرخ «ساويرس ابن المقفع» أن يصف شعورهم هذا بقوله :

«كانت الشعوب فرحين مثل العجول الصفار إذ حُلَّ رباطها ، وأطلقت على ألبان أمهاتها» قال :

وكان «ساويرس» على حق في وصفه ذلك ، لأن الأقباط لم يعاملوا بهذه المعاملة اللينة منذ أمد بعيد .

أضف إلى هذا أن العرب - أثناء ولاية «عمرو» - لم يحاولوا الضغط على الأقباط ليعتنقوا الإسلام ولم يضطهدوهم . . ص ٧٢ - ٧٣ .

وهذا اعتراف بأبي الكاتب أن يسوقه خالصاً لوجه الحق ، فهو يلبسه - على عادته - بما يشاء من باطل .

فإن المسلمين على عهد «عمرو» ومن بعد «عمرو» لم يكرهوا قبطياً على الدخول في الإسلام ، ولم يضطهدوا مخالفينهم في الدين إلا أن يعتدى عليهم فيردوا العدوان .

ونحن لا نأبه كثيراً للعبارات التي ذكرها «ساويرس» وإن تك شهادة حسنة للفتاحين ، وقد أصلحنا من ركاكتها واضطرابها ليصح إثباتها !

#### دلائل فارغة ونقول باطلة :

والكاتب الذي انتصب لوصف العلاقات بين المسلمين والأقباط ، لو كانت لديه إثارة من إنصاف للجمأ - ولو من باب التعمية - إلى الموازنة بين النصوص المتضاربة وترجيح بعضها على الآخر ، وتعميص الآثار المروية بغية الكشف عن حقيقتها باعتبارها وثائق تاريخية محترمة ، ولحكى أقوال الجانب الآخر وتعرض لها بالنقد أو بالرد . . إلى آخر ما يلتزمه المؤرخ النزيه .



بيد أن هذا الكاتب تنكب الجادة في بحثه كله ، من ألفه إلى يائه ، فقد زحم مؤلفه بحشود مترادفة من النقول المفتعلة ، تتساوى جميعاً لغرض خسيس .

ويذكرنى أسلوب هذا الكاتب بصحافى إنجليزى ألف سفرًا ضخماً عن الهند - فى أثناء ثورتها على إنجلترا طالبة استقلالها - وشحن كتابه بالعادات والتقاليد الهندية السيئة .

فلما نشره على الناس ليطعن فى جدارة الهند بالحرية قال غاندى تعليقاً على الكتاب :

إن هذا المؤلف يشبه بعض موظفى المجالس البلدية المشتغلين بجمع القمامة ، لا تقع عيونهم إلا على الأقدار!!

والفارق بين الكاتب الإنجليزى والكاتب الصليبي ، أن الأول حبس عينيه على الأوساخ والأرواث الساقطة فى عرض الطريق ، وذهل عما يقع بجانبه من قصور وفساتين .

أما الأخير فقد جاء إلى الطريق النظيف ، وأراد - عامداً - أن يلوته .

وقد اعتمد الكاتب الصليبي فى تاريخه للأحداث على نقول كثيرة جداً من ثلاثة مصادر بينة :

١- المصدر القبطى : ونحن نلاحظ أن المؤرخين الأقباط لما وجدوا دائرة الإسلام تتسع وتشمل الجماهير الغفيرة ، وقفوا جهدهم كله على إثبات النصرانية وإظهار ما تحمله الشعب من اضطهادات قديمة وهو ثابت عليها .

وليس يعينهم فى ذلك أن يخلقوا الخرافات ويسجلوا الأوهام !

من ذلك ما رواه الأسقف «ساويرس» فى تاريخ البطارقة أنه لما هبط مستوى النيل عام ١٣٦ م قام المسلمون يتضرعون فى صلاتهم إلى الله أن يزيد فى مياه النهر حتى تفيض ، ثم تبعهم اليهود ، ولكن بدون جدوى .

ولم تحدث المعجزة إلا عندما بدأ النصارى فى الصلاة ، فقرر «باعون» نائب الوالى أن يكافئهم .

فخلفص الجزية وأمنهم على حياتهم في القطر المصري كله !!  
ومن هذا القبيل ما ذكره أيضاً مؤرخنا الدقيق (!) عن «ابن كلس» وزير  
«المعز لدين الله» قال :

«أراد هذا الرجل أن يقلل من شأن الديانة المسيحية في نظر الخليفة» .  
فطلب أن تجرى أمامه مناقشات دينية ، وسمع الخليفة أثناء هذه المناقشات أن الرجل  
المؤمن يستطيع بإيمانه أن يزحزح الجبال .  
فأرسل في طلب البطريرك «أفرام» وسأله فيما إذا كان الإنجيل يحوى مثل هذا  
الكلام ! .

فرد البطريرك بالإيجاب .

فما كان من الخليفة إلا أن أمره بالقيام بمهمة نقل الجبال وإلا محا من الأرض اسم  
النصرانية !!

ذهل الرهبان الأقباط عندما أخبروا بأوامر الخليفة ، فأخذوا يصلون وبيتهلون في  
الكنيسة المعلقة .

وبعد مضي ثلاثة أيام رأى البطريرك في منامه السيدة العذراء تطمئننه ، فتوجه  
بسرعة يحيط به عدد كبير من النصارى يحملون الصليبان والأناجيل إلى المكان الذي  
عين له ، حيث كان الخليفة ورجال حاشيته في انتظاره .

ويؤكد المؤرخون النصارى أن المعجزة حدثت بالفعل وأن الخليفة أبدى دهشته وأمر  
بإعادة بناء جميع الكنائس المحترقة .

ثم أرسل في طلب كبار الأقباط والعلماء المسلمين ، وأمر بقراءة القرآن والإنجيل  
أمامه .

ولما استمع إلى النصين ما كان منه إلا أن أمر بهدم المسجد القائم أمام كنيسة  
«أبى شنودة» وبناء كنيسة مكانه !

\* \* \*

ويقول الكاتب الصليبي تعليقا على هذه الخرافات :

إن «ساويرس بن المقفع» كان يشترك في هذه المناقشات ، كما يزعم أن «سارك بون البندقي» عماد إلى بلاده وسعه بعض التفاصيل المتعلقة بهذا الحادث .

ثم يقول : «يدعى كل من اليعاقبة والملكيين أنهم أصحاب هذه المعجزة» .  
والرواية التي تتضمن هذه المسأحة عن «المؤرخ أبو صالح الأرمي» . وقد تنزلنا إلى كتابة هذا السخف مرغمين .

والمسألة كلها تضع يدك على قيمة المصادر القبطية التي اعتمد عليها هذا الكاتب في تهجمه على الإسلام وافتراءه على تاريخه .

وقد ذكر الأستاذ «محمد عبد الله عنان» هذه الأسطورة وحكاية تنصر «المعز لدين الله» وما يهرف به الأقباط في هذا الشأن ، ثم قال معقبا على تلك المزاعم :

«كيف يقال : إن تردد هذه الأسطورة على ألسنة القسس وخدم الكنيسة دليل بصرح أن يطرح في ميدان البحث ؟ فمتى كان خدم الكنائس مؤرخين يرجع إليهم ؟

ومتى كانوا - بالأخص - مؤرخين للإسلام والمسلمين ؟

على أننا نذكر بهذه المناسبة أن أساطير هؤلاء القسس قد زعزعت الإيمان في كثير من مواقف التاريخ المسيحي ذاته .

ويكفي أنها أسدلت حجابا كثيفا من الريب على تاريخ قبر المسيح ، وجعلت منه أسطورة كنسية .

وانتهى البحث ببعض أقطاب المؤرخين النصارى «شل «جورج فنلي» إلى إنكار وجود هذا القبر الذي أنشئ بعد وفاة صاحبه بنحو ثلاثمائة عام ليكون مبعثا لأساطير القسس .

وأضحى القبر المقدس رمزا لا حقيقة .

ولكن القسس مازالوا إلى اليوم يعينون لك في كنيسة القيامة بيت المقدس وكنيسة بيت لحم مواضع بعينها شهدها المسيح صبيا ونبياً ، وأثارا ارتبطت بتاريخه أو بصلبه - كما يزعمون . .

بيد أنك لم تجد مؤرخا بمعنى الكلمة بل فردا سليم التفكير يقف عند شيء من هذه الأساطير رغم ما يسبغ عليها من لون الرسمية والقدسية . .

على أن الأستاذ «بتلر» - وقد أصغى إلى أساطير القسس في الكنائس القبطية

التي زارها وخصها بمؤلفه - قد أصدر حكمه في مقدمة كتابه على قيمة هذه الأساطير ، وقيمة روايتها في تلك الكلمة القوية :

«الواقع أن قليلاً جداً من الأقباط يعرفون شيئاً عن تاريخهم أو رسوم دينهم ، أو يستطيعون تعليل الأمور التي يشاهدونها في طقوسهم اليومية .

فإذا سئلوا عن نقطة تتعلق بالطقوس أجابوا عادة بهز الرأس ، أو بجواب ظاهر الخطأ ينم عن الجهل . . .» .

قال الأستاذ «عنان» وبكفينا حكم هذا العلامة خاتمة للبحث .

٢- آراء المستشرقين ، وتلك هي المصدر الثاني بحملة الأكاذيب التي شنها الكاتب على الإسلام .

والمستشرقون طائفة من مفكرى أوروبا الأذكياء ، اشتغلوا ببحث التراث الشرقى في العقائد والعنوم في العصر الذي انهارت فيه قوى الشرق وانفتحت مغاليقه أمام الغزاة المستعمرين من دول الغرب الطامحة .

كانت الدنيا قد أدبرت عن الإسلام ، والدنيا كما يقال : إذا أقبلت على أحد أعارته محاسن غيره ، وإذا أدبرت عنه سلبت محاسن نفسه .

ولو كان المستشرقون الذين اشتغلوا بفهم الإسلام وتاريخه على غرار الرجال الذين قادوا في أوروبا عصر النهضة ، لكانت لبحوثهم منزلة كبرى ولأفاد العالم منها أجل الثمرات .

إن العلماء والمفكرين الذين قادوا عصر النهضة كانوا رجالاً على قدر كبير من حرية العقل والضمير ، وكانت حماستهم في إطلاق البشر من أغلال الكهنوت ، وجراءتهم على اكتشاف المجاهيل ، وإجلالهم للمنطق المجرد والتفكير المنزه .

كان ذلك كله أساس التقدم العام الذي ضفرت به الحياة أخيراً في ميادين شتى .

أما المستشرقون فإنهم - إلا قليلاً - درسوا الإسلام وفي أنفسهم روايب من أحقاد الكنيسة عليه ، واتصلوا بأهله .

وهم - مع الأسف البالغ - خدم للاستعمار الغربي الذي لم يعرف للشرف قدرًا منذ  
وظفت أقدامه بلاد الإسلام !! .

ولعل ضعف المسلمين المرزى هو الذي وجه بحوث أولئك المستشرقين هذه الواجهة الجائرة .  
فإن الضعف يخلع على صاحبه مهانة تحجب حقيقته ، وترد العيون عنه .

والحق أن المستشرقين لم يكونوا يصدد الكلام عن أم حية - يوم وظفهم المستعمرون  
للكلام عنها - بل كانوا يصدد تشريح جثث ميتة !!

ومهما انتحلنا لهؤلاء القوم من أعذار في ضلالهم عن تصور الحق وتصويره لشعوبهم  
التي نديبتهم ، فإننا نحملهم اللائمة لفقدانهم الأمانة العلمية والنزاهة النفسية فيما  
كتبوا عن القرآن ، وعن النبي ، وعن الإسلام وتاريخه .

إنني أفهم أن يدخل الباحث الحر ميدان الكشف عن قيم الديانات كلها ، وهو خلو  
من كل غرض بعيد عن أي غمير ، ثم يستعرض القرآن والإنجيل والإسلام والمسيحية  
ويوازن موازنة مطلقة بين ما فيها من عقائد وتعاليم ، ثم يرجح أيها شاء .

أما أن يأتي مستشرق يدعى حرية الرأي فيتناول التراث الإسلامي كله ، وهو ينو ،  
تحت وقر من الترهات التي ورثها عن الكنيسة ، فلا يفهم عن النبي إلا أنه بشر دعى ،  
وعن القرآن إلا أنه كتاب مفترى ، وعن الإسلام إلا أنه جملة أوهام ، وعن الفتوح  
الكبرى إلا أنها غارة بعيدة المدى . . إلخ .

ثم يزعم هذا المخبول أنه أتى ببحث حر بعد دراسة طويلة على هذا الأساس ، فذلك  
ما ننظر إليه بعين الازدراء والسخرية .

تصور مستشرقاً كبيراً «جولد زيهر» الألماني يقول (١) :

«من العسير أن نستخلص من القرآن نفسه مذهباً في العقيدة موحداً متجانساً خالياً  
من المتناقضات .

فالتوحيد مذهب ينطوي على التناقض العسيرة الفهم» «كذا» .

(١) من كتاب «العقيدة والشريعة في الإسلام» .

• وجدير بالذكر أن الشيخ الغزالي رد على الاتهامات الموجهة للإسلام بكتاب «دفاع عن الشريعة والعقيدة ضد  
مضاعن المستشرقين» .

أما التثليث فمذهب واضح في فهم الألوهية !!

ونحن أمام هذا الارتكاس الذهني نردد مع «ابن حزم» قوله :

« . . يجب ألا نعجب حين نرى الناس يتمسكون بالخرافات !

انظر إلى المسيحيين فإنهم كثيرون إلى حد أن الله وحده هو الذي يعرف عددهم ومن بينهم أناس على قدر كبير من الفطنة وأمراء على قدر كبير من الشرف .

ومع ذلك فإنهم يعتقدون أن ثلاثة واحد ، وواحدًا ثلاثة ! وأحد الثلاثة هو الأب ، والآخر الابن !! والآخر الروح والأب هو ، وليس هو الابن !! والرجل هو ، وليس هو الله !! والمسيح هو الله في كل شيء ، ومع ذلك فهو ليس مثل الله ! والموجود الدائم مخلوق . . !

بل إن إحدى فرقهم «اليعاقبة» التي يبلغ عددها مئات الألوف تعتقد أن الخالق نفسه عذب ، وصلب ، وقتل ، حتى أن العالم ظل بدون سيده ثلاثة أيام . . » .

عقيدة التثليث هذه سهلة عذبة سائغة للشاربين!

أما قول القرآن الكريم :

﴿إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ \* رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾<sup>(١)</sup> . فهو كلام متناقض مبهم! !

وهذه هي نزاهة القصد وحصافة الفكر عند المستشرقين .

أما فهمهم للرسالة وصاحبها فأبعد ما يكون عن الإقرار بالنبوة والوحي .

والأمر - في نظرهم - لا يعدو مهارة رجل استفاد من الآراء والنحل السابقة في اصطناع ديانة جديدة .

وهم يرددون - بهذا الكلام - تهم الأقدمين :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا \* وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَبَتْهَا فَيحْيِي نَمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾<sup>(٢)</sup> .

(١) الصفات : ٥٠٤ .

(٢) الفرقان : ٥٠٤ .

هذا الاتهام بنصه وروحه هو ما بنى عليه المستشرق الكبير «جولد زيهر» فهمه  
الخر (!) للإسلام ونبي الإسلام عندما قال :

«... إن نمو الإسلام مصطبغ نوعاً بالأفكار والآراء «الهلينستية» .

ونظامه الفقهي الدقيق يشعر بأثر القانون الروماني ، ونظامه السياسي - كما تكون  
في عصر الخلفاء العباسيين - يدل على عمل الأفكار والنظريات السياسية الفارسية .  
وتصوفه ليس إلا تمثلاً لتيارات الآراء الهندية والأفلاطونية الجديدة .

على أن من الحق أن نقرر أن الإسلام - في كل هذه الميادين - قد أكد استعداده  
وقدرته على امتصاص هذه الآراء وتمثيلها ، كما أكد قدرته كذلك على صهر تلك  
العناصر الأجنبية في بوتقة واحدة فأصبحت لا تبدو على حقيقتها إلا إذا حللت  
تحليلاً عميقاً وبحث دقيقاً . . .

وهذا الطابع العام يحمله الإسلام مطبوعاً على جبهته منذ ولادته .

ف «محمد» مؤسسه ، لم يبشر بجديد من الأفكار ، كما لم يمدنا أيضاً بجديد  
فيما يتصل بعلاقة الإنسان بما هو فوق حسه وشعوره ، وباللانهاية .  
لكن هذا وذاك لا ينقصان من القيمة النسبية لطرافته الدينية .

لو أن هذا المستشرق أراد أن يتحدث عن الإسرائيليات والنصرانيات والإغريقيات  
التي التصقت بجوهر الإسلام بعد انتشاره في الأرض لكان حديثه هذا موضع نظر .

أما وهو يريد إيهام الناس أن محمداً الأُمى الذي لم يعرف أول عمره شيئاً عن  
الكتاب والإيمان ، ولم يقرأ حرفاً عن ثقافة فارس والروم والهند ، ولم يلق بالآ إلى  
فلسفات «أفلاطون» لا قديمها ولا جديدها .

إن هذا الرجل الناشئ في صحراء مقفرة من العلوم والمعارف إقفارها من الزرع  
والضرع .

إن هذا الرجل الذي ظهر في بلد لم يتصل يوماً بحضارة أخرى ، ولم تنخلع عنه  
خصائص البداوة والسداجة .

إنه وضع ديناً مستمداً من أفكار الهند والسند واليونان والرومان فهذا موضع الغرابة .  
إننا لننلو في تزييف هذه الأضاليل ، الآيات نفسها التي أجيب بها المعارضون  
القدامى ، وهم يطلبون قرآنا آخر غير ما يسمعون :

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ  
بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ  
عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ \* قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَأَكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ  
فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١﴾

إنهم لا يعقلون ، لأن التعصب الأعمى يلف في جاهليته الموحشة العامة من  
الأعراب ، والخاصة من المستشرقين .

أما القول : بأن الإسلام لم يأت بجديد في صلة الناس بالكون ورب الكون ، كما  
يزعم هذا المستشرق فهراء لا وزن له . .

وقد يكون في المستشرقين من هو أجود فهماً وأحسن حديثاً عن الإسلام من هذا الرجل .  
ولكن جمهورهم ينطوى على غلّ دفين ضد القرآن .

ولما كان أكثرهم يشتغل بخدمة الاستعمار الأوروبي قبل اشتغاله بخدمة الحقيقة  
العلمية فقد جاءت كتاباتهم عن الجهاد الإسلامي مزيجاً من الخلط والإفك .

ومن هذا المزيج المسموم استقى الكاتب الصليبي «وثائقه» عن علاقات مسلمي  
مصر بأقباطها .

والخطأ الذي يروج المستشرقون له ويتواصون به أن الإسلام انتشر بالقوة ، وأنه مذ  
حكم أهان الشعوب المغلوبة واضطرها إلى اعتناقه .

وعلة هذا الخطأ أنهم يقيسون الإسلام على المسيحية التي لم يعرفوا في أوروبا غيرها .  
والحق أن أوروبا المسيحية كانت وطناً للترمت البالغ ، والتعصب الشديد .

(١) يونس : ١٥١ ، ١٦٠ .



ولم يعرف أهلها مذاقاً للحرية الدينية إلا بعد أن صنوا جحيم التعصب في ظلال الكنيسة الحاكمة نحو خمسة عشر قرناً .

لكن قياس الإسلام بها خطأ محض .

فالإسلام قرر الحرية الدينية من يوم ظهوره على ما أوضحنا آنفاً .

غير أن المستشرقين الذين لم يتعودوا ذلك في تاريخ ديانتهم استبعدوا هذا الفرض أول الأمر من بحوثهم الحرة !!

وللخفافيش إذا أسلت جفونها في وضح النهار أن تتحدث عن الظلام الذي تعانيه ، إنه ظلام أعينها الكليلة .

أما أن تزعم أن العالم مظلم معها فذلك الكذب الصغير أو الغرور الكبير .

ليدلنا المستشرقون على أمر مثل هذا صدر من حكام الإسلام الأولين .

كتب «ميخائيل السورى» في تاريخه قال :

«رأى الإمبراطور «هرقل» في منامه عندما أخذ نجمه في الأفول ، أن شعباً مختوناً سيثور عليه ويهزمه ، ثم يحكم العالم كله .

واعتقد «هرقل» أن هذا الشعب ما هو إلا اليهود .

فأصدر أمراً في الحال بتعميد جميع اليهود والسامريين الذين يقطنون مختلف ولايات الإمبراطورية» .

أمر بتنصير اليهود والسامريين في جميع أنحاء البلاد !!

إن الإمبراطور في هذا يقلد أسلافه الأمجاد في مصادرة العقائد وإكراه الأمم على اعتناق نصرانيته !

ولماذا ؟ لوساوس نائم !!

إن الحرية الدينية أبعد ما تكون عن وهم هذا الحاكم .

ومن يدري لعل المستشرقين الطاعنين على الإسلام ، والأقباط الذين يصدقونهم في

مطاعنهم ، هم من نسل أولئك اليهود الذين اقتادهم عسكر «هرقل» إلى الكنائس  
حيث نصرروهم برغم أنوفهم ؟

لو أن هذا الأمر المجنون هفوة حاكم فرد لما ساع لنا أن نؤاخذ به تاريخ دين ما .

لكن هذا الأمر قد سبق إلى مثله - وقلد في فعله - بابوات وأباطرة وملوك .

فإذا صدر . . . سيق الناس بالسياط إلى حيث يُعمّدون .

فإذا تجرأ أحد على عصيان أمر الدولة قطع عنقه .

وماذا يفعل الناس أمام هذا البطش؟

إن عقابهم كما قال الشاعر :

تلوا باطلاً ، وجلوا صارماً وقالوا : صدقنا ؟ فقلنا : نعم !!

وعلى هذا النحو هلك المسلمون في الأندلس ، وهلك من بعدهم الموحدون في أوروبا .

والعجب أن الذين يهيلون التراب على هذه المآسي ، يجيئون من بعد إلى الإسلام

النقي ليقولوا له : إنك انتشرت بالسيف !!

٣- المراجع العربية ، وهي المصدر الثالث لمطاعن المؤلف على الإسلام وتاريخه .

وصنيع المؤلف بما يقتبسه من هذه المراجع مثل صارخ لسوء النية وشهوة التحامل ،

ومحاولة طمس الحقيقة ، وسوق كل شيء - طوعاً أو كرهاً - لخدمة غرض معين .

ولو ذهبنا نقند أكاذيب هذا المؤلف وتلبساته واحتياله على إبراز الزور في ثوب الحق

لطال بنا الكلام .

فإنك لا تعدم في كل صفحة من كتابه جرعة علمية وخلقية .

ذكر هذا الرجل اسم المدعو «ابن النقاش» وأجرى على لسانه كلاماً في أحكام

الشريعة لا أصل له .

ثم بنى اتجاهه في كتابه على هذه الأحكام المختلفة بعدما وصف «ابن النقاش» هذا

بأنه فقيه من الدرجة الأولى !

ونحن - المشتغلين بالثقافة الإسلامية منذ ثلاثين سنة - لم نعرف ابن النقاش هذا ولم نقرأ له كتاباً .

والكلام المنسوب إليه لا يقوله فقيه في الدرجة الأولى أو الأخيرة .

ونحن لا ندري هل «ابن النقاش» هذا شخص موهوم؟ أم أن المستشرقين افتعلوا الآراء المنسوبة إليه ثم ترجمها المؤلف كما يقول؟ أم أنه اختلقها من عند نفسه؟ ولا يستغربن القارئ هذا .

فإننا لم نعرف جرأة في وضع الآراء وإرسال الأحكام وتزوير النصوص كما عرفنا في هذا المؤلف .

إنه ينسب إلى كثير من المؤرخين كلاماً لم يقولوه ، أو ينقل عنهم كلاماً بعد مقدمات لم يعرفوها ليصل إلى نتائج خاصة .

وهذا ضرب من التدليس العلمى لا يلجأ إليه مؤرخ يحترم نفسه .

لندع جميع الآراء المزيفة التى نسبها لابن النقاش ، ونسب فيها للعمرين - ابن الخطاب وابن عبد العزيز - ما لم يعلما به ! ثم لتتابع جرائم هذا المخلوق .

فى ص ٢٩ ادعى أن «عمرو بن العاص» أسكت الزبير بن العوام عن معارضته فى تنفيذ حكم أمير المؤمنين عمر ، الخاص بتوزيع الأرض على أصحابها ، وأن سكوت «الزبير» كان نظير رشوة كبيرة أخذها «كذا» .

أرأيت إلى أى حد بلغ هذا الإسفاف؟

إن المسلم قد يشعر بغضاضة من تناول السفهاء على صحابة رسول الله بهذه الجرأة ولكن المسلم وغير المسلم يشعران بغضاضة أخرى من تناول الأمور بهذه الغباوة .

«عمر» القوى ، رئيس الدولة ، يرسل إلى «عمرو» الأريب واليه على مصر أن ينفذ حكماً أجمع الصحابة فى المدينة على المصير إليه ، وسبق أن نفذ هذا الحكم فى أرض فارس والعراق والشام . . فيحتاج «عمرو» والى الإقليم إلى رشوة واحد من الناس مهما كان شأنه ، لتنفيذ أمر الخليفة !!

هذا هو ما استقر في ذهن الكاتب الصليبي ، ونفذ منه إلى اتهام حوارى رسول الله  
بأخذ رشوة !!

إن القصة في عقل هذا الكاتب لا تقوم على تأريخ حقائق ، بل على تجريع دين  
واهانة رجال . وهذا أسلوب قديم في التبشير بالنصرانية .

وقد مضى الكاتب في سفهه يصور الوقائع على هذا النحو .

فالمعروف أن «عمر بن الخطاب» كان شديداً في معاملة الولاة .

يرسم لهم لونا من الحياة الحشنة لا يرتفعون به عن مستوى الجماهير .

وكان - رضى الله عنه - يخاف أن يتشبهه حكام المسلمين بحكام الروم والفرس في  
حياطة سلطانهم بمظاهر من الوجاهة والتعالى .

فدعاه ذلك التوجس إلى الدقة في معاملة حكام الأمصار ، ومصادرة ما يبدو في  
بيوتهم من شارات التوسع والجاه .

فعمل ذلك مع «أبى هريرة» ، ومع «سعد بن أبى وقاص» ، ومع  
«معاوية بن أبى سفيان» وغيرهم .

ومن بين من نالتهم شدة «عمر» والى مصر «عمرو بن العاص» إذ كتب يقول له :

«إنه فشت لك فاشية من متاع ورقيق وأنية وحيوان ، لم تكن لك حين وليت  
مصر» .

فرد عليه «عمرو» يقول :

«إن أرضنا أرض مزرع ومتجر ، فنحن نصيب فضلاً - يعنى زيادة - عما تحتاج  
إليه نفقتنا» .

فكتب إليه «عمر بن الخطاب» يقول :

«إنى قد خبرت من عمال سوء ما كفى ! وكتابك إلى كتاب من ألقه الأخذ  
بالحق! وقد سئت بك ظناً ، ووجهت إليك «محمد بن مسلمة» ليقاسمك مالك  
فأخرج إليه ما يطالبك به وأعفه من الغلظة عليك فإنه برح الخفاء . . .» .

وهذا الصنيع من «عمر» لم ينفرد به والى مصر ، فقد طبقه «عمر» على أبنائه العائدين من الكوفة .

وفقه الموضوع لا يعدو أن «عمر» يريد جعل ولاته طرازاً من الحكام الزهاد ، لا يتطلعون إلى متاع الحياة ، ولا ينالون من زخارفها ما يلصق بالدين أنه يقوم على استغلال الشعوب أو هضم حقوقها .

أين هذا مما تدلى إليه الكاتب الصليبي إذ يقول عن «عمرو بن العاص» :

«إن الخليفة اتهمه صراحة بأنه اختلس مبالغ كبيرة من المال» ص ٧٦ .

ثم يعقب على ذلك بقوله :

« . . ليس بمستغرب أن يغترف «عمرو» المال ، وهو العربي البدوي الذي وجد نفسه بين عشية وضحاها أمام ثروة كبيرة . . » .

إن هذه الوضاعة في التفكير والتعقيب تجعلنا نتجاوز هذا الصغار كنه .

فإن رجلاً يضطرب في أحواله على السفوح الدانية ، لا يعرف أحوال القمم التي تعمم الشمس هاماتها في الشروق وفي الغروب .

لقد أرسل «المقوقس» بعض رجاله إلى جيش «عمرو» ، يحملون رسالة إلى القائد الفاتح فاحتجزهم «عمرو» يومين ، ثم أعادهم للمقوقس فقالوا - يصفون المسلمين - :

«رأينا قومًا ، الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة ، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة .

إنما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم .

ما يعرف رفيعهم من وضعهم ، ولا السيد منهم من العبد .

وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ، ويخشعون في صلاتهم» .

ومع ذلك يوغل هذا الكاتب في كذبه ، فيزعم أن «عمر بن الخطاب» وضع الأسس في معاملة الأمم المفتوحة بقوله :

«يأكلهم المسلمون ما داموا أحياء ، فإذا هلكنا وهلكوا ، أكل أبناءنا أبناءهم ما بقوا»  
ويروى ذلك عن أبي يوسف !!

وهو في هذا النقل عدو مفضل مبین .

فإن المعاملة المقررة بين المسلمين وغيرهم لا تخفى قواعدها حتى يستجلب لها هذا الكتيب قواعد من عنده ، يفرغ فيها سمومه ضد الإسلام ، ويحاول بها تحريض الأقباط على مُحَادَّته .

إن التاريخ يعرف من الذي أكل الأمم المغلوبة .

وهل خطا العالم إلى الأمام إلا يوم تخلص من قيود الكنيسة المفروضة على الضمائر والأفكار ؟

أما «عمر بن الخطاب» فهو صاحب الكلمة التي لا تزال أضواؤها تشع من خلال القرون السحيقة : «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟»

فليُنظر القارئ كيف يسول الخنق لأصحابه جحود الحق المشرق ، واختلاق الأكاذيب البعيدة ، وتسمية هذا وذلك تأريخاً منزهاً !

أرأيت مؤرخاً لفتح مصر يأبى كتابة المعاهدة التي تمت بين المسلمين والأقباط ؟

أو ينبع - بأمانة - سير المفاوضات بين الفريقين؟

أو يذكر تفاصيل الحوادث ذات الدلالة الخطيرة مع أنه سوّد بالتوافه الصفحات الطوال؟

إنه رجل أراد أن يصور الإسلام .

فلم يرجع إلى آيات القرآن ، ولا إلى شروح المفسرين المعتمدين .

بل عمد إلى ما تسرب إلى التفاسير من إسرائيليات ونصرانيات ، وإلى ما شاع على ألسنة الجهات من أحاديث موضوعات .

ثم أخذ من ذلك ما يلائم أهواءه ، وأضاف إليه المزيد من عنده وادعى - بعدُ - أنه  
أتى بصورة كاملة لتعاليم الإسلام!!

كذلك فعل هذا الكاتب في تصوير الروابط بين المسلمين والأقباط .  
ولقد استعرض من المراجع ما شاء ، وذهل عن الوقائع الناصعة التي زخرت بها .  
تم صدف عن كل ما أحاط به من شواهد رائعة .  
لأن عينه - كما قال «غاندي» في الكاتب الإنجليزي المتحامل على الهند - : لا تقع  
إلا على الأقدار .

وتحدث الكاتب عن ثورة للأقباط بمصر ، وهو كاذب كعادته .  
فقد حدثت بمصر ثورة حقاً ، ولكنها ثورة عامة لأسباب سياسية أو اقتصادية .  
كتب عنها المقريري يقول :

«لما كان في جمادى الأول عام ٢١٦هـ انتفض أسفل الأرض بأسره عرب البلاد  
وقبضها ، وأخرجوا العمال ، وخلعوا الطاعة ، لسوء سيرة عمال السلطان فيهم ، وكانت  
بينهم وبين عساكر الفسطاط حروب»<sup>(١)</sup> .  
فدور الأقباط في الثورة كان مؤازرة جمهور المسلمين الثائر ، والمسلمون يومئذ هم كثرة  
السكان .

وقد سبق لعرب الحجاز أن ثاروا فأطفئت ثورتهم وهوجمت المدينة وصلب  
بها «عبد الله بن الزبير» .

وهذه الثورات وأمثالها في تاريخ الإسلام لها طابعها المعروف .  
والبأس الثورة في مصر ثوب الاضطهاد الديني محاولة فاشلة لجعل تاريخ الإسلام  
مشابهاً لتاريخ النصرانية في التعصب ضد الأقليات .  
وقد انتهزت هذه الثورة جماعة من اليونان المهاجرين يدعون «ألياماي» فعاثوا في  
الأرض فساداً وارنكبوا أعمالاً شائنة .  
إذ أحرقوا «رشيده» وقتلوا سكانها المسلمين جميعاً .

(١) ذهب بعض جمهور المؤرخين إلى أن الأقباط يقصد بهم المصريين وليس المسيحيين ، وهذا رأي راجح . . . وبناءً  
عليه قد يكون المنصود بالخفرة السابقة : عرب البلاد القادمين من الجزيرة العربية وقبضها المصريين من أثناء  
تبادل . . . ولا دخل للمسيحيين هنا . . . أي أن قبطين يعني أبناء مصر من مسلمين ومسيحيين . «المحقق» .

وقد أسرع الخليفة «المأمون» بالجميء إلى مصر مخافة أن تكون هذه الثورة ظليعة هجوم يقوم به «الأمويون» بالأندلس ، وأعلن عند قدومه عفواً عاماً عن الثائرين من مسلمين وأقباط شريطة أن يلتزموا الهدوء .  
فأما المسلمون فقد خضعوا .

وأما «البياماي» فقد أصروا على تمردهم ، برغم أن الخليفة أرسل إليهم البطريرك القبطي يطلب منهم التسليم ، فلما رفضوا اضطر إلى إخضاعهم .

وقد حقق «المأمون» في أسباب الثورة ، فرأى الوالي «عيسى بن منصور» مسئولاً عن اشتعالها بسياسته الخاطئة فعزله عن العمل .

والمرء لا يسعه إلا أن يسخر من أوصاف المستشرقين لحركة «البياماي» هذه ، وما نجه الخيال الطلق حول المستنقعات التي يسكنون أطرافها والأحراش التي يختبئون فيها ، والدروب التي ينقضون منها ، والهزائم التي أوقعوها بجيوش المسلمين برأً وبحراً (!) كأنهم يصفون قطعة من منطقة الغابات ، على شاطئ جزيرة في بحر الظلمات .

والأسطورة التي خلقت حول هذه القصة وروح لها الكاتب الكاثوليكي هذا الترويج ، إن دلت على شيء فعلي الرغبات المكبوتة لدى هؤلاء الناقمين .

إنهم يودون لو اندلعت في كل قطر من أقطار الإسلام ثورة جامحة من النصارى الذين يعيشون به .

وإن هذه الرغبة لتتجسم في مواقف القتال التي يتخيلونها ، ولا مكان لها إلا في أوهامهم المريضة !!

فإذا فتحوا أعينهم على الواقع الهادئ عادوا يبذلون جهوداً أخرى لتحريض الأقليات على التمرد والجحود .

فلجأوا إلى تحديعتها - بالكذب - بغية إحداث ما يرجون من شعب .



ولما كانت أرض الإسلام لا تعرف إلا مواطنين متساوين في الحقوق والواجبات  
مهما اختلفت أديانهم ، فإن الخطة التي اتبعها هؤلاء لإدراك غايتهم تقوم على إيهاام  
الأقليات بأنها مغبونة ، وإغرائها بالتزير قدر الاستطاعة من الحقوق ، والتخفف قدر  
الاستطاعة من الواجبات .

ولن يتم ذلك - حتماً - إلا على حساب الكثرة .

فإما تحقق هذا الافتيات واستئذ المسلمون فيها . . وإلا فإن شعور الأقليات - بعدم  
بلوغها ما تنشد - سيظل عاملاً قلق وغباب!!

وعندى أن الصليبية الغربية تحمل أوزار هذه الخطة الجائرة .

وهى لا تزال تسخر عملاءها فى الشرق لتجديدها كلما درست .

ونحن - بين الفينة والفينة - نرى جهود هذه العصابة المأجورة موصولة العناء لإعنات  
المسلمين والأقباط على السواء .

\* \* \*



(٧)

**حقائق لامندوحة عن ذكرها**

ويؤلمنا أن نفرأ من الأقباط قد افتنع بالخطئة الأنفة وقرر تنفيذها .

ونقول : نفرأ منهم ، لأننا نعرف كثيرين منهم على قسط كبير من دمنة الخلق وعدالة الحكم ومعرفة الواجب .

أما النفر الآخر فهو يرجو للمسلمين العنت .

ولو استطاع لألحق بهم الأذى ومسلكه - إذا تولى وظيفة - هو علة الاضطراب الذى يعكر ما بين المسلمين والأقباط من علاقات .

وأظن أن واجب الأقباط - قبل المسلمين - يتقاضاهم إقصاء هذا الصنف الحقود من ميدان الحياة العامة ، فإنه لو ملك زمام طائفته جر عليها الكوارث .

أما المسلمون ، فإنهم لم يكتفوا بالعدل حتى ضموا إليه الفضل ، فكان إحسانهم إلى الأقباط سيلاً غدقاً .

والكاتب الكاثوليكي الذى تكلم عن أحوالهم منذ الفتح يذكر فى جلاء تام أن الحكومة المسلمة وظفت الأقباط فيما يصلحون له من أعمال .

فكتب ص ١٠٥ تحت عنوان : « الأقباط يحتكرون الأعمال الإدارية » :  
« إن الأحداث التى ذكرناها لا تعنى أن الأقباط كانوا تعساء تحت حكم الولاة العرب ، بل إنهم كانوا أسعد كثيراً مما كانوا عليه أيام الرومان ، وبالرغم من جهود الخلفاء واهتمامهم بتطبيق تعاليم القرآن ، فإن الأقباط لم يقتصروا على شغلهم الوظائف الإدارية فحسب ، بل كان لهم الأمر والنهى فى بعض الأحيان ، وبقي نظام الضرائب والحسابات بين أيديهم مما أتاح لهم الفرصة لتحقيق مكاسب كبيرة .  
وكذلك يمكننا أن نقول :

إنه فيما يتعلق بالأقباط ظلت تعاليم القرآن غير معمول بها (!) .

وقد أظهر الخلفاء مراراً رغبتهم فى إبعاد الأقباط عن الوظائف الإدارية ، كما أظهروا خيبة أملهم - شفهيأً إن لم يكن كتابياً - ! كلما وجدوهم فى مناصبهم ، ولكن دراية « عمرو بن العاص » السياسية تغلبت على تزمى « عمر » الدينى . . . .

هذا الكلام الذى ذكره الكاتب ، تلمح فى ثناياه مشاعر الخسرة ، ونكران الجميل ، والكراهية العميقة للإسلام وأهله .

فلو أن لديه ذرة من إنصاف لذكر الحقيقة مجردة واعترف - راضياً أو ساخطاً - بأثارها البارزة .

إن الأقباط وظفوا فى شتى الأعمال وعلى مدى القرون .

فأما أن يقال : إن ذلك كان ضد تعاليم القرآن ، وأن الفضل فيه لعمره - كأن «عمر» طال عمره ألفاً من السنين وثلاثمائة أخرى !! - فكلام معروف أن الطعن فى الإسلام هو باعته وغايته!

لقد وظفت الحكومة الإسلامية الأقباط ، لأن الإسلام برىء من التعصب الأعمى .

والأفما الذى يضطرها إلى ذلك ؟

إن احتاجت إليهم سنة أمكنها الاستغناء عنهم فى السنة التالية ، بإخوانهم الذين أسلموا ودخلوا فى دين الله أفواجاً .

وذلك كله على التسليم بأن فى الأقباط كفاية إدارية وحسابية امتازوا بها على العالمين ، كما يزعم هذا الكاتب المسكين .

وإغاث هذا الكاتب فى شططه يشير الاستنكار .

فهو لما رأى الأقباط يوظفون فى كل عهد ، بدأ يعلل لكل عهد .

فأحاكم هنا محتاج إليهم .

وهنا يريد الاستقلال بمصر .

وهنا كان له أستاذ قبطى .

وهنا كانت له زوجة قبطية .

وهنا لأنه نصرانى فى السر! وهكذا . . .

فإذا فصل الأقباط من عمل صاح : عاد الحكم إلى تعاليم القرآن .

ونحن لا نقف عند نقیصة شخص كنود یجحد آلاء الإسلام علیه وعلى آله .  
ولكننا نجزع ونفرع عندما نرى هذه النعمة التي أسداها الإسلام قد كفرت على نطاق  
واسع ، وأن الموظفين الأقباط یعتبرون هذه السماحة المشكورة لونا من الغفلة الكبيرة  
تتيح لهم إیذاء المسلمین المسترسلین فی نقاوة صدورهم وبساطة سلوكهم ، وتمكنهم من  
إعلاء دیانتهم وخدمة مآربهم!!

وأنهم - كهذا الكاتب وهو موظف يأخذ مرتبه من حكومة مسلمة - لا یرون فی  
الإسلام إلا خرافة انتشرت بالعدوان ، فیجب أن تسام أمته سوء العذاب .  
نحن لا نرسل القوول على عواهنه .

فهذا الكاتب نفسه یحكي من أحداث التاريخ السود ما یدمغ أمثاله بانخسة  
والجحود .

الیس یذكر أن الخلیفة «أبا جعفر المنصور» أصدر أوامر دفیقة بإبعاد الذمیین من  
الوظائف ؟ ولماذا ؟ یقول فی ص ١٠٦ :

«إن هذا الإجراء لم یمهد له من قبل ، بل كان ولید ساعته ، فقد تقدم إلى الخلیفة  
فی أثناء فریضة الحج بعض المسلمین ، والتمسوا أن یحمیهم من جور النصارى» .

ویقول فی ص ١٠٧ : «الواقع أن الذمیین لم یقالوا من وظائفهم دفعة واحدة .

فإنهم - فی خلافة المهدي - أصبحوا أصحاب الأمر والنهی وأظهروا كبریاءهم  
حتى سخط علیهم المسلمون واحتجوا على ذلك» .

ویقول بعد ذلك : «استمر النصارى یتمتعون بشغل الوظائف كما كانت حالهم  
فی الماضي .

وأحسن دلیل على ذلك ما صرح به المأمون لكاتم سره ، لما كان فی مصر ، قال :

« . . لقد سئمت من الشكايات التي أتلقاها ضد النصارى ، بخصوص  
اضطهادهم للمسلمین وعدم نزاهتهم فی إدارة الشؤون المالية» (١) .

(١) هذه القوول ترجمها الكاتب عن الفرنیة . وشهدة فی روايتها علیه .

إن هذه الشكايات لم يختص بها عصر بعينه ، حتى نعرض عنها ، باعتبارها حالة شاذة ، بل سبقت في العهد الأموي ، واستمرت في العصر العباسي ، وترددت في مصر أيام الفاطميين والمماليك والأتراك .

وأطراد الشكوى على هذا النحو الدائم ، قد يفسر لنا سلسلة الأوامر التي كانت تصدر بعزل الأقباط عن الأعمال العامة ، وتنحيتهم عن المناصب التي يدفعهم التعصب الأعمى إلى ظلم الكثرة فيها .

على أن الأقباط لا يلبثون طويلاً حتى يعودوا إلى أعمالهم .

ولعل ذلك يرجع إلى أمرين :

الأول : أن سماحة الإسلام تجعل الشعب سريع النسيان ، قليل الاهتمام بملاحقة الفروق الدينية ، ضعيف الأخذ لنفسه إذا وقع عليه عدوان أساسه التعصب .

والآخر : أن فساد الحكم داء عضال في بلاد الإسلام .

فكثير من الولاة يحب السكر والعريضة والكبر .

ولن يعينه على دناءته تلك إلا أحد رجلين ، إما مسلم لا دين له ، وإما رجل ليست له بالإسلام صلة ، يهودياً كان أو نصرانياً .

ومن ثم كانت حواشي الأمراء في أغلب العصور تضم هذين الصنفين .

وقد أحسن الأقباط استغلال هذه الحال استغلالاً كبيراً لمصلحة طائفتهم الخاصة ، ونالهم من ورائها مغام جزئة .

والأقباط لا يلامون على هذا ، إلا إذا كنا نكلفهم حراسة الإسلام إن نام أهله عنه ! وإنما نحن نهز رؤوسنا عجباً إذا سمعنا أحداً منهم يتهم المسلمين بالتعصب .

وكان أولى به أن يتهمهم بالغباء . . . إلا إن كان في اتهامه الأول مآكراً أو هازلاً .

\*\*\*

وعندما اقتحم الإنجليز قناة السويس ، وأذلوا الوادي سبعين عاماً ، كان الإسلام مصاباً بطعنات نافذة من حكاهم الخونة .

ونظر الإنجليز إلى الدين الجريح وأهله المقهورين ، ثم قرروا الإجهاز عليه وعليهم .  
فرأى «لورد كرومر» أن يحكم البلاد بنفر يتخيرهم من الموظفين الأقباط .  
وقرر أن يستكثر منهم استكثاراً بالغاً في الدواوين والمصالح والمناصب الهامة .  
وأن يضيق الخناق على الأكثرية ، متخذاً آلاف الخيل لحرمانها من حقها .  
وإن كان لابد من توظيف بعضهم في عملٍ ما ، ففي أشغال الخدمة والدرجات  
الدنيا فحسب !!

وهذه سياسة صليبية قصد بها القضاء على الإسلام بأساليب «الدبلوماسية»  
الخبيثة التي برع الإنجليز فيها .

وكانت جرأة «كرومر» على وضع هذه الخطة وتنفيذها مستمدة من جهل الحكام  
الكبار جهلاً مطبقاً بالإسلام وحقوق أهله ، مما خيل إلى هذا الإنجليزي السليط أن في  
وسعه إعادة الحياة في مصر إلى ما قبل دخول «عمرو بن العاص» .

فلما استفاق المسلمون من آثار النكبة التي صرعتهم وقاموا يناوشون أعداءهم ،  
ويغالون بحياتهم ودينهم ، بدا كأن الأقباط يريدون الاحتفاظ بمنهج (١) «كرومر» في  
سياسة التوظيف (!) .

وحمل لواء هذه الفكرة الخاطئة لفيف من المتهوسين الأغرار ، في مقدمتهم  
الصحافي المعروف «سلامة موسى» .

\* \* \*

إن قلة الإنصاف تمزق الأرحام القريبة .

أفترأها تبقى على عقد بين شريكين ، أو عهد بين مواطنين؟

وإذا كان القرآن قد أوصانا بالأقباط إقسطاً وبراً ، ونبي القرآن عهد إلينا أن نسدى  
إليهم إحساناً وخيراً ، فهل مما يستزيد تلك المشاعر النبيلة ، ويستدرها أن نقسط فيقال :  
مضطرون ! أو نحسن فيقال : مغرضون !

فإن كنا أقوياء خردعنا ، وإن عرض لنا ضعف وجدنا الشماتة والتحدى .

(١) اقرأ في كتابنا «من هنا نعلم» فصل بين الهلال والصليب .



ونحن لا نأسى على ما دار من نزاع - طال أو قصر - حول سياسة التوظيف ، بقدر ما نأسى لمسك الموظفين الذين ائتمنتهم الكثرة على مصالح الدولة .

فإذا بالتعصب يسدل على أعينهم ليلاً طويلاً ، لا يرون فيه إلا أشباحاً تخلفها الكراهية العميقة للإسلام وأهله .

ذكر القلقشندى فى كتابه «صبح الأعشى» أنه فى أيام «الامر بأحكام الله الفاطمى» امتدت أيدي النصارى بالشر ، وبسطوها بالخيانة ، وتفنتوا فى أذى المسلمين ، وقد استعمل منهم كاتب يعرف «بالراهب» لقب بالأب القديس ، الروحانى النفيس ، أبى الآباء وسيف الرؤساء ، مقدم دين النصرانية ، وسيد البطركية ، وصفى الرب ومختاره ، وثالث عشر الخواريين .

صادر هذا «القديس» عامة من فى الديار المصرية من كاتب وحاكم وجندى وتاجر .

وامتدت يداه إلى الناس على اختلاف طبقاتهم .

فخوفه بعض مشايخ الكتاب بخالفه وباعثه ومحاسبه !

وحذره من عواقب صنعه وأشار عليه بترك ما يكون سبباً فى هلاكه ، وذلك بمحض من كتاب مصر وقبطها .

فرجع عقيرته قائلاً : «نحن ملاك هذه الديار حرثاً وخراجاً ، ملكها المسلمون منا ، تغلبوا عليها وغصبوها من أيدينا .

فنحن مهما فعلنا بالمسلمين فهو قبالة ما فعلوا بنا ، ولا يكون له نسبة إلى من قتل من رؤسائنا وملوكنا (!) فى أيام الفتوح .

فجميع ما نأخذه من أموال المسلمين ، وأموال ملوكهم وخلفائهم حل لنا ، وهو بعض ما نستحقه عليهم .

فإذا حملنا لهم مالا كانت المنة لنا عليهم .

فاستحسن الحاضرون من النصارى والمنافقين ما سمعوه منه (!) واستعادوه . ا . ه .

نقل الكاتب الصليبي هذه الرواية ، وكأنه يوعز إلى الموظفين الأقباط أن يعتنقوا أفكارها الباطلة ويسوسوا مصالح الدولة على هديها ! !

ولما كانت هذه المعانى التى عرف بها «الراهب» متوارثة متداولة ، فإننا نستغرب شيوعها وتساءل عن بواعث تكرارها .

لقد دخل الإسلام مصر وهى مستعمرة للرومان فحررها ، مما جعل أقباطها ينتعشون بعد هزال وضعه .

ثم ارتضى القسم الأكبر من الأقباط أن يعتنق الإسلام ديناً ، وبقي الفريق الأقل على نصرانيته .

ولم يستأثر من أسلم بوظائف الدولة كلها ، بل منح مواظيه حظهم منها .

فهل يكون جزاء المسلمين على إنصافهم واعتدالهم أن يحاول الفريق الأقل انتهاب كل شىء ، استغفالا لرئيس الدولة واستهتاراً بجمهور الشعب على النحو الذى قرأت نبأه؟

لماذا تنبض القلوب بهذا الحقد الدفين على دين أثر العفو على العقوبة ؟ واختار الجود على الشح ؟

إن النصرانية استأصلت خصومها استئصالاً بشعاً .

فهل الإسلام - حين يستبقى خصومه ويتلطف إليهم - يلقى منهم جزاء سنمار ؟

لقد ضاق جمهور المسلمين بما وقع عليهم من عدوان الراهب «ابن أبى النجاش» المستولى على الخليفة الفاطمى فقتل الراهب والخليفة ثم تعرض الأقباط بداهة لبعض الإيذاء .

بيد أن مسلك الموظفين لم يطرأ عليه تغير كبير .

فقد ظلوا على عيبتهم بمال الدولة ، وبقيت نظرتهم الضيقة العظنة إلى أنه حل لهم ، يعبون منه كيف شاءوا ، محتجين بأنه حقهم الذى اغتصب منهم منذ الفتح !

حتى جاء «تابلين بونابرت» إلى هذه البلاد ، ورأى فى فترة الاحتلال الفرنسى وانقطاعه هو ورجاله عن وطنهم أن ينظم شئون الإدارة والمال ، فهاله ما كان يصنع الأقباط بها ، وفطن إلى سيرتهم المريبة .

وانك لتقرأ اعتراف الكاتب نفسه بهذه الحقيقة فى قوله فى ص ٢١٣ :

« . . . نعم إنه استعان بهم في جباية الضرائب كما فعل المالك من قبل لكنه اتخذ هذا الإجراء مرغماً ، إذ كان يتحدث عنهم بقوة شديدة فيقول :

«إنهم لصوص مكروهون في البلاد غير أنه يجب سراعاتهم لأنهم يعرفون الأصول العامة لإدارة البلاد دون سواهم» .

لذلك عين المعلم «جرجس الجوهري» مباشراً عاماً وحوّله السلطة على سائر المباشرين ، وعلى أن يكون معه موظف فرنسي لمراقبته .

ثم لم يزل «بونابرت» منذ هذه اللحظة يشرف أول فرصة للتخلص من الجوهري .

فلما ترك القائد الفرنسي مصر أرسل إلى الجنرال «كليبر» كتاباً مؤرخاً في ٢٢ أغسطس ١٧٩٩ يقول فيه بصراحة :

« . . . كنت مزعماً - إن سارت الأمور سيرها الطبيعي - أن أضع نظاماً شديداً للضرائب يجعلنا نستغني تقريباً عن خدمات الأقباط . . . »<sup>(١)</sup> .

وفي صفحة ٢١٩ يقول : «خلف «مينو» الجنرال «كليبر» .

ولما كان «مينو» رجلاً إدارياً فقد أظهر ريبته من المباشر القبطي الذي كان غير محبوب من الفرنسيين ، وكان الفرنسيون يعاقبون - بقسوة - المباشرين الأقباط الذين اختلسوا الأموال .

وكانوا يتربصون الفرصة للاستغناء عن هؤلاء الموظفين غير المخلصين .

وفي شهر «فاندميير» عام ٩ من الثورة اتهم «أستيف» الأقباط باختلاس ١٢٩٣١٤٣ جنيهاً على حساب دافعي الضرائب ، فأمر «مينو» بالقبض على المباشر «أبي طقية» وتغريمه ٧٥٠٠٠٠ جنية لتعويض الخسائر .

ومسلك «مينو» في تغريم الأقباط هذه المبالغ الجسيمة يفسر لنا ما كان يصنعه الولاة من مصادرات متكررة لما يتجمع في أيدي الأقباط الموظفين من أموال .

(١) حصل الكاتب على نصوص هذه الوثائق من مذكرات مطبوعات المكتبة الخاصة للملك السابق .

وكان الكاتب الصليبي يعتبر ذلك آية تعصب المسلمين ، وافتياتهم على الأقليات و . . . و . . . وليس استرداداً لما وقع من سرقات .

ويقول الكاتب نفسه : « . . . نقرأ أيضاً في البند الرابع من الأمر المؤرخ ١١١٠ » «فاندمبير» عام ١٠ الخاص بإعادة تنظيم الإدارة المصرية .

«إن الأقباط ما هم في مصر إلا أقلية مكروهة من المسلمين لأنهم يعملون على إثارة هذا الحقد عليهم .

إنه يجب أن نضمن لهم العدل والحرية .

ولكن ليس من الحكمة - بل من الخطر - أن نتحالف معهم ونمنحهم امتيازات ، لذلك سيحضر رؤسائهم ورؤساء الأمتين اليونانية والسورية جلسات الديوان على أن يكون رأيهم استشارياً فحسب» .

وعمل «مينو» على تحقيق مشروع «بونابرت» الخاص بتجريد الموظفين الأقباط من امتيازاتهم .

فألغى - فعلاً - وظائف المباشرين في النظام الإداري الجديد» ص ٢٢٠ .

إن الحكومة لا تقوم على السرقة ، وشئون الدولة لا تصلح بالفوضى .

ومهما رحب الأقباط بدخول الفرنسيين مصر ، فإن قواد الحملة لا يكثرثون بهذا الترحيب إلا في حدود ما يضمن انتظام الأمور في أيديهم .

وقد انتفعوا بالأقباط - رجالاً ونساءً - على ما سنعلم بعد ، انتفعوا بهم على الأسلوب الذي يتقنه المحتلون الأجانب دائماً ، عندما يضربون كتلة الشعب ببعض الخونة .

فليسوا - في أيديهم - إلا أدوات تستعمل بقدر ، ثم تهمل إذا قلت جدواها .

وقد احتال «نابليون» لترضية المسلمين بكل ما لديه من وسائل .

لكن المسلمين أبوا إلا الثورة عليه ، فما اعتبروه إلا مغامراً لإذلالهم وغصب بلادهم .

أما النصارى فقد انضموا إليه قلباً وقلباً .

(١) يقصد عام ١٠ من ثورة فرنسا التي قامت ١٧٨٩ .

فكان همُّ نابليون الأول أن يعالج من استعصوا عليه بعد أن وضع في جيبه من استراحوا لمقدمه .

فكتب لقواده في مناسبات عديدة يقول لهم :

«مهما فعلتم تأكدوا من أن النصرارى فى صفكم ، فلا تترددوا إذن فى تفضيل المسلمين على النصرارى» .

وكرر هذا القول على الجنرال «كليبير» قبل رحيله إلى فرنسا .

ولما انتصر على القوات التركىة فى «أبى قير» وأراد أن يطمئن الأعيان والعلماء صرح علانية :

«نعم إنى أكره النصرارى ، لقد مسحقت ديانتهم وهدمت هياكلهم وقتلت قساوستهم ، وهشمت صلبانهم ، ونكرت أيمانهم .

وعلى الرغم من ذلك . فإنى أراهم يفرحون لفرحى ويتألمون لألمى .

فهل من المعقول أن أعتنق من جديد الدين المسيحى ؟

وما هى الفائدة التى سأجنيها من هذا العمل ؟» .

وهذا التصريح يومئى إلى ما صنع «نابليون» فى أوروبا عندما حمل روح الثورة الكبرى فى فرنسا ثم طوف بها الأفاق ، وأزاح العوائق التى وضعتها الكنيسة فى طريقه .

وكانت الكنيسة يومئذ معقل الرجعية التى أزررت الملوك وأهانت الشعوب وقد جاء «نابليون» مصر بهذه الروح .

فهو ابن الثورة التى كفرت بالنصرانية خادمة الاستبداد ، وقاهرة العلماء ، وقاتلة الخريجات .

غير أن أقباط مصر هرعوا لاستقباله بوصفه أنه رجل مسيحى جاء ليحتل بجيشه بلاد الإسلام .

ولم يترددوا فى تكوين فرقة مقاتلة تنضم إلى عسكره ، يرغم أن هذا القائد لم يتناول الأمور بعاطفة صليبية متعصبة .

فهو - أولاً واخراً - وليد ثورة معروفة المبادئ والأهداف : لم تبال بتحطيم الكنيسة وقتل قساوستها عندما وقعت ووقتوا في طريقها .

ونحن نكرر العجب من مسلك الأقباط بإزاء من عاشوا معهم عصوراً وتركوا لهم الوظائف المالية يعبون منها كيف يشاءون .  
أجل نعجب !

فما كذلك يرد الجميل ، ولا كذلك يدافع عن الوطن ، الوطن الذي يزعمون أنفسهم أصحابه الأولين .

أبلغ التعصب ضد الإسلام أن يرفض في ظله الأمان ، وتقبل في ضلال غيره الدنيّة ؟ ! ولكن . . . إن هذا هو الذي حدث .

#### بظر المدللين :

أجمع المؤرخون على أن الأقباط كانوا مستغلين أيام احتلال الرومان لمصر ، وأن هذا الاستغلال بلغ مداه قبيل الفتح الأعظم .

فإن الرومان ، وإن كانوا نصارى يومئذ كأهل مصر ، إلا أن الاستعمار لا يعرف غير علاقة السيد بالعبيد .

يضاف إلى ذلك ما قرناه من اختلاف الآراء في فهم عقيدة التثليث .

فإن أقباط مصر كانوا «يعاقبة» لهم في فهم هذه عقيدة مذهب يخالف ما استقر عليه الأمر عند الكاثوليك الرومان .

واختلافات النصارى الدينية تحمل طابعاً عنيفاً بصطيغ - غالباً - بلون الدم .

وقد انتهى أمر القبط إلى أن فقدوا حريتهم الدينية والمدنية فلم يرفعوا رءوسهم إلا منذ تمكن المسلمون من سحق قوى الرومان في عشرات الميادين التي احتدم فيها القتال من آسيا إلى إفريقيا .



استرد الأقباط حرياتهم المفقودة ، فاسترجعوا الكنائس التي سلبت منهم ، وأحيوا فيها ما مات من شعائرهم ، وأسهموا في حكم البلاد بعدد كبير من الموظفين ، وانتهى إلى الأبد عهد الفتن الذي كان يحرق بطارقتهم ثم يرمى بهم في أعماق اليم .

ذلك أن المسلمين لا يفقهون منطق الإكراه في العقيدة .

ولسنا نزعم أنهم لا يعرضون دينهم على الناس ، كلا .

إنهم يذكرون به ، ويشرحون أصوله ، ويبسطون دعوته .

فمن آمن رحبوا به ، ومن أعرض عنهم فهو على عقد الذمة .

يعيش بين المسلمين كواحد منهم ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم .

ولا يوجد في الدنيا امرؤ ينقد هذه المعاملة المقسطة . إلا أن الأقباط فوجئوا بأمر لم يكن في حسابهم .

هو أن جمهوراً غفيراً منهم ينفض من حول الكنيسة ويدخل في الإسلام .

وأن هذا الجمهور يتضاعف عدده على مر الأيام .

وقد حزن البطارقة والقساوسة لهذا الحدث الجلل .

إنهم رحبوا بدخول العرب محررين ، ولم يدر يخلدهم أن تتحول رعييتهم - بين عشية وضحاها - إلى مسلمين !

ولكن ماذا يصنع العرب ؟

أكانوا يصدون - بالقوة - من يدخل في دين الله بمحض مشيئته ؟

يبدو أن ذلك ما كانت ترقبه الكنيسة القبطية !!

فلما تتابعت السنون والمسلمون يرحبون بمن ينضم إليهم ، والكنيسة ترى نفسها كجزيرة انحصرت وراء فيضان طام من أتباع الدين الجديد ، دبت إليها مشاعر الكراهية للإسلام ، وشرعت تظهر حيناً وتضمحل حيناً تبرمها به حكومة وشعباً . .

ونحن نفهم تشبث الكنيسة بالحياة ، وسخطها من تحول الشعب عنها ، وقد نعدرها إذا احتد غضبها .

بيد أنها - على تغير الأحوال - ينبغي أن تدرك حقيقة وضعها ، وأن تعترف بالنظور الواقع - فليس منه بد - .

وإذا فكرت في وضع عقبات دون تفلت أبنائها عنها - ومن حقها ذلك - فليكن تفكيرها في حدود معقولة كريمة . .

أعنى أنه لا يجوز أن تجرح المسلمين في الداخل ولا أن تتآمر على سلطانهم مع الخارج .

فإن العهد الذي يحوطها بسياج من الرعاية والحماية يفرض عليها ذلك .

فإذا حدث أن بذلت جهداً مدنياً أو عسكرياً لإسقاط الإسلام كدولة حاكمة ، فإن هذا يبت عهود الذمة المبرمة بينها وبينه .

ولا شك أن رجال الكنيسة أحسوا هذه المعاني ، وقد التزم الرجال الرسميون منهم بالمحافظة عليها .

غير أن أموراً أخرى كانت تجرى من وراء ستار .

إذ اندفع الطائشون والناقمون يشنون على الإسلام حرباً من البغضاء والتريص .

ويجمعون فلولهم الباقية ثم يجمعون على سياسة من الكيد والاحتتيال لإلحاق الأذى بهذا الدين ووقف زحفه المتلاحق .

ولئن انكشف جزء من هذه السياسة الخبيثة في مسلك الموظفين الأقباط - الذي أوضحناه - منذ الفتح ، إن الجزء الأخطر يتعدى حدود العراق على المناصب الحكومية وإساءة استغلالها . . . إلى سياسة الحكم الإسلامي في الميدان الدولي الكبير . وهنا الخطر كله !!

ذلك أن صفار القسس والرهبان علقوا قلوب رعاياهم بالنصرانية المتأهبة هناك خلف الحدود !

إن انتشار الإسلام بهذه السرعة الخاطفة جعلهم يجفلون منه على مصيرهم .

فتناسوا الأهم الماضية ، وأسسوا آمالاً جديدة في بقاء النصرانية الرومانية تقاوم الإسلام وتقاتل المسلمين .



وسرت هذه العواطف الجديدة فى صفوف الأقباط ، فأضحوا يتابعون أنباء الصراع بين المسلمين والرومان خارج الحدود باهتمام بالغ .

فإن انتصر الرومان استبشروا ، وإن انهزموا وجموا .

وكان المسلمون - مع هذه الأحوال المنكرة - لا يظلمون الأقباط ذرة من حقوقهم العامة . ومع ذلك فإن الأقباط ناقدون !!

﴿وَمَا نَقْمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾<sup>(١)</sup> .

ولنعد إلى الماضى البعيد نبش دقائمه ، ولنترج مع الحوادث حتى نصل إلى هذا العصر .

\* \* \*

يقول «ميخائيل السورى» : «إن «عمر بن عبد العزيز» أساء معاملة النصارى حين اضطرت جيوشه إلى رفع الحصار عن القسطنطينية بعدما تحملت خسائر فادحة» .

ونقول : إن «عمر بن عبد العزيز» ليس الخليفة الذى يقترف المظالم ضد بشر ، إن الحكام المستبدين فى بنى أمية لم يتهموا بهذا ، فكيف يُنسب إلى أعدل رجل فيهم ؟ غاية ما هنالك أن النصارى أظهروا الشماتة لهزيمة المسلمين .

وتلك مشاعر منحرفة من قوم يستظنون بالراية الإسلامية .

ومع انحرافها لم يلحقها المسلمون بالقمع العنيف .

وتكررت القصة أيضاً أيام «المهدى» ، عندما انهزمت بعض فرقه أمام الرومان .

يقول «ميخائيل السورى» : «فأرسل «المهدى» محتسباً لهدم الكنائس التى بنيت فى عهد العرب ...» .

ونحن نستبعد وقوع ذلك . ولعله - إذا وقع - راجع إلى زياط بعض النصارى فى معايدهم عقب انتصار الرومان .

ويقول الكاتب الصليبي فى ص ١١١ :

«... ثم جاء «هارون الرشيد» ففرض على الذميين زياً خاصاً .

(١) التوبة : ٧٤ .

ذلك لأن سكان الحدود كانوا يتجسسون لمصلحة الإمبراطور «نقيفور» الروماني .  
ويلوح أن هذا الإجراء لم ينفذ إلا في مدينة بغداد . أما أقباط مصر فلم ينلهم  
منه شيء .

ومسألة أفراد النصراني بزي خاص وشارات معينة ليست حكماً دينياً ، وإنما هي  
تشريع سياسي أوجت به ضرورات عسكرية .

وظاهر من تصرف «هارون» أنه وضع هذا التقليد محاربة للتجسس ، ثم امتد بعد  
ذلك مع بقاء ضروراته ، واختفى مع اختفائها .

على أن الحرب بين المسلمين والروم لم تهدأ في ميدان إلا هاجت في ميدان آخر ،  
وللحرب وقودها الدائم من الهام والخطام .

ولا ريب أن المسلمين كانوا يتلقون أنباءها على الخالين بوجل .

فضحاياها منهم إن انتصروا ، وعقباها عليهم إن انكسروا .

فإذا تلفتوا حولهم فوجدوا جيرانهم من النصراني يرحبون بما يصيب المسلمين من  
هزائم ، ويتضحكون لما يلحق بهم من خسائر ، فإن ذلك لا ريب يحطم صلوات المودة  
المرجوة بين الفريقين .

وليت النصراني كتبوا عواطفهم تلك في أنفسهم ، وتظاهروا بالحياد التام في هذه  
المعارك الحساسة .

إن المسئولين من رجالهم الكبار فعلوا ذلك طبعاً .

وقد قابل الولاة المسلمون هذه المجاملات الظاهرة ، وأعطوها حقها من الاعتبار .

وكانت الأعياد والمواسم العامة تمر في تبادل الفريقان فيها التهاني المعتادة ، ويحاولان  
نسيان ما كان .

فإذا حدثت حرب أخرى بين المسلمين والرومان تكررت المأساة من جديد ، وعالجها  
المسئولون من جديد .

في عهد «كافور الإخشيدى» أحرز الإمبراطور الروماني نصراً كبيراً على حدود

الشنام ، واغتاز المسلمون المصريون لما وقع بهم ، على حين لزم النصارى خضعتهم ، فحاول  
الدهماء مهاجمة كنائسهم وألفوا مظاهرات كبيرة لذلك .

بيد أن الحكومة فرقنها بالقوة .

ويقول في ذلك المستشرق «جاستون فييت» : «إن الحكومة لم يكن لها يد في تلك  
الاضطرابات الشعبية» .

وزيادة في طمأنة النصارى أصدر الخليفة مرسوماً سنة ٣١٣ هـ أسقط فيه الجزية عن  
الأساقفة والرهبان والمعوزين .



وقد انتقل العطف على الروم من مشايعة بالقلب ، وتأييد عن بعد ، إلى معاونة  
فعالة ضد المسلمين وقواتهم المعدة للقتال .

روى «سعيد بن يحيى الأنطاكي» قال : كان «العزیز» قد اعتزم أن يغزو بلاد الروم  
وأمر «عيسى بن نسطورس» بإعداد الأسطول ، وعزم على تسييره بعد صلاة الظهر من  
نهار الجمعة ف وقعت فيه نار أحرقت منه ستة عشر مركباً .

واتهم الجمهور بحرقه تجار الروم الواردين بالبضائع إلى مصر .

فشارت عليهم الرعية والمغاربة ، وقتلوا منهم مائة وستين رجلاً ، ونهبت كنيسة  
«ميخائيل» التي للملكيين بقصر الشمع ، ونهبت كنيسة النسطورية وركب  
«ابن نسطورس» وقت النهب ، ونزل إلى مصر ، وتقدم بكف الأذى عن الروم ، والمنع  
من معارضتهم ، ونودي في البلد أن يرد كل واحد من النهاية جميع ما أخذه ، فرد  
البعض من ذلك وأحضر من سلم من التجار الروم ، ودفع لكل واحد منهم ما تعرف  
عليه ، وقبض من النهاية على ثلاثة وستين رجلاً ، وأمر «العزیز بالله» بإطلاق ثلثهم ،  
وضرب ثلثهم ، وقتل ثلثهم» ا . هـ .

قال الكاتب الصليبي - بعد أن قص هذه الرواية - : «كان من شأن هذا الإجراء  
زيادة غضب المسلمين ، وإذا كان «الحاكم بأمر الله» قد اضطهد النصارى يوماً ، فلم  
يكن ذلك إلا إرضاء لروح الانتقام التي استفزت قلوب الناس» .

والحق أن الحاكم كان أحمق ، وقد عم ظلمه المسلمين والنصارى .

ونحن لا نعرف في تاريخنا - على طوله - حاكماً رسم سياسة اضطهاد للنصارى .  
وقد كانت للنصارى أخطاء جمّة .

ولكن حكامنا - في معاملتهم - كانوا يسيرون على قاعدة «لأن تخطئ في العفو خير  
من أن تخطئ في العقوبة» .

وجريمة حرق الأسطول ليست حادثة تافهة .

والقول بأن الروم الواقدين بتجارتهن إلى مصر هم مرتكبوها ، قولاً لا يقنع الباحث .  
فإن مثل هذا العمل الخطير لا يتم إلا بعد مؤامرة محكمة من قوم مقيمين .  
ومن حق الشعب أن يهتاج لما وقع وإن كنا لا نبرر أعمال القتل والنهب .  
وقد تعقبتها السلطة القائمة بأشد النكال .

ونكرر أن تلك الأحداث - على دلالتها السيئة - لم تخرج مركز الأقباط في مصر قط  
ولا مركز النصارى في سائر بلاد الإسلام .

ولا محل للمقارنة بين اليهود أقلية في العالم المسيحي ، وبين المسيحيين أقلية في  
العالم الإسلامي .

أجل ، لا محل لهذه المقارنة ، فإن النصارى عندنا كانوا يتولون في الدولة وظائف  
جليلة يأمرون فيها وينهون .

على حين كان منتهى ما يصبو إليه اليهود بين النصارى أن يظفروا بحق الحياة .  
ولو أن جزءاً من مائة من التهم التي وجهت للنصارى عندنا وجهت لليهود في  
ملكه الرومان لاستأصلتهم استئصالاً .

واننا لنحس مرارة في حلقنا من كفران النصارى لهذا الفضل .

ونرمق موقفهم من الغزاة في الحروب الصليبية وما بعدها ، فنضرب كفاً على كف !!!

**الصليبيون ونصارى المشرق :**

ما أكثر الشخصوس المهازيل في أحفاد العصاميين الكبار !!

ذهب الجيل الأول من حملة الإسلام ، وأعقبتهم خلوف حملهم الإسلام فناءً

بهم .

ذهب الذين دابوا في إمداد العالم بضياء الإسلام ، كما تدوب انشمعة في إمداد ذبالتها باللهب وجاء من بعدهم حكام يأكلون بالإسلام ويتمطون تحت ظلاله الوارفة ، ولا يحملون له عبثاً ، ولا يحسنون له بلاغاً ولا يطيقون جهاداً . . تعاركوا على الحكم لأنه متعة وجاء ، فتشعبت أهواؤهم عليه .

وتفرقوا شيعاً فكل قبيلة فيها أُمير المؤمنين ومنبر !!  
أفكان هذا النزاع الآثم على الإمارة والمنابر ينشأ لو أن الإمارة محنة يبئلى بها أو لو أن المنابر مصادر توجيه ومنابع تربية؟

فلما هانت الخلافة فأصبحت منتجع الأدعياء ومرترق الظالمين ، وأصبح المدين لغواً على الألسنة وكثر الرواد وقشت الأحزاب وضاع أمر العامة ، استفتح المسلمون القرن السادس من تاريخهم وقبضات الصليبيين تفرع أبوابهم بعنف ، ولطرقها دوى يسمعه المشرقان .  
كان الأجداد الجادون قد ولوا ، وبقي الأحفاد اللاهون .

فلما انسابت جحافل النصارى ، اندفعت في سهل لبين كالفيضان الزاخر لا يوقفه شيء .  
وحاق بورثة المجد الغارب جزاء ما فرطوا ، فكانت المذابح الشنعاء ختام اللهو واللعب .  
﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهَمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ \* وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ \* مَا نَسِيقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾<sup>(١)</sup>

\*\*\*

خرجت «أوروبا» عن بكرة أبيها ، في تعبئة لم تشهد القرون الأولى كنفاتها .  
وولّى الصليبيون الزاحفون وجوههم نحو الشرق الأوسط .  
يحدوهم الحقد الدفين وتسيطر عليهم فكرة واحدة ، هي أن يستأصلوا الإسلام استئصالاً ، ويمحووا نفوذه محو تاماً .  
وليس هنا مجال سرد تاريخ الحملات الصليبية ونتائجها<sup>(٢)</sup> .

(١) الحجر : ٣ : ٥٠ .

(٢) عن الحملات الصليبية وأحداثها انظر : ابن كثير - البداية والنهاية . . والدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور - الحركة الصليبية - جزآن - طبعة دار الأنجلو المصرية .

ولكن المؤرخ المسلم فى مثل هذه الخلاصة العاجلة لا يفوته أن يقرر عدة أمور :

أولها : أن المؤرخين مجمعون على أن أمراء المسلمين لو وحدوا كلمتهم ، وواجهوا هذه الفلول المنطلقة لالتهامهم . لصرعوها فى منتصف الطريق إلى أرض الإسلام ، ولنجوا من فظائنها .

غير أن المسلمين كانوا فى سبات عميق ، وكانت أزمة أمورهم قسمة ضيزى بين أبناء «على» ، وأبناء «العباس» ، وأبناء «أمية» .

وانسى - كمسلم - أمسح عرق الخجل عن وجهه ، إذ أرى قياد دين الله بين هؤلاء المقائيك من ورثة أمجاد الجاهلية القذرة .

وأشعر أنه كان من المستحيل أن يتحد هؤلاء على صلاح دين أو دنيا .

فإن صلاح الدين والدنيا فى زوالهم من ميدان السياسة العامة .

وثانيها : أن انسياق هؤلاء الصليبيين فى الشرق الأوسط بعد ما تحول أرضاً إسلامية يذكرنا بانسياق المسلمين فيه يوم كان أرضاً مسيحية ، كما يذكر الضد بال ضد والبياض بالسواد .

فالمسلمون الأولون - كما جلونا لك صور الفتح - كانوا حملة مبادئ يعرضونها وبيجادلون عليها .

أما الصليبيون الفاتحون اليوم ، فهم كالجزار الذى لا يعرف إلا الذبح ، أو الخمور الذى لا يحسن إلا الهزر والفوضى ، فكان الناس يفرون مذعورين من طريقهم كما يفر طلاب الحياة من الوباء العاصف .

بل إن نصارى الشام من اليعاقبة يخافوا الهلاك على أيدي هؤلاء العميان ، ففروا من وجوههم إلى مصر .

والأمر الأخير الذى نحب التنبيه إليه ، أن هذا الزحف الصليبي صورة للتفكير الضيق الذى لا يعرف الباباوات والأباطرة غيره .

فالإبادة هى أسلوب المعاملة الأول والأخير إذا ذكر الإسلام والمسلمون .

ونريد أن نسأل كل عاقل : ماذا نضع بإزاء من لا ينظر إلينا إلا من خلال هذه الزاوية القانية ؟

إننا نسأل العقلاء ، ولا نسأل الأفاكين الذين يبررون الجرائم التي يرتكبونها بجرائم يختلقونها ثم ينسبونها إلى الأبرياء الأظهار كما يفعل الكاتب الكاثوليكي المفضل ، حين يذكر مذبحه «بيت المقدس» التي أبيد فيها المسلمون فيقول :

«على أثر قيام المذابح العظيمة التي كانت سبباً في إخلاء مدينة «القدس» من سكانها المسلمين الذين سبق لهم إبادة العناصر النصرانية ، قرر «بودوان» تعميرها بالنصارى الشرقيين» ص ١٦٢ .

أقرأت هذه الجملة الرقطاء المسمومة التي يقطر كل حرف منها إفكاً وكفرًا ؟

إنه يريد تخليص الصليبيين من سبة إبادة مسلمي القدس ، فيخترع أسطورة من لدنه ، يوهم بها أن المسلمين سبق أن أبادوا العناصر النصرانية .

وهي أكذوبة لم يجرؤ على تزويرها مؤرخ في القديم والحديث .

لو كنا ممن يلجأ إلى حرب الإبادة ما ولد في بلاد الإسلام مثلك أيها الكاتب الكاثوليكي الحقود ، لأن آباءك نالوا حق الحياة في العفو السمع الذي بذله عن طواعية المسلمون المنتصرون .

ولو شاءوا أن يثأروا لمذبحه بيت «القدس» لعمروا القبور بجثث المجرمين الذين سبقوا بالغدر وقتلوا الأمنين .

\* \* \*

ويقول المؤرخ «ميشو» واصفاً قادة الحملة الصليبية وفرسانها :

«كان البارونات والنبلاء يجهلون - لغلظتهم - الكلمات المعبرة عن حقوق المرء ، وكان أفق علمهم مقصوراً على ميادين الحروب . وهي سياسة الأمراء والدول في ذلك العصر» .

يعنى أنهم كانوا قطعاناً من البشر ، لهم بغام كقوافل الذئاب المنطلقة للبحث عن

فريسة!!

أما الكاتب الصليبي فيفسر هذا الوصف فيقول : «إنهم كانوا يأنفون لزهوهم وكبريائهم من الالتجاء إلى الطرق السلمية ليصلوا إلى رغباتهم» ص ١٥٤ .  
إنه يريد أن يخلع عليهم من عنده شيئاً يشرفهم !! وينفض الغبار عن سيرتهم الحيوانية !!

ويروى «ميشو» أن الفاضمين عرضوا على الصليبيين «فتح أبواب المدينة المقدسة لجميع الحجاج ، على أن يأتوا مجردين من الأسلحة ، وألا يظلوا بها أكثر من شهر . . .» .  
وأن الصليبيين رفضوا هذه العروض وقالوا للوفد المصرى الذى جاء بها :  
« . . اذهبوا وقلوا لمن أرسلكم أن يختار الحرب أو التسليم ، قولوا له : إن المسيحيين المعسكرين أمام أنطاكية لا يهابون شعوب مصر ولا الخبشة ولا بغداد ، وأنهم لا يتحالفون إلا مع الدول التى تحترم القوانين العادلة وأعلام يسوع المسيح» .  
والقوانين العادلة التى طبقت تحت أعلام السيد المسيح حين رفرت على بيت المقدس هى . . الذبح !!

لندع أخبار الصليبيين الزاحفين على المشرق ، ولتعد إلى أخبار الصليبيين المقيمين فيه من قديم ، الصليبيين الذين كانوا - كما ذكرنا آنفاً - يتسمون أبناء الحروب الدائرة بين المسلمين والروم .

فإن وجدوا أبناء دينهم غلبوا استراحوا ، وإن سمعوا بهزائمهم عراهم وجوم .  
هؤلاء النصارى الذين أكرمهم المسلمون وبلغوا فى التلطف معهم أن وصلوا فى الوظائف إلى منصب الوزارة ، ما إن سمعوا بهجمات الصليبيين حتى بادروا إلى انتهاز قرص الخيانة .

ويروى الكاتب نقلاً عن «ميشو» و «جروسيه» فى ص ١٦٠  
«الأرمن أول من ساعد الصليبيين أثناء اجتيازهم آسيا الصغرى ، وأن «بودوان» - قائد الحملة - لم يكن محتاجاً إلى مرشدين - يعرفونه الطرق - فى بلاد كان سكانها يعرضون عليه مساعدتهم . . .» .  
ثم يقول فى الصفحة نفسها :

« . . . وحذا اللبنانيون حذو الأرمن ، فقدموا معاونتهم للفاتح ، وكانوا له خير معين .



وكان يوجد وقتئذ في بيروت عدد كبير من النصارى الملكيين والبيعاقة ، لم يترددوا جميعاً في مناصرة الصليبيين ، ومصاهرتهم بالزواج فزاد عدد الأسر الأوروبية ، وكانوا يؤلفون أغلب الأطباء والصيادلة في الجيش والمعسكرات .  
أضف إلى ذلك أنهم يضطلعون بأعباء الترجمة في مختلف الدواوين .  
ويقول كذلك : «ارتاح الصليبيون واطمأنوا لموقف هذه العناصر .

إذ إنهم وجدوا فيهم حلفاء مخلصين في قلب الإمبراطورية الإسلامية . . لم يكن لهم إلا عدو واحد . وهو المسلم» .

أمام هذه الخيانات الواضحة لم يز «صلاح الدين الأيوبي» بدأً - حين عينه الخليفة «العاقد» وزيراً له - من إصدار أمر يحرم على الذميين شغل وظائف الدولة .  
إذ كيف يملؤها بالجواسيس والخونة ؟

لكن الكاتب المتحامل يعقب على هذا التصرف بقوله في ص ١٦٤ :

« . . وكان صلاح الدين متديناً ، فلم يحاول تحرير مبادئه» .

يعنى أن «صلاح الدين» خضع لتعاليم الإسلام في عدم توظيف الذميين .

وكان يجب عليه أن يتحرر منها ليكون رجلاً راقياً .

أما مسلك أبناء جلدته فلا غبار عليه .

إن هذا المسلك أغضب كثيراً من المسلمين حتى فكر بعضهم في التخلص من هذه الأقليات الحقود .

ذكر «ميخائيل السورى» في تاريخه : أن «نور الدين» كتب إلى الخليفة العباسى يقول له :

«إن المسلمين حكموا خمسمائة عام لم يسيئوا خلالها إلى النصارى .

أما الآن وقد انصرمت هذه الأعوام . فيجب ألا يبقى هؤلاء النصارى في البلاد الإسلامية ( من لم يسلم منهم يقتل )» .

فأجابه الخليفة العباسى :

«إنك لم تفهم أقوال النبىؐ ، إن الله لا يأمرنا أن نقتل من يرتكب السوء» .

نحن نفهم غضبة «نور الدين» ، ونشاركه تأذيه من جحود النعمة وكفران الصنيع ،  
فالمسلمون ظلوا طوال القرون التي سبقت الهجوم الصليبي يعدون النصارى جزءاً من  
الرعية الإسلامية في الحقوق والواجبات .

بل إن حظهم كان أفضل من المسلمين أحياناً ، فلم هذا التنكر ؟

إن الإحسان الضائع لدى يجرح الصدر .

وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ :

«ثلاث من الفواقر - المصائب التي تقصم الظهر : إمام إن أحسنت لم يشكر وإن  
أسأت لم يفتقر ، وجار سوء إن رأى خيراً دفته ، وإن رأى شراً أذاعه ، وامرأة إن  
حضرت أذتك ، وإن غبت عنها خانتك» .

إن هذه الفواقر تجمعت نقائصها في مسلك الخونة من أهل الذمة .

بيد أن الخليفة العباسي التزم حكم الإسلام الدقيق في أمر الكفر والإيمان والقتل  
والإحياء ، فلم يوافق وزيره على مقترحه .

ومسلك الخليفة يستحق التنويه .

فقد ضبط أعصابه أمام سبل من الخيانات ونفذ قول الله في كتابه :

«وَلَا يَجْرِمَكُمْ شَتَانُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلا تَعْدُوا أَعْدَاؤَهُمْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ  
خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ»<sup>(١)</sup> .

ويصف «رينو» صلاح الدين قائلاً :

«الغريب أنه لم يكره النصارى كأفراد ، بل كان يكرههم كأمة .

فلما هزمهم سرعان ما تغير موقفه نحوهم .

وأية ذلك : أنه لم يكتف بالتسامح مع أقباط مصر - وكان عددهم وقتئذ كبيراً

نوفاً - .

بل احترم كذلك عهدهم ، وجعل بعضهم في خدمته» .

ونظن «رينو» يقصد أن «صلاح الدين» يكره النصارى دولة ، ولا يكرههم فرادى .

وهذا تصوير صحيح لمشاعر القائد المسلم .

(١) الثالثة : ٨ .

فإن الدولة في يد النصرانية سلاح قاتل للحرريات والكرامات فيجب أن تجرد منه .  
بل إن الأوروبيين فعلوا ذلك كما نبهنا سابقاً .

أما النصارى - أفراداً - فلا يملكون فتنة أحد عن دينه .

ومن أحسن منهم في ظل الحكم الإسلامى استحق الرعاية والتقدير .

لكن الكتاب المسكين يخالف «رينو» فى حكمه على موقف «صلاح الدين» من  
النصارى ، ويقول فى ص ١٦٤ .

«... نعتقد أنه لا يميل إليهم بأى حال . رغم استخدامه لعدد من الكتاب  
النصارى ، وخصوصاً أنه لم يمنح أحدهم أى امتياز خاص» .

أى امتياز كان يمنحهم إياه ؟ أينقلهم من وظائف الكتابة إلى وظائف الوزارة ؟

أم أنه الحققد وكفى يدفعه إلى تشويه التاريخ وتنقص الأبطال ؟

\* \* \*

وجاء دور الأقباط فى الحرب الصليبية عندما انتقل ميدان هذه الحرب إلى مصر  
نفسها وقد اتجه الهجوم الصليبي إلى مدينة دمياط بقيادة «جان دى برين» .

ووقعت بين الأقباط عندئذ حوادث تدل على التحدى والتواطؤ مع العدو .

ونحن نجتزئ بسررد الوقائع ، ففى سردها ما يغنى عن التعليق ، وسنذكرها بقلم  
الكاتب الصليبي نفسه فى ص ١٦٦ قال :

«لما نزل «جان دى برين» على ساحل «دمياط» واحتل المدينة ، قلقت السلطات  
المصرية ، وأخذ أولو الأمر يتساءلون :

عما إذا كان نصارى مصر سيستقبلون الإفرنج بحفاوة ، كما استقبلهم نصارى  
الأرمن والسوريين ، وتساءلوا أيضاً :

هل من الحكمة أن يحولوا دون هذا التعاون الذى قد يؤدى إلى عواقب خطيرة  
بالنسبة إلى المسلمين ؟» .

يا عجباً ! كيف لا تحول الحكومة دون هذا التعاون الشائن ؟ !

أكان الكاتب ينتظر من حكومة تدافع عن البلاد أن تترك فريقاً من السكان يساعد المغيرين؟  
يقول: «ومما زاد المشكلة تعقيداً أن كان في «دمياط» نفسها عدد كبير من  
النصارى الملكيين» .

وتسأل: ما الذى حدث فى «دمياط» عند بدء الغزو؟

يقول الكاتب فى ص ١٦٩:

«إننا نستطيع تقديم بعض التفاصيل عما حدث بفضل التقرير الذى وضعه  
«الكونت دى شامبانى» عن هذه الحملة:

علمنا أنه بينما كان «لويس التاسع» يستعد لمحاورة «دمياط» قام المسلمون بقتل  
جميع النصارى القاطنين بالمدينة بلا شفقة ولا رحمة، وفى اليوم التالى وجد  
الصليبيون مدينة دمياط خاوية .

أما النصارى الذين فروا من المدينة ونجوا من القتل فقد عادوا إليها وأعملوا  
سيوفهم فى رقاب المسلمين الذين لم يساعدهم كبر سنهم أو مرضهم على اللحاق  
بالجيش الإسلامى المتفهم .

فإن هؤلاء النصارى خفوا إلى استقبال الصليبيين الذين اعتبروهم كإخوتهم ،  
وأشركوهم فى موكب انتصارهم» .

هذا هو التقرير الذى ترجمه الكاتب على عهده ، ومع أنه من مصدر صليبي إلا أنه  
بين الدلالة فى موضوعه ، ولا نلاحظ عليه إلا تناقضه .

فقد زعم أن المسلمين قتلوا نصارى المدينة جميعاً .

ثم إذا بأولئك النصارى يؤلفون جيشاً يعود فيقتل من بقى من المسلمين بالمدينة وهم  
العجزة والمرضى !!<sup>(١)</sup>

وهذا تليفى للحوادث قصد به تبرير الخيانة الفاضحة التى جعلت الأقباط ينضمون  
إلى الصليبيين فى حملتهم على مصر .

(١) إذ كيف يُقتلون جميعاً على آخرهم ثم يتهضون وهم قتلوا ويؤلفون جيشاً منهم لقتال المسلمين انتقاماً .  
وعن هذه الحملة انظر مذكرات جوائفل هذا الرجل الملازم للملك لويس التاسع ورغم شدة تمسكه بالنصرانية إلا  
أنه لم يذكر شيئاً من ذلك عن أحداث الحملة التاسعة . انظر مذكرات جوائفل - ترجمة د / حسن حبشى .

ويظهر أن وسائل إنجاح الحملات الصليبية لم تقتصر على المعونة العسكرية فحسب فإن نقل الأخبار النافعة لهم وانتجسب لمصلحتهم أسر على من يبغى مساعدتهم ، فقد نقل الكاتب عن المؤرخ «ميشو» في كتابه «وثائق عن الحرب الصليبية» أنه جاء في رسالة أحد الصليبيين ما يلي : ص ١٧٠ .

« . . لدينا بعض المؤمنين الشرقيين الذين يمكن الاتكال عليهم .

فهم يعرفون البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، وكذلك الأخطار التي قد تصادفنا فيها ، وأنهم تلقوا سر العماد بتقوى حقيقية » .

والعبارة الأخيرة تحدد أن أولئك الجواسيس نصارى شرقيون . فإن الكاثوليك يعتبرون اليعاقبة وأشباههم منحذين ، أو مسيحيين مزورين .

وقد جاء في الكتاب الذي أرسله الصليبيون إلى «أوريانوس» :

«لقد هزمتنا الأتراك والوثنيين ، ولكننا لا نستطيع استعمال العنف مع الملحد من الروم والأرمن والسوريان واليعاقبة . . . تعال فحطم بنفوذك الذي لا مثيل له الإلحاد» ص ١٦١ .

وبديهي أن الصليبية الغربية انتفعت من هذه الطوائف كلها في أعمال التجسس ، وشئون القتال ، فلماذا يستعملون العنف ضدهم ؟

ومع ذلك فإن طبيعة النصرانية لم تفت أولئك الصليبيين المنتفعين من خيانات نصارى الشرق ، فهم يستقدمون البابا ليحطم الإلحاد كله .

أى ليلجم الأقباط والسريان والأرمن . . !!

وروى الكاتب قصة جاسوس قبطى فى القاهرة ، هو «أبو الفضائل بن دوخان» ، وهو موظف كبير فى الحكومة المصرية ذكر عنه «ابن النقاش» :

« . . أنه كان يرسل الفرنج ، ويخبرهم عما يحدث عند المسلمين والحكام والأعيان ، وكان مبعوثو الفرنج والنصارى يقتحمون مكتبه فيستقبلهم بحفاوة ، وينجز أعمالهم قبل غيرهم » .

والنص المذكور ترجمه الكاتب عن المجلة الآسيوية الفرنسية .

وانتهت الحرب الصليبية على عكس ما بدأت به .

فقد أصيب الغزاة بانكسارات ماحقة محت آثار الانتصارات الكبيرة التي أحرزوها  
أول أدوار القتال .

وظهر أن المسلمين - برغم تمزق شملهم لفساد حكامهم - كانوا أعرق خلقاً وأعظم  
رقياً ، وأنبل تقاليد من دول أوروبا كلها .

وأنهم استفاقوا على عجل من روعة المفاجأة التي دعت بلادهم ، وأحسنوا تخليصها  
من الأزمات التي عرتها .

فماذا كان موقفهم من خونة الأمس عندما عادت المياه إلى مجاريها ؟

إننا لا نشك في أن هذه الحروب خلقت في النفوس حزازات قائمة .

وأن الجراح التي أحدثتها في أفئدة المسلمين احتاجت في شفاؤها إلى أمد طويل .

على أن المسلمين لم يشنوا على النصارى في مصر والشام حملة انتقام لما فرط  
منهم ، بل جنحوا - بعد أن نصرهم الله - إلى التفاوض عن هفوات الماضي . !

وما أعلان على رأب الصدع أن روح التسامح في المسلمين أصيلة ، فهم بطيئو الغضب  
سريعو الرجوع .

وأن الأحكام - على اختلاف عصبياتهم - كانوا يعتبرون النصارى واليهود جزءاً من  
رعاياهم .

وأن رؤساء الطوائف المسيحية تجاوبوا مع الحكام المسلمين في إقرار الأمن وتلافي  
الفرقة .

وأن عدداً كبيراً من النصارى المتوطنين يُغبن إذا حُمِل تبعات التزق الذي جأ إليه  
الحاقدون على الإسلام والكارهون لسلامة أمته .

أجل فمن الظلم أن تؤاخذ طائفة ما بخيانة بعض بنينا .

على أن الفئات التي عرفت بالتحامل على الإسلام ، وانتهاز الفرص المواتية لنيل  
منه قد شل تفكيرها ما أصاب الصليبية الغربية من انكسار ساحق .

فقبعت في مكانها لا تبدى حراكاً!!

ويقول الكاتب فى ص ١٧٠ : «من الغريب أن نرى - بعد النكبة التى حلت بجيوش «لويس» - عدداً من الصليبيين قد أربكهم الفزع وببطل أفكارهم ، فأخذوا يشكون فى إيمانهم .

ولما خيروهم بين اعتناق الإسلام والموت ، لم يترددوا فى اعتناق الإسلام .

ونحن لا نعرف القصة التى يشير إليها الكاتب ، ولا يهمنى الآن تمحيصها ، وإنما نذكر أن جملة الأسباب التى سردناها ، جعلت جمهور الأقباط ينجو من الاقتصاص على حوادث الخيانة السالفة ، ويعين على اعتبارها حوادث فردية منتهية .

ذلك بعد أن وضعت الحرب أوزارها .

أما فى أثناء نشوب القتال ، وعندما تظاهرت الفتن الداخلية والهجمات الخارجية ضد الإسلام ، فقد أفلت زمام العامة ، وانطلقوا فى العاصمة والإسكندرية والأقاليم يدمرون الكنائس والأديرة .

ولكن الحكومة ضبقت الحالة ، وضربت على أيدي العابثين بالنظام العام وحسناً فعلت .

وقد تكون جروح العامة قد اندملت على دخل نظراً لما شاب نفوسهم من عدم الثقة !

غير أنهم ظلوا هادئين مستكينين حتى وقعت فى عهد المماليك عدة حوادث ، بدأ منها كأن النصارى يتحدثون المسلمين ويتربصون بهم .

فاستطارت شرارة الفتنة ، وكاد الأمر يفلت من أيدي المسئولين .

وسنرد تفاصيل هذا الشغب وبواعثه بعد الكلام عن الحملة الفرنسية على مصر .

### موقف الأقباط من الاحتلال الفرنسى :

لم يكن المصريون - من مسلمين وأقباط - يدرون شيئاً عن عصر النهضة فى أوروبا .

كانت الثورات الحية تحرف التقاليد والخرافات فى كل ميدان .

فتطور العلم والفلسفة وتطورت المجتمعات والحكومات ، وانطلق العقل من إسار

الكنيسة ، وتمردت الشعوب على سلطات الفرد ، ووثبت الحياة العامة تفتحهم أفاقاً جديدة في كل ناحية .

أما المسلمون - في ظل الحكم التركي - فقد ضرب الاستبداد السياسي عليهم نظاماً من الظلمات الكثيفة عزلهم عن العالم ، وجعل عيونهم لا ترى أبعد من حدود بلادهم المتأخرة .

وكان أقباط مصر ومسلموها في هذا القصور سواء .

فلما هجم «نابليون» بجيشه على مصر ، رجع المسلمون والأقباط إلى ذكرياتهم الأولى .

فما سوا اقتحام الإسكندرية باقتحام الصليبيين القدماء لدمياط ، واستعد الفريقان لاستقبال الغزاة الجدد .

المسلمون يتأهبون لحرب دينية طويلة المدى .

والأقباط يستعدون لاستقبال زحف نصراني بينه وبينهم وشائج لا تنكر ، غير أن سيرة القائد الأوروبي الطامح كانت مفاجأة محيرة للفريقين معاً .

فإن «نابليون» سلك طريقاً يغاير تمام المغايرة مسلك القادة الأولين للحملات الصليبية .

إنه دخل مصر مدعياً الإسلام ، متوهماً بقيمته ، متودداً لأهله !!

ثم طلب من جنوده أن يعتبروا الإسلام ديناً كالنصرانية واليهودية .

وهذا نوع من الاعتراف كانت أوروبا تظن به على المسلمين !

وهي لم تعترف به في تاريخها الحديث إلا بعدما اعترفت بالبودية والبرهمية كأديان كبيرة لها أتباع يعدون بالملايين .

أما نابليون فقد خاطب جنوده قبل أن ينزل إلى البر قائلاً :

«إن الشعب الذي سنعيش معه يدين بالإسلام .

وأول ما يؤمن به هو أنه لا إله إلا الله محمد رسول الله .



فلا تنازعه في ذلك ، بل عاملوا هؤلاء المسلمين كما عاملتم اليهود والإيطاليين .  
واحترموا رجال الدين كما احترمتهم الحاخامات والمطارنة .  
أظهروا للمواسم الدينية وللمساجد التسامح نفسه الذي أظهرتموه بإزاء الأديرة  
والمعابد ، وبإزاء ديانة موسى والمسيح .  
لكن ، كيف ينقذ الجنود هذه الوصية ، وهم لا يعرفون عن المسلمين إلا أنهم كفار  
تجب إبادتهم ؟

وتلك هي التعاليم التي انحدرت إليهم عن آبائهم الصليبيين .  
يقول الكاتب - معللاً انصياع الجنود لأوامر «بونابرت» - :  
« . . . لما كانت الثورة الفرنسية قد أبعدت الفرنسيين عن الديانة المسيحية ، فقد  
اكتفى «بونابرت» بتوصية رجاله أن يظهروا احترامهم للمسلمين» ! ص ٢٠٩ .  
فماذا كان يقع لو لم يجرف روح الثورة تعلق النصارى بدينهم ؟  
كان المسلمون - بلا شك - سيتعرضون لمأساة دامية تشعلها نيران التعصب الصليبي  
القديم .

\*\*\*

من حق المرء أن يتساءل : ما كان دين «نابليون» ؟ .  
إننا نحزم بأنه لم يكن نصرانياً ، فإن عبقرياً مثله أوتى عقلاً كبيراً ومواهب جليلة  
يستحيل أن يسبغ عقيدة التثليث أو يقبل مبدأ القربان .  
ولو أنه بنى حياته العقلية على إمكان أن يكون الثلاثة واحداً ، أو الواحد ثلاثة ما  
انتصر في معركة ضد أطفال .  
بله معارك ضد أعتى القوى في العالم ، أبدى فيها من البراعة والذكاء ما خلد  
اسمه .  
ذلك مع ملاحظة أن «نابليون» من رجال الثورة التي اعتبرت طبقة رجال الدين مع  
طبقة الأشراف مسئولة عما أصاب الشعب من ظلم وفقر .

فكان غضب الثوار ينصب على القصور والسجون والكنائس على أنها جسيماً شارة الرجعية البائدة والطغيان القديم .

ولو كانت نقمة الثوار على النصرانية غضبة مفاجئة ، أو فورة من فورات الرعاع الذين تموج بهم الطرق ، لما رأينا فيها أكثر من عاطفة حمقاء ، هاجت ثم خمدت ، فهل الأمر كذلك ؟ لا .

إن الحملة على النصرانية بدأت مع طلائع اليقظة الأوروبية ، وقادها ليف من الكتاب الأحرار ، واتصلت هجماتها على سلطان الكنيسة حتى استطاعت - بعد مراحل شاقة - أن تصل إلى الحكم بإبعادها عن الحياة العامة ، ولم ترسخ الكنيسة لهذا الحكم دون مقاومة ، إنها ظلت تقاوم حتى خمدت أنفاسها .

وكان «بونايرت» يفخر بأنه أحد الرجال الذين اضطنوعوا بهذا العمل الكبير وهو ينوء في نداء وجهه إلى الشعب المصري .

« . . . بأن الفرنسيين اقتحموا روما الكبرى ، وضربوا فيها كرسى «البابا» الذي كان يحث النصارى دائماً على محاربة الإسلام ، ثم قصدوا إلى جزيرة «مالطة» وطردوا منها فرسان القديس يوحنا الذين يزعمون أن الله انتدبهم لمحاربة المسلمين» .

والحق أن «تابلينون» تودد إلى المسلمين طويلاً ، وتحدث عن دينهم باحترام وإن كان المسلمون في مصر رفضوا أن يصدقوا حرفاً مما قال .

والعبارات التي جرت على لسان هذا القائد - وهو يتحدث عن الإسلام - تبعث على التأمل .

إنه عندما تقدم إلى أسوار الإسكندرية قال لمسلمي مصر :

«لسنا من كفار العصور الهمجية الذين يأتون إليكم لمحاربة إيمانكم .

إننا نعتز بأن إيمانكم رفيع القدر .

وسوف نعتنق دينكم إذا حلت الساعة التي يصبح فيها الفرنسيون الراشدون مؤمنين حقيقيين»<sup>(١)</sup> .

(١) هذا النص من النصوص التي ترجمتها فكتاب عن الفرنسية ، وقد أبيتها كما ترجمتها مع إصلاح لبعض التراكيب التي أخطأ في صوغها .

وكتب نابليون - بعد احتلاله القاهرة - إلى الجنرال «مارمون» في ٢٨ أغسطس سنة ١٧٩٨ م يقول :

«قابل من طرفي الشيخ «المسيري» وقل له : كيف احتفلنا بمولد النبي . قل له :  
إنني في القاهرة أجتمع برؤساء القضاة ، وكبار القوم ثلاث أو أربع مرات كل عشرة  
أيام ، وإنني أكثر الناس اقتناعاً بصفاء الديانة الإسلامية وقد استهأ<sup>(١)</sup> .

وفي اليوم نفسه كتب إلى الشيخ «المسيري» مباشرة يقول له :

«أرجو ألا يتأخر الوقت الذي أستطيع فيه جمع العناصر الحكيمة والمتقفة في  
البلاد ، ووضع نظام ثابت ، يركز على مبادئ القرآن الحقة الوحيدة التي تستطيع  
إسعاد البشر دون سواها»<sup>(٢)</sup> .

على أن المشايخ والأئمة لم تكن قلوبهم لهذه التصريحات ، بل انتهزوا أول فرصة  
لإعلان الثورة في الأزهر ، والانطلاق في شوارع القاهرة لتمتل كل فرنسي بصادفونه ،  
فلم ير «نابليون» بُدأً من أن يصب حمم مدافعه على المدينة الثائرة ، وما زال بها حتى  
أسكتها .

هل كان «نابليون» منافقاً حقاً في ادعائه للإسلام ؟

إن قراءات «نابليون» الكثيرة عن الشرق أثرت - لا ريب - في نزعته إلى افتتاحه ،  
وإقامة ملك عريض فيه !

ودراسته لأحوال الشرق جعلته يتعرف إلى الإسلام ، ويدرك طرفاً من حقيقته وأركانه .

ونحن نستبعد أنه أسلم ، وإنما نظن أن منه من كبار الرجال الذين ظهروا في الغرب  
بميلون - بوحى من فطرتهم وفكرتهم - إلى الإيمان بآله واحد يهيمن على هذا العالم  
ويملك أزمة أموره .

وهم يرفضون - بأنفة - ما في النصرانية من أقانيم وقرايين ، ويرون من المهانة  
لعقولهم تصديقها . .

( ٢ . ١ ) هذه النصوص ترجمها الكاتب عن الفرنسية ، وقد أثبتناها كما ترجمها مع إصلاح لبعض التراكيب التي  
أخطأ في صوغها .

هؤلاء الموحدون ليسوا نصارى ، ودعوة الإسلام لم تبلغهم على وجه محترم حتى يؤمنوا بها كاملة .

فهم يصدقون بعقيدة التوحيد الناشئة عن تفكيرهم الخاص ، وربما احترموا الرجل الذى يدعو الناس إليها .

أما الدخول فى الإسلام نفسه فلا !!

إذ كيف يدخلون فى دين ليست له أمة تشرف دعايته وتمثل رسالته ؟  
وعندى أن «نابليون» كان من هذا الصنف .

إنه ليس مسلماً ، ولا نصرانياً .

بيد أنه يرى الإسلام أدنى إلى طبيعته العقلية من النصرانية .

فلما قرر احتلال مصر لم يرَ حرجاً نفسياً فى اعتناقه .

وعلى أية حال فهو لم يضطهد المسلمين لدينهم قدر ما اضطهدهم لمقاومتهم سياسته المرسومة وأطماعه الخاصة .

أما الأقباط فقد ظنوا - كالمسلمين - أن «نابليون» يقود هجوماً صليبيّاً جديداً على مصر .

فلما هرعوا لاستقباله لم يكثر لهم! فما حاجته إليهم؟ وما حاجتهم إليه؟

وقد اغتاض المسلمون من احتفاء الأقباط بالقائد الفاتح ، ونشبت فى بعض القرى ثورات قتل فيها نفر من الأقباط .

فوعد «نابليون» أن يعاقب - بشدة - القرى التى ارتكبت هذه الجرائم .

على أن «نابليون» لم يرَ فى مسلك الكثرة المسلمة مع القلة النصرانية ما ينطوى على حيف أو تعصب أو اضطهاد من النوع الذى عرفه فى «أوروبا» .

بل على العكس لاحظ عند تنظيمه للإدارة والاقتصاد والميزانية أن الأقباط كانوا يستغلون الأحكام المسلمين ، ويختلسون أموالاً جسيمة .

فقرر إقصاءهم من وظائفهم بالتدرج على ما شرحناه قبلاً .

ومع ذلك فقد ظل الأقباط متعلقين بالفرنسيين ، راغبين في التعاون العسكرى معهم - مع عزوف نابليون عن قبول هذا العون - حتى تولى «كليببر» القيادة بعد نابليون ، فأذن للأقباط أن يؤلفوا فرقتهم العسكرية لتنضم إلى الجيش الفرنسى المجيد!! ولتتبع موقف مواطنينا الأقباط من الوثائق نفسها التى ذكرها الكاتب الصليبيى النزبه ! ، قال فى ص ٢١٦ :

«لما وصلت العمارة الفرنسية إلى مياه الإسكندرية ظل الفرنسيون - الأجنب - والأقباط موضع شك السلطات وتعرضوا من جراء ذلك إلى أعمال سوء» . وهذا كذب بالنسبة للأقباط خاصة .

نعم إن «مراد بك» هم بإيذاء الأقباط ، متوقفاً أن ينضموا إلى الجيش الغازى غير أن مشيريه رفضوا ذلك رفضاً باتاً . وينقل «نقولا ترك» فى هذا الشأن ما يلى :

«قال الوزير ، وشيخ البلد «إبراهيم بك» : غير ممكن أن نسلم فى هذا العزم والرأى ، لأن هؤلاء - يعنى الأقباط - رعية مولانا السلطان صاحب العز والنصر والشأن .

وكان الوزير وشيخ البلد يرسلون إليهم كل يوم «سليم أغا» مستحفظان أغات الانكشارية «كذا فى الأصل» يطمئنهم على محلاتهم وأرواحهم وأموالهم ويطلق المناداة فى البلد كله على حفظ الرعايا وعدم التعرض لهم»<sup>(١)</sup> .

وقال الكاتب فى ص ٢١٧ :

«الملاحظ أن «بونابرت» أرسل فى طلب المعلم «جرجس الجوهري» - المباشر العام للشئون المالية - فجاء المعلم ، وقدم إلى الجنرال الفرنسى أعيان الأقباط .

ومن الطبيعى أن ينتهز الأقباط هذه الفرصة ليقدموا الطاعة والخضوع للرجل الذى جلس على أنقاض الممالك «كذا» ورسخت أقدامه فى أنحاء البلاد .

وكان أعضاء الوفد يرتدون الكساوى ذات الأكمام المذهبة المزدانة بالوريزدات

(١) دونها الكاتب من مذكرات مطبوعات المكتبة الخاصة لملك أسبق .

الذهبية ، وعلى رءوسهم العمائم الكشمير ، وأعربوا «لبونابرت» عن خالص ولائهم . . .» .

قال الكاتب فى ص ٢١٨ : « . . . وقلق المسلمون لعمل الأقباط ، مما دعا «الجبرتى» إلى اتهامهم صراحة بالتعاون مع الفرنسيين» .

ونحن نعجب لهذا الوفد المحتال فى ملايحه المزركشة !

أهو ذاهب إلى حفل عرس ؟ أكان مسلك المسلمين معهم يتطلب إظهار هذا الفرع كله فى استقبال الفاتح المنتصر ، وتشجيع الدولة الإسلامية المدبرة؟

أياً ما كان الأمر ، فإن عناصر المقاومة بين المسلمين ظلت تواصل جهادها المقدس لإرهاق المحتل وتعكير صفوه .

وبرغم الخسائر المتلاحقة التى أنزلها الفرنسيون بالجيش المنظمة ثم بجموع الشوار المكافحة ، فإن المسلمين قرروا ألا يستسلموا .

لقد ناروا على «نابليون» فقمع ثورتهم .

وها هو ذا «نابليون» تضطره أحوال فرنسا أن يغادر مصر مستخلفاً «كليب» .

وظن المكافحون أنهم يستطيعون مقاتلة القائد الجديد فأعلنوا عليه الثورة ، إلا أنه ما لبث أن هزمهم ، فاضطروا إلى طلب الأمان .

ويقول الكاتب<sup>(١)</sup> فى ص ٢١٨ :

«لما طلب ثوار القاهرة الأمان لم يز «كليب» مانعاً من منحهم إياه ، ولكنه أثقل كاهل البلاد بالضرائب بعد ذلك .

ثم أرسل فى طلب العلماء والأعيان وألقى فيهم خطبة مלאها بالتهديد والوعيد ، ووصفهم بالرجال الأشرار الجاحدين ، وأخبرهم بفرض ضريبة استثنائية على جميع السكان ، ما عدا النصارى الذميين» .

وذلك بداهة ، لأن النصارى الذميين حلفاء الاحتلال الفرنسى .

فلماذا تفرض عليهم ضريبة ؟

(١) نقلاً عن مذكرات نقولا ترك .

في هذه الظروف أُلّف الأقباط فرقتهم العسكرية لمعاونة الفرنسيين .  
وقد اهتمت المسلمون لهذه الخيانة السافرة .

ويدل وصف «الجبرتي» لأفرادها على غيظ دفين وغل مكين قال :

«إن «يعقوب القبطي» لما تظاهر مع الفرنسيات ، وجعلوه سارى عسكر القبط ،  
جمع شباب القبط وحلق لحاهم ، وزياهم بزى مشابه لعسكر الفرنسيات ، يميزين  
عنهم بقبيح يلبسونه على رؤوسهم مشابه لشكل البرنيطة ، وعليها قطعة فرو سوداء  
من جلد الغنم فى غاية البشاعة! مع ما يضاف إليها من قبح صورهم ، وسواد  
أجسادهم وزفارة أبدانهم» وبلغ أفراد الفرقة ثمانمائة .

وقد أنعم الفرنسيون على قائدها المدعو «يعقوب» بلقب «جنرال» !!

و «يعقوب» هذا كان يشتغل مع الممالك ، ونان من نعمائهم ما جعله صاحب ثروة  
ضخمة ، أكسبته بين المصريين منزلة حسنة .

فلما دخل الفرنسيون مصر ، ومالاهم قومه استغل هو الآخر لحسابهم .

يقول الكاتب فى ص ٢٢٢ :

«... ولما قدمه «جرجس الجوهري» إلى الجنرال «بوسيلنج» كتب الجنرال إلى

«بونابرت» يقول له :

«قال لى «الجوهري» . إنك لن تجد إنساناً أكثر غيرة منه على مصالحنا ، وإنه  
يضع رأسه بين يديك راجياً أن تأمر بقطعه ، إن بدا من المعلم «يعقوب» أدنى  
خيانة...» !!

أرأيت هذا التفانى المطلق فى خدمة المحتل ؟

ويستطرد الكاتب فى الكلام عن المعلم «يعقوب» :

«... ألقى دواته المعلقة بزواره واستل سيفه من غمده ، وخاض غمار معارك  
طاحنة وعرض نفسه للهلاك أكثر من مائة مرة ! هذا لأنه يعتبر نفسه جندياً من  
جنود بونابرت» ص ٢٢٣ .

ضد من خاض هذه المعارك؟ ضد المسلمين الثائرين على الاحتلال الفرنسي .  
وفي الصفحة نفسها يقول الكاتب : « . . . ولما سافر «ديزيه» إلى فرنسا مع  
«بونابرت» استقر «يعقوب» بالقاهرة حيث كان يحيط الفرنسيين بمعلومات مفيدة .  
فلما حوَّصر في ثورة القاهرة الثانية برهن على مهارته في الفنون الحربية .  
الشيء الذي جعله يطلب إلى «كليب» السماح له بتجنيد فرقة من الأقباط  
يتولى قيادتها . . . » .

وقد رحل هذا اليعقوب الخائن في أعقاب الحملة الفاشلة إلى فرنسا .  
حيث لقي حتفه في عرض البحر ذاهباً إلى الجحيم .  
وقيل : إنه صرح قبل وفاته لريان السفينة التي فر عليها بأنه كان يبغى بسيرته  
السالفة تحقيق استقلال مصر (!) .

وقد روج الكاتب الصليبي لهذا الهذر ، بحسب أنه يرفع به نخسيه خائن قدر إنه -  
فعلاً - كان يريد قطع صلة مصر بتركيا ليلحقها بفرنسا ! !

وهو ومن شابعوه إنما تحمسوا لهذه النذالة من غليان أحقادهم على الإسلام ومقتهم  
العنيف لأمتهم ودولتهم ، مهما أسدى إليهم من أيادٍ وأغدق عليهم من نعم .  
إنها النزعة الصليبية الخبيثة هي التي جعلت هذا الخلق يجحد مواساة المسلمين له  
وبرهم به .

وهي التي جعلت «سلامة موسى» يكتب عدة مقالات في جريدة مصر القبطية  
يمجد فيها أعمال الجنرال «يعقوب»<sup>(١)</sup> .

أجل ، يمجد هذه الأعمال ، التي سردناها لك من قم كاثوليكي متعصب شديد  
البغضاء للإسلام .

فإذا هي جملة سفالات تنطق بأن فاعلها ماتت في دمه نوازع الشرف كلها .

(١) وقد مجده الراحل «الويس عوض» ورد عليه الشيخ الغرالي بما هو أهله . ومهما طال الزمن لا يمكن اعتبار الخيانة  
سعيًا لاستقلال مصر .



إن الكاتب الصليبي يستشعر النوح من هذه التصرفات التي ارتكبتها الأقباط على عهد الاحتلال الفرنسي .

وهو - لكي يبررها - يريد إيهامنا بأن الأقباط وقع عليهم اضطهاد سابق فلا يستغرب منهم أن يثاروا لأنفسهم .

وقد أخفق في ذكر حادثة واحدة تشهد بأن المسلمين آذوا الأقباط إيمانًا واحتسابًا كما فعل النصارى بعضهم مع البعض الآخر في أوروبا نفسها .

ولا أدل على ذلك من أن الفرنسيين دخلوا مصر ، ودخلوا أسبانيا في أيام متقاربة . فماذا وجدوا في مصر المسلمة ، وماذا وجدوا في أسبانيا الكاثوليكية ؟

إننا نتحفظ الكاتب الكاثوليكي بهذا التقرير "ليرى أنه في الوقت الذي كان المسلمون يسندون الوظائف العالية لمخالفهم في الدين ، كان قومه يخترعون المهلكات لمخالفهم في الدين .

وفي الوقت الذي داس الفرنسيون فيه الجامع الأزهر وفيه علماء يصفون الأقباط بأنهم أهل ذمة ، «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» كان الفرنسيون يدخلون كنائس أسبانيا باحثين عن وسائل التعذيب التي أعدها القساوسة الرحماء للتنكيل بالعزل المستضعفين من اتهموا بعبادة المسيح .

وإليك ما كتبه «الكولونيل ليمونسكي» أحد ضباط الحملة الفرنسية في أسبانيا قال :

«كنت سنة ١٨٠٩ ملحقًا بالجيش الفرنسي الذي يقاتل في أسبانيا ، وكانت فرقتي بين فرق الجيش الذي احتل «مدريد» - العاصمة - .

وكان الإمبراطور نابليون أصدر مرسومًا سنة ١٨٠٨ بإلغاء دواوين التفتيش في المملكة الأسبانية .

غير أن هذا الأمر أهمل العمل به للحالة الحربية ، والاضطرابات السياسية التي سادت وقتئذ .

(١) ترجمة الدكتور على مقهر في كتابه «محاكم التفتيش» .

وصمم رهبان «الجزويت» - أصحاب الديوان الملقب - على قتل وتعذيب كل فرنسى يقع فى أيديهم ، انتقامًا من القرار الصادر ، والقضاء للرعب فى قلوب الفرنسيين حتى يضطروا إلى إخلاء البلاد فيخلو لهم الجو .

وبينما أسير فى إحدى الليالى ، أجتاز شارعًا يقل المرور فيه من شوارع مدريد إذ باثنين مسلحين قد هجما على يبغيان قتلى ، فدافعت عن حياتى دفاعًا شديدًا ، ولم ينجنى من فتكهما إلا قدوم سرية من جيشنا مكلفة بالتطواف فى المدينة .

وهى كوكبة من الفرسان تحمل المصابيح وتبيت الليل ساهرة على حفظ النظام .

فما إن شاهدها القاتلان حتى لاذا بالهرب ، وتبين لنا من ملابسهما أنهما من جنود ديوان التفتيش .

فأسرعت إلى «المريشال سولت» الحاكم العسكرى لمدريد ، وقصصت عليه النبأ فثار غضبه ، وقال :

لا شك بأن من يقتل من جنودنا كل ليلة إنما هو من صنع أولئك الأشرار ، ولا بد من معاقبتهم وتنفيذ حكم الإمبراطور بحل ديوانهم .

والآن خذ معك ألف جندى وأربعة مدافع ، وهاجم دير الديوان ، واقبض على هؤلاء الرهبان الأبالسة ، ولنقتص منهم بما حكمتهم أمام مجلس عسكرى .

وفى الرابعة صباحًا ركبت على رأس تلك الحملة ، ثم قصدنا إلى دير الديوان ، وهو على مسافة خمسة أميال من «مدريد» .

فلم يشعر الرهبان إلا والجنود يحيطون بديرهم ، والمدافع تصوب إليه فوهاتها .

وكان هذا الدير عبارة عن بناء ضخيم أشبه بقلعة حصينة ، وأسواره العالية تحرسها فرقة من الجنود اليسوعيين .

فتقدمت إلى باب الدير وخاطبت الحارس الواقف على السور وأمرته - باسم الإمبراطور - أن يفتح الباب .

وظهر لى أن الحارس التفت نحو الداخل وكلم أشخاصًا لا نراهم .

وبما انتهى من حديثه عاد وأخذ بندقيته وأطلق علينا الرصاص ثم انهال علينا  
الرصاص من كل جهة ، فقتل بعض رجالى وجرح آخرون .

ولكنى أمرت جنودى أن يقتحموا الدير عنوة ، واعتبرت إطلاق الرصاص من  
الجزويت علامة رفض ، وأنهم لا يفتحون الباب إلا بالقوة .

وأخذنا نطلق المدافع على أسوار الدير ، وعلى الباب الموصل .

واستخدم جنودنا ألواح الخشب السميك تقيهم رصاص الخرس الذى كان ينهمر  
علينا كالطر الغزير .

وبعد نصف ساعة استطعنا فتح ثغرة واسعة فى الحائط ، نفذ الجيش منها إلى  
داخل الدير ، وكنت مع بعض زملائى طليعة الداخلين .

وأسرع الرهبان اليسوعيون إلى لقائنا مرحبين بنا ! ووجههم باشة !

وهم يستفهمون عن سبب قدومنا على هذا النحو ، وكأن لم يدر بيننا قتال ولم  
تنشب معركة .

ثم استداروا إلى جنودهم وانهالوا عليهم تعنيفاً وتأنيباً وقالوا :

إن الفرنسيين أصدقاؤنا فمرحباً بهم .

على أن هذا النفاق الخبيث لم ينطلي علينا ، فأصدرت الأمر لجنودى بالقبض على  
أولئك القساوسة جميعاً وعلى جنودهم الحراس ، توطئة لتقدمهم إلى مجلس  
عسكرى .

ثم أخذنا نبحث عن قاعات العذاب المشهورة ، وطفنا بغرف الدير ، فراعنا ما بها من  
أثاث فاخر ، ورياش وكراسى هزازة ! وسجاجيد فارسية ثمينة ، وصور نادرة ، ومكاتب  
كبيرة .

وقد صنعت أرض هذه الغرفة من خشب المغنى المصقول المدهون بالشمع .

وكان شذى العطور يعبق فى أرجاء الغرفة فتبدو الساحة كلها أشبه بأبهاء القصور  
الفخمة التى لا يسكنها إلا ملوك قصروا حياتهم على الترف واللهو .

وعلمنا بعد أن تلك الروائح المعطرة تنبعث من شمع يوقد دائماً أمام صور الرهبان ،  
ويظهر أن هذا الشمع قد خلط به ماء الورد .

وكادت جهودنا تذهب سدى ، ونحن نحاول العثور على قاعات التعذيب .

إننا فحصنا غرف الدير وممراته وأقبية كلها ولم نجد شيئاً يدل عليها .

فهمنا على الخروج يائسين من اكتشاف بغيتنا مقتنعين بتقديم أولئك الرهبان إلى  
المجلس العسكري .

وكانوا في أثناء بحثنا يقسمون ويؤكدون أن ما شاع عنهم وعن ديرهم ليس إلا تهماً  
باطلة ، وأنهم يحتملون هذه الأكاذيب في سبيل الله .

وأنشأ زعيمهم يؤكد لنا براءته وبراعة أتباعه بصوت خافت وهو خاشع الرأس توشك  
عيناه أن تطفر بالدمع ، فأعطيت الأوامر للجنود بالاستعداد لمغادرة الدير .

لكن «اللفتانت دى ليل» استمهلنى قائلاً : «أيسمح لى الكولونيل أن أخبره بأن  
مهمتنا لم تنته حتى الآن ؟» .

قلت له : قد فتشنا الدير كله ولم نكتشف شيئاً مريباً به فقيم ترغب؟

قال : إنى أرغب فى فحص أرضية هذه الغرف ، وأدقق فى امتحانها ، فإن قلبى  
يحدثنى بأن السر تحتها .

وعند ذلك نظر الرهبان بعضهم إلى بعض نظرات قلقة ، وأذنت للضابط بالبحث .

فأمر الجنود برفع الأبسطة ، فرفعت ، ثم أمر بأن يصبوا الماء بكثرة فى أرض كل غرفة  
على حدة ففعلوا .

وكنا نرقب الماء ، فإذا بالأرض تبتلعه فى إحدى الغرف ، ويتسرب إلى أسفل .

فصفق الضابط «دى ليل» من شدة فرجه وقال : هو ذا الباب ! انظروا ، فنظرنا ، فإذا  
بالباب قد انكشف ، وهو قطعة من أرض الغرفة ، يفتح بطريقة ماكرة بواسطة حلقة  
صغيرة وضعت إلى جوارها رجل مكتب الرئيس .

وأخذ الجنود يكسرون الباب المسحور بقهوف البنادق .

وانتفتت فرقة من الجنود حول عصابة الرهبان الذين اصفرت وجوههم وكستها غبرة .  
وفتح الباب وظهر لنا مسلم يؤدي إلى باطن الأرض .  
فأسرعت إلى شمعة كبيرة يزيد طولها على متر كانت تضيء أمام صورة أحد رؤساء  
محاكم التفتيش السابقين .

ولما هممت بالنزول وضع راهب يسوعي يده على كتفي متلطفاً وقال لي :  
يا بني ، لا تحمل هذه الشمعة بيدك الملوثة بدم القتال لأنها شمعة مقدسة .  
فقلت له : يا هذا إنه لا يليق بيدي أن تتنجس بلمس شمعتكم الملطخة بدم  
الأبرياء ، وسنرى من التنجس فينا ؟ ومن القاتل السفاك ؟  
وهبطت على درج السلم يتبعني سائر الضباط والجنود شاهرين سيوفهم حتى وصلنا  
إلى آخر الدرج .

فإذا بنا في غرفة كبيرة مربعة ، هي عندهم قاعة المحكمة ، في وسطها عمود من  
الرخام ، به حلقة حديدية ضخمة ، ربطت بها سلاسل ، كانت الفرائس تقيدها بها رهن  
المحاكمة .

وأمام ذلك العمود عرش «الدينونة» ، كما يسمونه وإلى جانبيه مقاعد أخرى أقل  
ارتفاعاً معدة لجلوس جماعة القضاة .

ثم توجهنا إلى غرف آلات التعذيب ، وتمزيق الأجسام البشرية .  
وقد امتدت تلك الغرف مسافات كبيرة تحت الأرض .  
وقد رأيت بها ما يستفز نفسي ، ويدعوني إلى التفزز ما حييت .  
رأينا غرفاً صغيرة في حجم جسم الإنسان بعضها عمودي وبعضها أفقي .  
فيبقى سجين العمودية واقفاً بها على رجليه مدة سجنه حتى يقضى عليه .  
ويبقى سجين الأفقية ممدداً بها حتى يموت .  
وتبقى الجثة في السجن الضيق حتى تبلى ، ويتساقط اللحم عن العظم .

ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة من الأحداث البالية تفتح كوة صغيرة إلى الخارج .

وقد عثرنا على عدة هياكل بشرية مازالت في أغلالها سجيئة .  
والسجناء كانوا رجالاً ونساء تختلف أعمارهم بين الرابعة عشرة والسبعين .  
واستطعنا فكك بعض السجناء الأحياء ، وتحضيم أغلالهم ، وهم على آخر رمق من الحياة .

وكان فيهم من جُنْ لكثرة ما لاقى من عذاب ، وكان السجناء عرايا زيادة في النكابة بهم ، حتى اضطر جنودنا أن يخلعوا أرديتهم ، ويستروا بها لفيقاً من النساء السجينات .

وقدمنا السجناء إلى النور تدريجياً لئلا يؤثر النور المفاجئ على أبصارهم .  
وكانوا يبكون فرحاً وهم يقبلون أيدي الجنود وأرجلهم الذين أنقلوهم من العذاب ،  
وأعادوهم إلى الحياة .

وانتقلنا إلى غرف أخرى قرأنا هناك ما تقشعر لهوله الأبدان ، عثرنا على آلات لتكسير العظام ، وسحق الجسم .

وكانوا يبدأون بسحق عظام الأرجل ، ثم عظام الصدر والرأس واليدين ، وذلك كله على سبيل التدرج حتى تأتي الآلة على البدن المهشم ، فيخرج من الجانب الآخر كتلة واحدة .

وعثرنا على صندوق في حجم رأس الإنسان تماماً ، يوضع فيه الرأس المعذب ، بعد أن يربط صاحبه بالسلاسل في يديه ورجليه فلا يقوى على حركة .

وتقطر على رأسه من ثقب في أعلى الصندوق نقط الماء البارد ، فتقع على رأسه بانتظام في كل دقيقة نقطة .

وقد جن الكثيرون من ذلك اللون من العذاب ، قبل أن يحملوا به على الاعتراف ويبقى المعذب على حاله تلك حتى يموت .

وعشرنا على آلة ثلاثة للتعذيب تسمى بالسيدة الجميلة ، وهى عبارة عن تابوت تنام فيه صورة فتاة جميلة مصنوعة على هيئة الاستعداد لعناق من ينام معها ، وقد برزت من جوانبها عدة سكاكين حادة .

وكانوا يطرحون الشاب المعذب فوق هذه الصورة ، ثم يطبقون عليهما باب التابوت بسكاكينه وخناجره ، فإذا أغلق مزق جسم الشاب وتقطع إرباً إرباً .

كما عشرنا على جملة آلات لسيل اللسان ، ولشمزيق أئداء النساء وسحبها من الصدور بواسطة كلاليب فظيعة ، ومجالد من الحديد الشائك لضرب المعذبين وهم عرايا حتى يتناثر اللحم عن العظام .

وصل خبر الهجوم على دير «ديوان التفتيش» إلى مدريد ، فذهب الألوف ليبروا ماحدث .

وخيل - إلينا من شدة الزحام - أننا فى يوم القيامة .

ولما شاهد الناس بأعينهم وسائل التعذيب وآلاته الجهنمية جن جنونهم ، وانطلقوا - كمن به مس - فأمسكوا برئيس اليسوعيين ، ووضعوه فى آلة تكسير العظام فدقت عظامه دقاً وسحقته سحقاً .

وأمسكوا كاتب سره وزفوه إلى السيدة الجميلة وأطبقوا عليهما الأبواب ، فمزقته السكاكين شر ممزق .

ثم أخرجوا الجثتين ، وفعلوا بسائر العصاة وبقيّة الرهبان كذلك .

ولم تفض نصف ساعة حتى قضى الشعب على حياة ثلاثة عشر راهباً ، ثم أخذ ينهب ما بالدير .

وقد عشرنا على أسماء ألوف الأغنياء فى سجلات الديوان السرية ، وهم الذين قضى الرهبان بقتلهم كى يبتزوا أموالهم ، أو يضطروهم إلى كتابة إقرارات تحول ثروتهم إلى اليسوعيين .

ويمكننى أن أقول : بأن ذلك اليوم هو أعظم يوم شهدته بعد هدم «الباستيل» . أ . هـ .

\* \* \*

هذه حلقة اكتشفت من سلسلة يمتد طرفها مع المناضى السحيق ، تشهد بمأساة التاريخ الكنسى من أهوال وأنكال .

وبهذه الوسائل أصبحت «الكاثوليكية» هى الدين الوحيد فى أسبانيا .

وعندما ساق «نابليون» جيوشه إلى أسبانيا هذه ، ووجد من المضطهدين بها من يستبشر بمقدمه ، لم يكن هناك محل للاتهام بالخيانة أو الجحود .

أما فى مصر حيث يعيش الأقباط فى أكناف كثرة تحنو عليهم ، وترى المحافظة على دمايتهم وأموالهم وأعراضهم ذمة تُسأل أمام الله عن الوفاء بها .

أما فى مصر حيث لا حرج على يهودى أو نصرانى أن يعبد ربه على طريقته ، ويتردد ما شاء على كنيسته ، فما معنى الانضمام إلى الجيوش الغازية وتكوين الفرق لمعاونتها ؟

إن الكاتب الكاثوليكي لا يستحى - وهو يعرف تاريخ كنيسته - من أن يزعم أن «نابليون» لما جاء مصر منح الأقباط حريتهم الدينية «كذا» .

إى وربى كذلك يزعم الأفك !! فماذا صنع للأقباط «نابليون» ؟

وجدهم فى وظائف الدولة الإسلامية يقاتلون مالها فأمر بفصلهم .

وكان المسلمون - لفرط ثقتهم - لا يشعرون بذلك .

وجد الكنائس فوق الحاجة فما شاد كنيسة جديدة .

فلما أحس بأنهم ينضمون إليه بطراً وتعصباً لما يتوهمون فيه من تمسك بالنصرانية قبض يده عنهم ، حتى إذا تخرجت حالته وأحوال خلفائه قبل منهم العون .

وما كان الفرنسيون - وهم الغرباء المحصورون - يزهدون فى خيانة الخائنين .

ذلك .. وقد اشترط الفرنسيون عند رحيلهم من مصر ألا يؤذى مَنْ ساعدهم مدة احتلالهم لها .

ولكن الشعب - كما يقول الكاتب فى ص ٢٢٥ - : «أرهب الفرنسيين فى أثناء انسحابهم ! ثم وجه غضبه إلى النصارى !



وهكذا لم تفلح الإجراءات التي اتخذها رجال الشرطة ولا تصريحات الوالى فى التخفيف من نار الانتقام المتأججة فى قلوب الشعب إلا بعد مضى وقت طويل .

لا . . إن الشعب المسلم نسى بعد وقت قصير .

لأنه - بطبيعته الثينة - يقبل الكثير ، ويعفو عن الخطير .

ونحن نؤكد أن القلة القمطية التى فعلت ذلك مع المسلمين ، لو كانت فئة مسلمة مع انتصارى فى إنجلترا أو فرنسا أو إيطاليا ، ثم ارتكبت هذه الخيانة لأُبيدت عن بكرة أبيها .

بل إن هذه القلة المسلمة كانت ستباد ولو لم تتترف إثماً ، وحسبها من إثم أنها مسلمة .

أليس ذلك ما كان فى سالف الأزمان ؟

\*\*\*



(٨)

بين ملوك النصرانية  
وممالك الإسلام

في نفوس أمم «أوروبا» عقد مستحكمة ضد الحكم الديني ، ولهم في كراهيته عذر مبين ، وليس لنحكم الديني في «أوروبا» رجال ينشدون عودته ويحبذون دولته .

فإن مآثمه الشائعة هنالك ترد أصفق الوجوه عن المطالبة به .

وللكنييسة - مذ حكمت - تاريخ يجزر وراءه أفضالاً من الكوارث اعتبرت لازمة لسيطرتها ، فلا غرو إذا استراح القوم من حكمها وكوارثها .

وقد لاحظنا أن الناقمين على الإسلام ، الراغبين في إزائته من الوجود - ديناً ودولة - حريصون على تشبيه الإسلام بالنصرانية ، مولعون بعقد مقارنات بين تاريخه وتاريخها ، فإذا صدعتهم الحقائق القائمة فروا إلى الادعاء العريض .

ولما كان أبرز ما في المسيحية الحاكمة تعصبها المر ضد المخالفين لها في الأصول والفروع ، ولجوءها إلى الحديد والنار في حل مشاكلها النافهة ، وتبريرها القسوة الهائلة في فرض معتقداتها وأرائها . .

فإن المتحاملين على الإسلام أرادوا استخراج مثل هذه المواقف المغزوية من تاريخه ، فأعيتهم الخيل واستوعرت السبل ، فما يصنعون ؟

لا شيء ، إلا الكذب والتحريف والتضليل .

ولا بأس عليهم إذا عثروا على الإساءة الصغيرة فوضعوا لها عنوان المذبحة الكبرى !! ليكون من ذلك وجه شبه بين الحكم الإسلامي العف ، وبين الحكم النصراني المنمعم بالمذابح .

ومن هذا القبيل ما أفرد له الكاتب الصليبي باباً خاصاً بعنوان :

«كارثة النصرانية في عهد المماليك» .

ونحن نرحب بهذه التهمة ؛ لأنها ستجعلنا نقتد الضلالات ، ونعقد المقارنات ، ثم نخرج بالنتائج التي تبيض لها وجوه وتسود وجوه .

وقبل أن نسرد الوقائع - وهي قريبة من متناول اليد - نؤكد للمقارئ أن الفرق بين تاريخ الديانتين كالفرق بين حقيقتيهما .

فالتوحيد شيء ، آخر غير التثليث ، والتسامح شيء ، آخر غير الاضطهاد .

وماذام ألكاتب قد تكلم عن كارثة لنصرانية فى عهد الإسلام - أى عن كارثة للأقليات فى عهد حكومته - فلنتكلم نحن عن كوارث الأقليات المسيحية فى عهد المسيحيين أنفسهم ، ولنقارن بين أرض وسماء ، بين حكم المماليك فى انصارى - وهو المعدود أسوأ عهد فى تاريخنا - وبين حكم الملوك الأحرار والبايوات الكبار من رجال النصرانية .

ذلك ، ولن نعتبر هذه الكوارث ، التى اقرتها رجال النصرانية ، من وحى أنفسهم ، بل من وحى كتبهم التى بين أيديهم .

يقول الدكتور «توفيق الطويل» :

... لكن الذين حملوا الأناجيل نصيبها فى تبعه الاضطهاد الدينى يقولون :

إن أتباع الاضطهاد من أمثال القديس «أوغسطين» قد استندوا إلى آيات وردت فى الإنجيل . كقول المسيح لحواريه :

«اجبروهم على اعتناق دينكم» أو «لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاماً على الأرض ، ما جئت لألقى سلاماً ، بل سيفاً ، فإنى جئت لأفرق الإنسان من أبيه ، والابنة من أمها ، والكثرة من حمايتها ، وأعداء الإنسان أهل بيته» .

هذه الكلمات هى التى حكمت تاريخ النصرانية ، وصبغت - من بدايته إلى نهايته - بالدم العبيط .

أما «من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر» فكلام لم يعرفه المسيحيون مع أنفسهم يوماً ولا مع أعدائهم ساعة .

واليك هذه الصفحة<sup>(١)</sup> من تاريخ النصرانية السمح (١) .

أراد «تشرنوبل» التاسع سنة ١٥٧٤م أن ينشر الأمن فى ربوع البلاد ، فهادن «اليهودونوث» وأدنى زعماءهم من حضرته ، وتوج هذه الحركة بالرغبة فى تزويج أخته من زعيم لهم ، فأثار هذا المسلك نائرة الكاثوليك .

وفى ليلة الزفاف أقبل جموع «اليهودونوث» تترى إلى باريس ، فأضيق الرصاص على زعيمهم .

(١) عر كتاب «محاكم التفتيش» .

وعندئذ وصد عزمه على التنكيل من حاول اغتيابه ، وخشى « كاثوليك » مغيبة ذلك فعقدوا النية على أن يجعلوا عيد القديس « بارنلسيو » في ٢٤ أغسطس سنة ١٥٧٢ م مذبحه يبيدون فيها خصومهم .

وفي منتصف الليل دق ناقوس كنيسة « سان جرمان » مؤذناً ببدء المذبحة .

فإذا بأشراف الكاثوليك والحرس الملكي وجميع الجماهير تنفض على بيوت « الهوجونوت » والفنادق التي أوتهم . وتأتى على من بنا ذبحنا .

فلما أصبح الصباح كانت شوارع باريس تجرى بدماء ألفين من النفوس .

وتطارت أبناء المذبحة المروعة إلى الأقاليم ، فإذا بها تستحيل - بدورها - مجزرة تجرى بدماء ثمانية آلاف من هؤلاء المساكين .

بل قيل : إن هذه المذبحة قد أودت بحياة نيف وعشرين ألفاً .

وقد أثار وقوع هذه المذبحة الغبطة والرضا في أوروبا المسيحية الكاثوليكية كلها ، فكاد « فيليب » الثاني يُجن من فرط الفرح عندما بلغته أنباءها ، وانتهالت التهنأتى على « تشرلس التاسع » بغير حساب !

وكاد البابا « جريجورى » الثالث عشر يقظير من السرور .

حتى إنه أمر بسك أوسمة لتخليد ذكرها توزع على وجوه الشعب وعيونه .

وقد رسمت على هذه الأوسمة صورته ، وإلى جانبه ملك يضرب بسيفه أعناق الملحدين .

وكتب على هذه الأوسمة « إعدام الملحدين » .

وأمر البابا - إلى جانب هذا - بإطلاق المدافع وإقامة القداس في منى الكنائس ، ودعا الفنانين إلى تصوير مناظر المذبحة على حوائط القاتيكان . وأرسل تهنئته الخاصة إلى « تشرلس » . . . « (١) . ١ . هـ .

هذه هى أبناء مجزرة « سان بارنلسيو » التي فتت فيها الكاثوليك بإخوانهم البيروتستانت .

(١) ترجمة الدكتور على مطير من كتابه « محاكم التفتيش »

والمكاثوليث لم يفعلوا ذلك في ساعة ضيق يندم أفرء بعدها على خطيئته !!  
بل فعلوا ذلك نزولاً على الكنسمات التي دوتها «متى» في إنجيله ونقلناها لك أنفاً .  
وتمنياً من السير المتوحشة التي سجلها العهد القديم نفسه لأنبياهم ، في الحروب التي  
سببها على أعدائهم .

إن العهد القديم يوصي بحرب الإبادة ، الإبادة التي لا تبقى في ديار الأعداء إنساناً  
ولا حيواناً .

والنصارى الذين حكموا نفذوا هذه الوصاية بدقة ، واستوحوا منها مسالكهم تجاه  
خصومهم في العقيدة أو في الرأي .

إنهم يسفكون هذه الدماء ، لا على أنها جرائم ، بل على أنها قربات يطلبون بها  
رضوان الرب .

إنهم يعتصرون أعناق الضحايا كما يبدأون في إقامة صلاة سواء بسواء .

في الإصحاح السادس من سفر «يشوع» «وكان في المرة السابعة ، عندما ضربت  
الكهنة بالأبواق ، أن «يشوع» فإن للشعب : اهتفوا لأن الرب قد أعطاكم المدينة (١) ،  
فتكون المدينة وكل ما فيها مُحَرَّمًا للرب .

وكان حين سمع الشعب صوت البوق أن الشعب هتف هتافاً عظيماً ، فسقط السور  
في مكانه ، وصعد الشعب إلى المدينة ، كل رجل مع وجهه .

وأخذوا المدينة ، وحرّموا (٢) كل ما في المدينة من رجل ، وامرأة ، من طفل وشيخ ،  
حتى البقر والغنم والحمير ، بحد السيف ، وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها .

وفي الإصحاح الثامن « . . فقال الرب لـ «يشوع» : مُدَّ المزارق الذي بيدك نحو  
«عاي» لأنى بيدك أدفعه !

فمد يشوع المزارق الذي بيده نحو المدينة .

فقام الكمين بسرعة من مكانه وركضوا عندما مد يده ، ودخلوا المدينة وأخذوها ،  
وأسرعوا وأحرقوا المدينة بالنار .

(٢) قتلوا .

(١) فربحا .

ولما رأى «يشوع» وجميع إسرائيل أن الكمين قد أخذ المدينة ، وأن دخان المدينة قد صعد ، انثنوا وضربوا رجال «عاى» .

وهؤلاء خرجوا من المدينة لقتالهم ، فكانوا فى وسط إسرائيل ، هؤلاء ، من هنا ، وأولئك من هناك ، وضربوهم حتى لم يبقَ منهم شارد ولا منفلت .

وأما ملك «عاى» فأمسكوه حباً وتقدموا به إلى «يشوع» .

وكان لما انتهى إسرائيل من قتل جميع سكان «عاى» فى الخقل ، فى البرية حيث خفّوهم وسقطوا جميعاً بحد السيف حتى فتوا ، أن جميع إسرائيل رجع إلى «عاى» وضربوها بحد السيف .

فكان جميع الذين سقطوا فى ذلك اليوم من رجال ونساء اثنى عشر ألفاً ، جميع أهل «عاى» . . . .

وفى الإصحاح العاشر . . . ثم اجتاز «يشوع» ، وكل إسرائيل معه ، من «خيشتا» إلى «عجلونا» فنزلوا عليها وحاربوها ، وأخذوها فى ذلك اليوم وضربوها بحد السيف وحرّم كل نفس بها فى ذلك اليوم . . . .

« . . . فضرب «يشوع» كل أرض الجبل ، والجنوب والسهل ، والسفوح ، وكل ملوكها ، لم يبق شاردًا بل حرم كل نسمة كما أمر الرب إله إسرائيل » .

وفى الإصحاح الحادى عشر . . . ثم رجع «يشوع» فى ذلك الوقت ، وأخذ «حاصور» وضرب ملكها بالسيف ، لأن «حاصور» كانت قبلاً رأس جميع تلك الأمماتك وضربوا كل نفس بها بحد السيف ، حرّموهم ولم تبقَ نسمة ، وأحرق «حاصور» بالنار . فأخذ «يشوع» كل مدن أولئك الملوك وجميع ملوكها وضربهم بحد السيف ، حرّمهم كما أمر موسى عبد الرب .

« . . . لم تكن مدينة صالحت بنى إسرائيل إلا : الخويين » سكان «جعون» بل أخذوا الجميع بالحرب ، لأنه كان من قبل أن يشدّد فتويهم ، حتى يلاقوا إسرائيل للمحاربة ، فيحرموا ، فلا تكون عبيتهم رافة ، بل يبنوا ، كما أمر الرب موسى . . . .

أرأيت معالم حرب الإبادة كما تعفينا الكتب المقدسة لدى تقوم ؟



أرأيت عاطفة تنضح بالرحمة وسط هذه المجازر المتعاقبة؟

أعرفت ما هو الأصل الذي انبثقت عنه مذبحه «سان بارثلميو» التي كاد يضير البابا من الفرح لأنبائها؟

إن هذه التعاليم الإنهية في نظر اليهود والنصارى هي أساس الصلات بين المؤمنين وخصومهم . هي التدمير الذي يسقط جثة الأب ، إلى جوار ولده ، إلى جوار امرأته . . ثم يهدم البيت فوق الجميع .

هذه هي المبادئ ، والأسس التي يصدر عنها رجال لا يستحيون من اتهام الإسلام بأنه انتشر بالسيف ولا ملامة !!

فالحقود الذي يتشهى سفك الدماء لا يستكثر عليه الافتراء .

إنهم إن كانوا كثرة أبادوا خصومهم وإن كانوا قلة مكروا وتربصوا وجحدوا ، ثم لا يعوز أحدهم الوجه الذي يتهم به الإسلام بأنه قام على السيف !!

ولقد قرأت تاريخ الفتوح وسير النبي وخلفائه . . فهل ترى مكاناً لمقارنة بين وحوش وملائك؟

لقد نعى القرآن على أهل الكتاب السابقين هذا التوحش في مسالكهم ، فقال لليهود :

﴿ تُمْ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾<sup>(١)</sup>

وقال عن النصارى :

﴿ ... فَتَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾<sup>(٢)</sup>

وقد هبت على حضارات العالم كلها سموم محرقة من لفتح هذه العداوات والأحقاد .

(٢) الثالثة : ١٤ .

(١) البقرة : ٧٤ .

فما حيت حضارة أوروبا الأخيرة إلا عندما طردت رجال الكنائس وأجاثهم إلى  
جحورهم لا يخرجون منها .

حتى إذا اختفوا من الحياة العامة بدأت النهضة الكبرى تنتعش في كل سيدان .



ولنعد إلى مناقشة الكاتب فيما أراد أن يصم به الحكم الإسلامي تحت العنوان المثير  
الذي اختاره « كارثة النصرانية في عهد السلاطين المماليك » .

قال في ص ١٨٠ : « كان عام ٧٢٠ هـ خراباً على الأقباط ، ولم يُعرف ما حدث  
بالضبط ، ولكن بمجرد إشارة اعتدى الشعب على الأقباط في جميع أنحاء البلاد » . ثم  
نقل عن « المقریزی » إحدى عشرة صفحة كبيرة ملئت بتفاصيل الحوادث التي وقعت  
في هذا العام والتي انتهت بتدمير ٥٤ كنيسة . عدا المساجد التي أحرقت . وقتل عدد  
كبير من الناس ، مسلمين وأقباطاً .

ونحن سنتناول أطراف الموضوع كلها ، ونكشف ما اكتنف هذه الفتنة أولاً وآخرًا من وقائع  
وملابسات ، لنرى أكان الذي حدث عدواناً على النصرانية أم رد عدوان على الإسلام ؟  
وسنعمد في هذا على الأحداث نفسها التي نقلها الكاتب ، واعترف بصحتها ،  
ولن نزيد عليها من مراجعنا جديداً .

نقل الكاتب قصصاً تصور حال الأقباط في عهد المماليك من رواية « المقریزی » ،  
والقصص المذكورة تكشف عن لون المعيشة التي ينعمون بها ، وأسلوب المعاملة الذي  
يواجهون المسلمون به فمما نقله في ص ١٧٥ :

قال : « كان قد كثر الحريق بالقاهرة ومصر في مدة سفر السلطان « بيبرس » وأشيح  
أن ذلك من النصارى ، ونزل بالناس من الحريق في كل مكان شدة عظيمة ، ووجد  
في بعض المواضع التي احترقت نفظ وكبريت .

فأمر السلطان بجمع النصارى واليهود ، وأنكر عليهم هذه الأمور التي تفسخ  
عهدهم ، وأمر بإحراقهم .

فجمع منهم عالم عظيم في القلعة ، وأحضرت الأخطاب والخلفاء ، وأمر بالقائهم  
في النار . فلاذوا بعفوه ، وسألوا المنّ عليهم .

وتقدم الأمير فارس الدين «أقطاي» أتاكك العساكر فشفع فيهم ، على أن يلتزموا بالأموال التي احترقت وأن يحملوا إلى بيت المال خمسين ألف دينار .

فأفرج عنهم السلطان ، وتولى البطرك توزيع المال ، والتزموا ألا يعودوا إلى شيء من المنكرات ولا يخرجوا عما هو مرتب على أهل الذمة ، وأطلقوا .

علام تدل هذه القصة ؟

على أن الأقليات حاولت إحراق البلاد بمن فيها ثم عفى عنهم ، على أن يلتزموا حدود الشرف وثوفاً .

فماذا كان مسلكهم - بعد - ؟

كان الأقباط قد عزلوا عن وظائفهم .

ويقول الكاتب في ص ١٧٦ : «وتدل الدلائل كلها على أن السلطان «قلاوون» وابنه الأشرف «خليل» أعاد النصارى إلى وظائفهم» .

وينقل عن «المقريزي» : «... أن هؤلاء النصارى أصبحوا يعاملون المسلمين بأنفة وأرادوا أن يظهروا أهميتهم بارتداء الملابس الثمينة .

ويروي أن أحد النصارى واسمه «عين الغزال» صادف يوماً في طريق مصر سنة ٦٨٢ هـ سمسار شونة مخدمه .

فنزل السمسار عن دابته وقبل رجل الكاتب ، فأخذ يسبه ويهدده على ما قد تأخر عليه من ثمن غنة الأمير ، وهو يترفق له ويعتذر فلا يزيد ذلك عليه إلا غلظة .

وأمر غلامه فنزل ، وكتف السمسار ، ومضى به ، والناس تجتمع عليه حتى صار إلى صليبة جامع «أحمد بن طولون» . ومعه عالم كبير .

وما منهم إلا من يسأله أن يخلى عن السمسار ، وهو يمتنع عليهم .

فتكاثروا عليه وألقوه عن حمارة وأطلقوا السمسار . . الخ» .

علام تدل هذه القصة ؟

كاتب قبطنى ، يلتقاه تاجر مسلم ، والتاجر راكب دابته ، فينزل عنها احتراماً للقبطنى ، ثم يقبل المسلم قدمه ، ويطلب منه إنظاره فى سداد دين عليه .

والقبطنى يسبه ، ويلعنه ، ويرفض إجابته ، ثم يكتفه ، ويقتاده إلى قصر الأمير الندانى ، والجمهور من خلفه يتوسل إليه أن يطلق المدين الغارم : أى يطلق المسلم الذليل .

علام يدل هذا؟ على كارثة النصرانية فى عهد المماليك!!

وتظن هذه المساخر متصلة مدى عشرين عامًا فى القاهرة عاصمة المسلمين فينقل الكاتب فى ص ١٧٨ صورة أخرى مشابهة لسابقتها ، يقول :

«فى شهر رجب سنة ٧٠٠هـ حدثت مأساة فى القاهرة غريبة فى نوعها ، ففى هذا التاريخ وصل القاهرة وزير صاحب المغرب حاجاً .

وبينما هو ذات يوم بسوق الخيل تحت القلعة إذا هو برجل راكب على فرس وعليه عمامة بيضاء ، وفروجية مصقولة ، وجماعة يمشون فى ركابه ، وهم يسألونه ويتضرعون إليه ، ويقبلون رجله وهو معرض عنهم وينهرهم ويصيح بغلمانه أن يطردوهم عنه .

فقال له بعضهم : «يامولاي الشيخ - بحياة ولدك النشر - تنظر فى حالنا» ! !

فلم يزده ذلك إلا عتواً وتحمقاً .

فرق المغربى لهم ، وهم بمخاطبته فى أمرهم ، فقيل له : «وإنه مع ذلك نصرانى» فغضب لذلك ، وكاد أن يبطش به ، ثم كف عنه ، وطلع إلى القلعة . . .» .

ويستطرد المؤرخون قائلين : «إن الوزير المغربى اجتمع بالملك الناصر «محمد ابن قلاوون» ونائبه يومئذ «سولار» .

فتحدث الوزير المغربى معهم فى أمر اليهود والنصارى ، وأنهم عندهم فى غاية الذلة والهوان ، وأنه لا يمكن أحداً منهم من ركوب الخيل ولا الاستخدام فى الجهات الديوانية .

وأنكر حال نصارى الديار المصرية ويهودها بسبب لبسهم أفخر الملابس وركوبهم الخيل والبغال ، واستخدامهم فى أجل المناصب وتحكيمهم فى رقاب المسلمين .

وذكر أن عهد ذمتهم انقضى من سنة ٦٠٠ للهجرة .

«فأثر كلامه عند رجال الدولة ، ولا سيما الأمير «بيبرس» الجاشنكير . . .» .

وواضح أن الوزير المغربي ذعر من المنظر الذليل الذي شاهده ، وهاله أن يرى جماعة من المسلمين يتدافعون ضارعين إلى قبلى يمتطى صهوة جواده ، ويقبلون قدميه رجاء أن يرق خالهم ، وهو يأمر عبيده بمطاردتهم ، ويحث فرسه للابتعاد عنهم .

والحق أن الأقباط فى عهد المماليك ، وفى العهود التى سبقتهم ، وجدوا الإسلام السمح يفتح أحضانه لتوظيفهم ، والحكومات المختلفة تنظر إليهم على أنهم فريق من الرعية ، وتتيح لهم أن ينالوا ما يشاءون من حظوظ المال والجاه .

فكان تقديرهم لهذا الصنيع أن استهزءوا بالإسلام ، واستغفلوا حكامه وتألّبوا ضد أهله ، وكانت الجماهير بين الحين والحين تحس الغضاضة من هذا الموقف النابى .

فكانت تنفس عن ألسنها المكبوت بكلمة نابية ، أو تهجم محدود .

واختلفت مسالك الحكام بإزاء تصرفات النصارى . فمنهم من كان يتغاضى عنها على ما بها من إجحاف صارخ بكرامة الإسلام ومصلحة الكثرة التى تدين به .

حتى أن شخصاً تقدم إلى «العزير بالله» بحمل عريضة جاء فى صدرها «بالذى أعز اليهود «بنشأ» والنصارى «بعيسى بن نسطورس» ، وأذل المسلمين بك . . .» .

وقد كثر أولئك الحكام المتهاونون ، حتى أن النصارى طمعوا فى إعادة مصر إلى عهد ما قبل الفتح ، أى طمعوا فى إيداء الإسلام وإزالة سلطانه .

ويشهد لذلك الكاتب الصليبي نفسه إذ يقول فى ص ١٥٢ - معقباً على قصة - مؤداها أن الموظفين الأقباط كانوا ينجزون الأوراق التى تتضمن مصالح طائفهم فحسب .

قال : «ولا عجب فإن الأقباط كانوا يؤملون فى ذلك الوقت فى استرداد النفوذ الذى كانوا يتمتعون به عندما فتح العرب مصر» .

فهو يبرر تعصبهم ضد الكثرة بتعصب مثله ، ويضم إلى ذلك الكذب على التاريخ .

إذ إن الرومان كانوا عند الفتح يستذلون الأقباط .

ولو سار المسلمون على سياسة الرومان لباد الأقباط من زمان بعيد .

وكان هناك حكام آخرون يدركون خفايا النصارى ، ويستنكرون محاولتهم تغليب الطابع المسيحي على بلاد كثرتها مسنمة ، ولا يتوانون في إنزال العقوبة بمن يفعل ذلك .

وأغلب حوادث العزل من المناصب ، وفرض الغرامات ، وتقييد بناء الكنائس يعود إلى هذه العنة الدفينة .

ونحن نخطى سياسة الحكام المسلمين في هذا الشأن .

فإن إرخاء هم العنان للموظفين النصارى أو غير عليهم صدور المسلمين ، وألقح الضغائن بين القلة والكثرة ، وتوقيع العقوبات بعد ذلك على المتعصب منهم فسّر بأنه ظلم .

كان المماليك يتركون الموظفين الأقباط يعبتون ، ثم يهجمون عليهم فيصادرون قسماً من مالهم .

وهذه فوضى أولاً وآخرًا !!

ولقد رأينا «نابليون» يرفض هذا المسلك ، إنه شدد الرقابة ابتداء عليهم .

وأظهر - بالحساب الدقيق - سرقات اغتلسين منهم ، ثم قرر فصلهم ، وذلك هو النظام الذي لا ترقى إليه شبهة .

ومن هذا القبيل ما رواه الكاتب في ص ١٣٩ من أن «أبا الحسن الصيرفي» رئيس مجلس العقود مرّ بمدينة «دمرو» فوجدها أصبحت «قسطنطينية» أخرى ، إذ وجد فيها سبع عشرة كنيسة حديثة البناء ، فضلاً عن عدد كبير من الكنائس بنيت حديثاً في القرى المحيطة بها .

كما لاحظ أن البطريرك بنى لنفسه قصرًا نقشت عليه عبارات مهينة للإسلام .

وحكى الكاتب - بعدئذ - أن البطريرك سجن ، وأن الكنائس أغلقت وألزم النصارى بدفع عشرة آلاف دينار غرامة .

وهذه القصة من رواية مستشرق فرنسي لا أعرف قيمته ، وقد يكون صادقاً ، وعندى أنه كان الأرسد فى علاج هذا الإسراف المقصود فى بناء الكنائس هو مراقبة الإنشاء لا الأمر بإنغلاق والتغريم .

على أن الأقباط مضوا قدماً إلى غايتهم ، لا يكتفون بهذه العوائق التافهة ، إن جاء حاكم فذ فحد من غلوائهم ، جاء بعده جملة حكام فتركوا لهم الحبل على الغارب . ومضت السنون تلو السنين والخطب يتفاقم على المسلمين .

موظفون ينهبون مال الدولة ليدعموا به عصبيتهم ، وكنائس تمد قبابها فى كل أفق ، وغنى يعيش المسلمون على حواشيه صعاليك تقبل الأرجل وتركض وراء الجياد . ثم الأنكى من ذلك كله تربص الدوائر بجمهور المسلمين السادر .

فإذا هجم الحواججات من أوروبا على البلد الواحد المحروب أسرع الختونة من أولئك يمدون لهم يد العون ، وتمهدون لهم أسباب الغلب .

ومن هنا رأى الوزير المغربى أن عهد الذمة قد نقضه نصارى المشرق منذ أيدوا العسليبية الغربية فى هجومها المتوحش على أرض الإسلام .

خيانة ، واختلاس ، وضعف ، وجحود ، ما هذا كله ؟

﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾<sup>(١)</sup> .

إن هذه المشاعر كلها التى تلاقى دفعة واحدة فتمخضت عنها الثورة السخيفة التى اشتعلت على عهد المماليك ضد الأقباط .

وليلأخذ أنها ليست ثورة دينية !! بدليل أن الهياج كان ضد تصرف الأقباط فحسب .

أما اليهود فإن أحداً لم يمسهم بسوء ولم يرد لهم فى هذه الفتنة أى ذكر .

ولو كان القصد إعانات امرئ أو جماعة لأنها لم تعتنق الإسلام ، لما كان هناك أى

معنى البتة لترك اليهود يرحون كيف يشاءون !

ومع ذلك فما الذى حدث فى هذه الفتنة ؟

(١) الرحمن : ٦٠ .

وماذا كان موقف السلاطين المماليك أنفسهم منها ؟

بدأت الفتنة وعمال الحفر يقومون بإنشاء البركة الناصرية .

وكانت المساحة التي ينقلون الأتربة منها تمتع حتى اقتربت من جذران كنيسة الزهري .

وهنا عمق الفعلة الخبثاء حفرهم قصد أن تسقط الكنيسة من تلقاء نفسها .

بل إنهم تصايحوا بطلب الهدم ، ولكن رؤساءهم تصاموا عنهم .

وفجأة تجمع عدد من الغوغاء ، والناس حكومة وشعباً مشغولون بصلاة الجمعة ،

وهدموا الكنيسة ثم انتقلوا عنها إلى غيرها ، فهدموا خمس كنائس أخرى ونهبوا ما

فيها من صناديق التذوق وجرار الخمر وروّعوا سكانها من الرهبان والراهبات .

حدث ذلك كله والناس لم يخرجوا من صلاة الجمعة (!)

قال «المقريزي» : « . . . فعندما خرج الناس من الجوامع شاهدوا هولاً كبيراً من كثرة

الغبار ودخان الحريق ومرج الغوغاء وشدة حركاتهم ، ومعهم ما نهبوه ، فما شبه الناس

الحال لهوله إلا بيوم القيامة .

وانتشر الخبز وطار إلى «الرميلة» تحت قلعة الجبل .

فسمع السلطان ضجة عظيمة ورجة منكرة أفرغته ، فبعث لكشف الخبز .

فلما بلغه ما وقع انزعج انزعاجاً عظيماً ، وغضب من تجرؤ العامة وإقدامهم على

ذلك بغير أمره .

وأمر الأمير «أيدغمش» أمير «أخور» أن يركب بجماعة «الأوشاقية» ويتدارك هذا

الخلل ويقبض على من فعله .

فأخذ «أيدغمش» يتهياً للركوب ، وإذا بخبر قد ورد من القاهرة أن العامة تارت

وخربت كنيسة بحارة الروم ، وكنيسة أخرى بحارة زويلة .

وجاء الخبر أيضاً بأن العامة قامت في جمع كثير جداً ، وزحفت إلى الكنيسة

«المعلقة» بقصر الشمع فأغلقها النصارى ، وهم محصورون بها وهي على وشك أن

تؤخذ .

فتزايد غضب السلطان ، وهم أن يركب بنفسه ويبطش بالعامة ثم تأخر لما راجعه



الأمير «أيدغمش» ونزل من القلعة في أربعة من الأمراء إلى مصر وركب الأمير «بيروس»  
الحاجب والأمير «الماس» الحاجب إلى موضع أخفر، وركب الأمير «طينال» إلى القاهرة .  
وكل منهم في عدة وافرة .

وقد أمر السلطان بقتل من قدروا عليه من العامة بحيث لا يعفو عن أحد .  
فقامت القاهرة على ساق وفر النهب .

فتم يظفر الأمراء منهم إلا بمن عجز عن الحركة بما غلبه من السكر ياخمر التي نهبها  
من الكنائس .

وخلق الأمير «أيدغمش» بمصر، وقد ركب الوالي إلى الكنيسة «المعلقة» قبل وصوله  
ليخرج من زقاق المعلقة من حضر للنهب، فأخذه الرجم حتى فر، ولم يبق إلا أن  
يحرق باب الكنيسة .

فجرد «أيدغمش» ومن معه السيوف يريدون الفتك بالعامة، فوجدوا عالماً لا يقع  
عليه حصر، وخاف سوء العقاب فأمسك عن القتل .  
وأمر أصحابه بإرجاف العامة من غير إهراق دم، ونادى مناديه :  
من وقف حل دمه .

ففر سائر من اجتمع من العامة وتفرقوا .

وصار «أيدغمش» واقفاً إلى أن أذن العصر خوفاً من عود العامة، ثم مضى وألزم  
الوالي أن يبيت بأعوانه هناك، وترك معه خمسين من «الأوشاقية» .

وعلى هذا النسق أخذ «المقريزي» يسرد الحوادث .

ولا بد لنا من وقفة هنا لنقارن بين هذه الكارثة - كما سماها الكاتب الكاثوليكي -  
وبين المذبحة التي أوقعها أباًؤه الكاثوليك بخصوصهم البروتستانت في عيد القديس  
«بارتلميو» في فرنسا عام ١٥٧٢ م .

إن الفتنة هنا لم تبدأ بصيحات المؤذنين من فوق سقوف المساجد إشارة لبدء  
التخريب على النحو الذي تم في فرنسا، حين بدأت أجراس الكنائس الكاثوليكية  
تدق في منتصف الليل إيداناً ببدء الذبح في أوسع نطاق . . . كلا . . . كلا !

الأمر في فرنسا كان اضطراراً دينياً مبيتاً بدقة ، قصد به إيادة الخارجين على الكنيسة ابتغاء وجه «يسوع» .

أما الذى حدث فى مصر فهو مظاهره من الرعاع انتهزت اطمئنان الحكومة إلى سيادة الأمن ، وانشغال المسلمين الأتقياء بأداء الصلاة فى وقت الجمعة ، فهجمت على الكنائس تسرق ما فيها من التذور وجرار الخمرور ، وأظن أن الإسلام معروف حكمه على اللصوص والسكارى ، ومعروف مكان اللصوص والسكارى من جمهور المسلمين .

أما الفرق بين موقف «المماليك» فى مصر ، وموقف البابا والملوك الكاثوليك فى أوروبا ، فهو فرق بعيد المدى ، إنه فرق ما بين الخضيض والقمم .

إننا رأينا البابا وملوكه يستخفهم أطرب لأنباء المذبحة التى أودت بحياة الألف ، وخلع أولئك الشيوخ وقارهم فكادوا يرقصون فى خفة الغلمان .

حتى إن البابا الأعظم أمر بتصوير مناظر المجزرة ليستمتع بها كلما شاقه أن يسرح الطرف فى صور الضحايا ومناقع الدماء !!

فإذا تجاوزنا هذه السفوح التى تعج بأخلاق من الحما المسنون وارتقىنا إلى سيرة «المماليك» النظيفة وإلى مسلكهم فى مجابهة هذه الفتنة المفاجئة وجدنا طرازاً آخر من احترام العتائد وصيانة الحقوق .

إن المماليك - الذين يطعن فى عهدهم - لم يقفوا موقف المتشفى أو المتفرح من هذه الفتنة الطائشة ، بل ساقوا قواتهم فى الحبال لإطفائها .

وكان السلطان يشرف بنفسه على تشتيت هذه المظاهرات ، ويصدر الأوامر الحاسمة بقتل المشاركين فيها ، معتبراً الأقباط جزءاً من رعيته التى يجب أن يدافع عنها مهما أساءت .

إنه لم يسك أوسمة كالبابا «جريجورى» الثالث عشر لتخليد ذكرى المجزرة .

لا ، إن السلطان الناصر «محمد بن قلاوون» الحاكم المسلم فى العصور المظلمة - كما يقولون - كان أرق عاطفة من البابا الذى يحكم أوروبا فى نهاية القرن السادس عشر ، وكان أرقى إنسانية منه .

وبرغم علمه أن سيرة الأقباط بين المسلمين المنطوية على التعصب والمكر والاستغلال هي التي أدت إلى هذه الفتنة ، فإنه أبى الوقوف جامداً بإزائها ، فلما بلغه ما حدث لكنائس الأقاليم بعد كنائس القاهرة هاج غضبه . قال «المقریزی» :

« . . فاشتد حنق السلطان على العامة ، خوفاً من فساد الحال ، وأخذ الأمراء في تكبير غضبه قائلين : هذا الأمر ليس من قدرة البشر فعله .

ولو أراد السلطان وقوع ذلك على هذه الصورة لما قدر عليه ، وما هذا إلا بأمر الله سبحانه وبقدره ، لما علم من كثرة فساد النصارى ، وزيادة طغيانهم ، ليكون ما وقع نقمة وعذاباً لهم» .

\* \* \*

ربما فقد النصارى في هذه المحنة عشرة أشخاص أو بضعة عشر شخصاً . ولا شك أن القتلى بين المتظاهرين ضدهم يبلغون ذلك أو يزيدون ، لكن خسائرهم في الكنائس كانت جسيمة .

ولست أرجح أن هذه الأفعال كانت عن تدبير منظم .

بل هي انفجار متتابع لشعور مكبوت ، إثر إذلال وتعصب طويلين من الموظفين والأعيان الأقباط .

وقد كان العامة في مصر يعرفون نقمة السلطان على مقترفي هذه الجرائم .

وكان الأقباط يعرفون أن السلطان حزين لمصابهم ، وأنه أرسل يتعرف الكنائس المحرقة .

ومن أيسر الأمور عليه أن يعيد بناءها ، ويعوض النصابين فيها .

ولو أن الأقباط تحدثوا إليه وقدروا دفاعه الحار عنهم ، لاندمل الجرح ، وانحلت الأزمة ، خصوصاً ، وقد سبق أن أساء النصارى إلى المسلمين ، بالانضمام إلى أعدائهم من الرومان أو الصليبيين ، ثم تغلب الحكام على ما يعقب ذلك غالباً من هياج الكثرة ضد القلة المتهمة بالغدر .

لكن الأقباط لم يفعلوا ذلك ، وقرروا إعلان الحرب الخفية على المسلمين ، فبيتوا النية على إحراق القاهرة . قال «المقريزي» :

« . . . لم يمض سوى شهر من يوم هدم الكنائس حتى وقع الحريق بالقاهرة ومصر في عدة مواضع ، وحصل فيه من الشناعة أضعاف ما كان من هدم الكنائس .

وقع الحريق في ربيع بخط الشوانين من القاهرة يوم السبت عاشر جمادى الأولى وسرت النار إلى ما حوله واستمرت إلى آخر يوم الأحد ، فتلف في هذا الحريق شيء كبير .

وعندما أطفئ وقع الحريق بحجارة الديلم في زقاق العريشة بالقرب من دور «كريم الدين» ناظر الخاص . وبلغ ذلك السلطان فاتزعج انزعاجاً عظيماً لما كان هنالك من الخواصل السلطانية وسير طائفة من الأمراء لإطفائها ، فجمعوا الناس وتكاثروا عليها ، وعظم الخطب من ليلة الإثنين إلى ليلة الثلاثاء .

فتزايدت الحال في اشتعال النار ، وعجز الأمراء والناس عن إطفائها لشدة انتشارها في الأماكن ، وقوة الريح التي أثلقت بأسفاف النخل وغرقت المراكب .

فلم يشك الناس في حريق القاهرة كلها ، وصعدوا المآذن ، وبرز الفقراء وأهل الخير والصلاح ، وضجوا بالتكبير والدعاء ، وجأروا ، وكثر صراخ الناس وبكاؤهم .

وصعد السلطان إلى أعلى القصر فلم يتمالك الوقوف من شدة الريح .

فما هو إلا أن أكمل إطفاء الحريق ، ونقل الخواصل ، وإذا بالحريق قد وقعت في ربيع «الظاهر» خارج باب «زويلة» .

وكان يشتمل على مائة وعشرين بيتاً وهبت مع الحريق ريح قوية .

فركب الحاجب والوالي لإطفائها ، وهدموا عدة دور من حولها حتى انطفأت .

فوقعت في ثانی يوم حريق بدار الأمير «سلار» في خط بين «القصرين» وحجارة بحارة «الروم» ، وعدة مواضع أخرى ، حتى إنه لم يخلُ يوم من وقوع الحريق في موضعه .

فتنبه الناس لما نزل بهم ، وظنوا أنه من أفعال النصارى .

وذلك أن النار كانت ترى في منابر الجوامع ، وحيطان المساجد والمدارس فاستعدوا

للحريق ، وتتبعوا الأحوال حتى وجدوا هذه الخرائق من «نقط» قد لفت عليه «حرق» مبلوثة بزيت وقطران .

فلما كانت ليلة الجمعة «النصف من جمادى» قبض على راهبين عندما خرجا من المدرسة «الكهارية» بعد العشاء الآخرة ، وكانت النار قد اشتعلت في المدرسة ورائحة الكبريت في أيديهما فحملا إلى الأمير «علم الدين الخازن» والى القاهرة فأعلم السلطان بذلك ، فأمر بعقوبتهما .

فما هو إلا أن نزل من القنعة ، وإذا بالعامّة قد أمسكوا نصرانياً وجد في جامع الظاهر ، وسعه حرق على هيئة «الكعكة» في داخلها قطران ونقط ، وقد ألقى منها واحدة بجانب المنبر ، وما زال واقفاً إلى أن خرج الدخان فمشى يريد الخروج من الجامع . وكان قد فطن إليه شخص وتأمله من حيث لم يشعر به فقبض عليه ، وتكاثر الناس فجروه إلى بيت النوالى ، وهو بهيئة المسلمين .

فعوقب عند الأمير ركن الدين «بيبرس الحاجب» .

فاعترف بأن جماعة من النصارى اجتمعوا على عمل نقط وتفريقه مع لفيف من أتباعهم ، وأنه ممن أعطى ذلك مثلهم وأمر بوضعه عند منبر جامع «الظاهر» .

ثم أمر بالراهبين فعوقبا ، فاعترفا بأنهما من سكان «دير البخل» وأنهما هما اللذان أحرقا المواضع التى تقدم ذكرها بالقاهرة غيرة وحنفاً على المسلمين لما كان من هدمهم للكنائس .

وأن ضائفة النصارى تجمعوا وأخرجوا من بيوتهم مالا جزيلاً لعمل هذا النقط .

واتفق وصوصو «كريم الدين» ناضر الخاص من الإسكندرية ، فعرفه السلطان بما وقع من القبض على النصارى فقال :

النصارى لهم بطربك يرجعون إليه ويعرف أحوالهم .

فرسم السلطان بطرب البطربك عند «كريم الدين» ليتحدث معه فى أمر الحريق ، وما ذكره النصارى من قيامهم فى ذلك .

فجاء فى حماية والى القاهرة ليلاً خوفاً من العامّة .

فلما أن دخل بيت «كريم الدين» بحارة الدير ، وأحضر إليه الثلاثة النصارى من عند الوالي فقالتوا «الكريم الدين» بحضرة الوالي والبطريرك جميع ما اعترفوا به قبلاً .

فبكى البطريرك عندما سمع كلامهم وقال :

هؤلاء سفهاء النصارى قصدوا مقابلة سفهاء المسلمين على تخريبهم الكنائس .

وانصرف من عند «كريم الدين» مبهجلاً مكرماً .

فوجد «كريم الدين» قد أقام له بغلة على بابه ليركبها ، فركبها وسار .

فعظم ذلك على الناس وقاموا عليه يداً واحدة ، فلولاً أن الوالي كان يسايره نهلك .

وأصبح «كريم الدين» يريد الركوب إلى القنعة كعادته .

فلما خرج إلى الشارع صاحت به العامة : ما يحل لك يا قاضي أن نحامي للنصارى وقد أحرقوا بيوت المسلمين وتركبهم بعد هذا البغاز .

فشق عليه ما سمع وعظمت نكايته ، واجتمع بالسلطان .

فأخذ يهون أمر النصارى المحبوسين ، ويذكر أنهم سفهاء وجهال .

فرسم السلطان للوالي بتشديد عقوبتهم ، فنزل وعاقبهم عقوبة مؤلمة .

فاعترفوا بأن أربعة عشر راهباً «بدير البغل» قد تحالفوا على إحراق ديار المسلمين كلها .

وفيهم راهب يصنع النفط ، وإنهم اقتسموا القاهرة ومصر ، فجعلوا للقاهرة ثمانية وبلغر ستة .

فكتب «دير البغل» وقبض على من فيه وأحرق من جماعته أربعة بشارع «صليبة بن طولون» وقد اجتمع لمشاهدتهم عالم عظيم . . . « 1 هـ .

\*\*\*

وليس بمستغرب أن تشتعل نيران الفتنة ، وأن تمتد أضرارها حتى يصلح بحرهما من ليس له ذنب فيها . . من مسلمين وأقباط .

وإذا نحن نظرنا إلى هذه المحنة من ناحية الخسار المأدى ، وجدنا مصاب المسلمين ومصاب غيرهم سواء .

فإن كتابية عنها تحت عنوان «كارثة النصرانية في عهد المماليك» ليست كتابية تزييهة .  
على أن لنا ملاحظات يجب إثباتها لإلقاء ضوء كاف على الموقف كله .  
فإنه ظاهر لتعيين أن الحكومة الإسلامية القائمة اعتبرت أشغب الحادث خروجاً  
عليها وأنزلت بمرنكييه ألم العقاب .  
وأنها استتكرت مظاهرات الغوغاء وساندت جمهور الأقباط .  
واسندعت «البطريك» نيشرف بنفسه على مجرى التحقيق واستقبثته وودعته  
بإكرام وتحنة .  
ولو أن الأقباط قدروا للحكومة مسلكها ، ورجعوا إليها في المطالبية بتعويض عما  
فقدوه ؛ لكان ذلك أدل على إدراكهم للأمر وشكرهم للصنيع .  
لكن ما حدث أن مظاهرات الغوغاء ، قابلتها مؤامرات الرهبان والقساوسة لخرق القاهرة !!  
ولو أن حضرات الرهبان والقساوسة اكتفوا بأخريق التي أضرموا شعلتها أولاً ،  
وأوقعت بالعاصمة أفدح الأضرار ثم ظفروا بالنجاة من غوائل فعلتهم ، لكان ذلك  
أجدى عليهم وعلى طائفهم .  
غير أنهم ازدادوا ضراوة وحمقاً ، ومضوا في خضتهم يريدون تدمير كل شيء !!  
ومع ذلك كله فقد أبت حكومة المماليك أن تنظر إلى المشكلة من زاوية التعصب  
الديني ، بل اعتبرت الرعاع من العامة والسفهاء من القسس مجرمين في حق الأمن  
انعام فقط ، واقتضت منهم على هذا الأساس .  
ومضت الأيام ، وغلبت على مسلمي مصر طباعهم الوادعة ، فسروا ما كان ، وتلاقى  
انفريقان في الأسواق يستأنفون حياة لا اضطراب فيها .  
وارتفع الأقباط في شتى مناصب الدولة ، وتطاولوا في البنيان .  
وباهوا غيرهم بسعة النفوذ وبسطة الثراء ، فكيف يقول فائل بعد ذلك :  
إن كارثة النصرانية في عهد «المماليك» هي التي جعلتهم يرحبون بغزو الفرنسيين  
لمصر!

بيد أن الكاتب المغرض يريد ليبرز هذه الخيانة - التي لا مبرر لها أبداً - فيقول  
فى ص ٢٢٧ :

«بتكنا أن نستنتج من حوادث هذه الحملة - الفرنسية - ثلاثة أمور :

أولاً : أن احتقار المسلمين للأقباط جعل التفاهم بين هذين العنصرين عسيراً .

ثانياً : أن وجود أمة مسيحية فى مصر أساء إلى العلاقة بين الأقباط والمسلمين ،  
بالرغم من أن هذه الأمة كانت مشبعة بروح العطف على الأغلبية .

ثالثاً : أن الأقباط الذين اضطهدهم المماليك واحتقروهم أصبحوا يرحبون بأى  
«أوروبا» المسيحية على شرط أن تكون هذه الأمم بعيدة عن كل غرض دينى» .

أى أن الأقباط - فى رأى الكاتب - يحبون أن تحتل مصر دولة مسيحية من دول  
أوروبا الكاثوليكية أو البروتستانتية على شرط أن تدع الأقباط يستمتعون بحريتهم  
الدينية نصارى أورثوذكس .

وهذا هو بيت القصيد عند الكاتب ، وقد مهد له بكل من السببين الأولين وكلاهما  
باطل انتحل انتحالاً لتسويق ما بعده .

فإن المسلمين فى مصر لم يتبرعوا باحتقار الأقباط ، ولا تعبدوا الله بالإساءة إليهم .

ثم إن الزعم بأن الفرنسيين أو الإنكليز جاءوا إلى مصر عاطفين على المسيحيين من  
أهلها هو كلام تحسن افتراءه دور الدعاية فى الدول المستعمرة .

وسوقه هنا يكشف عن نية صاحبه فى خدمة الاحتلال الأجنبى ، وتجريح المقاومة  
الإسلامية للغاصبين ، ومن يعمل معهم من الغادرين .

\*\*\*



(۹)

ماذا يريدون؟

إنه يتضح من استقراء الحوادث التي حفل بها التاريخ المصري من الفتح إلى اليوم ، أن لدى النصارى رغبة جامحة في تنقص الإسلام ، واعتبار أهله غرباء في هذه البلاد ، ومحاولة الاستئثار بالسلطة دونهم ، حتى يتم بالخدعة أو بالقهر هدم الحكم الإسلامي ، وإقامة حكم آخر مكانه أيا كان لونه !!

ومن الظلم أن تنتهم الأقباط عامة بأنهم شركاء في الوضوء إلى هذه الغاية الجائرة ففيهم - في كل زمان ومكان - أهل إنصاف وعدل .

يريدون أن يقاسموا المسلمين حياة آمنة مستقرة ولا يرون غضاضة في إعطاء المسلمين حقهم باعتبارهم كترة .

ومن حق الكثير المعترف به في الأنظمة كلها أن تكون الدولة لها والولاية العامة في بنيتها . وما دامت الفلة ستعيش مساوية في حقوقها وواجباتها وحرقاتها للكثير التي تجاورها ، فأى حرج سوف يلحقها ؟

لكن سياسة الأقباط لا يرسمها - للأسف الشديد - هذا النفر المعقول .

فما أكثر ما يفتت الزمام منه ، فتبدو الطائفة - وكأنها لا تستريح إلا إذا زال الإسلام وزالت دولته من الوجود - .

وهنا موضع الصعوبة في علاج المشكلة .

فنحن - المسلمين - لن نترك ديننا ، ولن نحصد شريعتنا ، ولن ننسى وحدتنا .

وفي الوقت نفسه لن نجور على غيرنا ، ولن نصادر شعائره أو عباداته .

وإذا كانت راحة النصارى الوحيدة في أن نترك ديننا ، فلن يستريحوا ما حيوا وحيينا ،

وإذا كانوا سيجمعون ويطيئون كلما سمعونا نتحدث عن الحكومة الإسلامية فلن تكون

عسبي هذه المشاعر النافرة مجدبة عليهم شيئاً ، ومن الخير لهم أن يلتزموا الجادة .

وسواء اعتدلوا أم تصرفوا فلن نحيف عليهم ! بل سنظل أشرافاً في مسلكنا .

\*\*\*

ونحب أن نلقى نظرة سجالى على حوادث السبعين عاماً الأخيرة . ليرى القارئ المحور الذى يدير عليه النصارى سياستهم بإزاء الإسلام .

في سنة ١٨٨٢ م ضرب الإنكليز الإسكندرية وشنوا هجوماً شاملاً على مصر ، وكان السبب الأصيل لهذا العدوان خوف الإنكليز من قيام دولة دستورية قوية في وادى النيل .

إذ إن «عربي» أراد وضع حد لفوضى الحكم الفردي والفساد التي تنتشر تحت ستاره النواكس .

«وعربي» قائد مسلم في أمة تسعة أعشارها مسلمون .

فهل يستغرب منه أن يدعو إلى الجهاد الديني لمقاومة الغزاة ؟

هل يستنكر عليه أن يستثير حمية أمته الدينية في ساعة محنتها؟

لماذا لم يستنكر ذلك من «تشرشل» و «روزفلت» ؟

أم أن المراد هضم الإسلام وحده ؟

أرسل «عربي» إلى «غلاستون» يهدده - قبيل قذف الإسكندرية - بإعلان الجهاد العام حسب تعاليم الإسلام .

وكان هذا الإعلان كافياً ليفض الأقباط من حوله وينفرهم من الدفاع عن البلاد !!

ويذكر الكاتب في ص ٢٢٤ : «... إن هذه الأسباب أثرت على مجرى الحوادث ،

وحدث أن المتظاهرين والغوات المتفهمة كانوا يخلطون كثيراً بين الأجنبي والنصارى الوطنيين» .

وقبل : إن هناك مؤامرات لإبادة النصارى جميعاً !!

ويقول الكاتب في الصفحة نفسها :

«... احتج عربي لدى «م . جريجوري» مراسل جريدة التيمس على اتهامه بالتعصب .

غير أن «بلانت» لاحظ أن القائد المصري ألقى على الحركة طابعاً دينياً أكثر من

مشايخ الأزهر أنفسهم !!

وقد انهزم «عربي» وأخفقت ثورته<sup>(١)</sup> .

وبدلاً من أن تظهر مصر المسكينة باخلاص من أوزار الحكم الفردي ، سقطت في

مخالب الاحتلال البريطاني ووضعت بريطانيا - وهي دولة صليبية - يدها على مقاليد

البلاد التي تخشى من قيام دولة قوية في ربوعها .

(١) لقد هاجم بعض الحركة العربية وأيدها البعض ووقعت تحت تفسير الأهواء الخنثية ، وهي شتى الأحوال لا يمكن إحصاء آثارها الجذرية بالدراسة . . . وحوار موقف عربي والأحداث الصحاح ثورته الإسلامية الفخر - نسخة كذب الهلال - مذكرات عربي - تعذيب اللواء محمد نجيب - رئيس الجمهورية - العددان ٢٣ ، ٢٤ فبراير ١٩٥٢ .

فلم يكن عجباً أن ترسم لها سياسة تصل بمستواها المادى والأدىبى إلى حد معين :  
أخذ الذى يجعلها مطية ذلولاً ، أو بقرة حلوباً للإمبراطورية الفاجرة .  
فماذا كان موقف الأقباط من هذا الاحتلال الصليبي الجديد ؟

\*\*\*

اجتمع الأقباط فى «أسيوط» على هيئة مؤتمر وتقدموا إلى حكومة الاحتلال بمطالب  
عديدة تمثل أمانى الأمة القبطية .

ونحن نعطي الأقباط الحق كله - لو كانوا مظلومين - أن يستعينوا بالشيطان فى دفع  
الضر عن أنفسهم ، ونرفض اتهامهم بخيانة الوطن ، وإخالة هذه .

فلننظر . . . أكان الأقباط مظلوسين حقاً حتى يلجأوا إلى المحتلين يطلبون نصفتهم ؟  
نقل الكاتب نتفة من مقدمة تقرير عن مؤتمر «أسيوط» للأستاذ «توفيق حبيب» -  
وهو قبطى - جاء فيه :

«كان الحكام يختصون بالوظائف العمومية فئات أو طوائف معينة ، سواء بحكم  
الميل أم الضرورة .

ومن هذا القبيل نجد جميع الحكام والولاة الذين تقدموا «محمد على» بل  
«محمد على» نفسه وبعض خلفائه قد اختصوا الأقباط بمعظم مصالح الحكومة فى  
القاهرة والأرياف ، كما اختصوا الأتراك بالوظائف العسكرية والإدارية .

ولو قرأت أقوال المؤرخين المسلمين لما وجدت اسم المصرى المسلم فى غير  
وظائف القضاء الشرعى إلا نادراً . . .» ص ٢٤٧ .

هذا التقرير يصور فكرة الأقباط عن الوظائف ومعنى المساواة فيها .  
فلنتدبره جيداً ، ثم لنضم إليه كذلك الإحصاء الذى أرسله السير «ألدون غورست»  
المعتمد البريطانى إلى حكومته فى تقرير عن سنة ١٩٠١ م .

وهذا الإحصاء - كما أثبتته الكاتب - يدل على أن الأقباط الذين هم عشر السكان  
كانوا يحتلون ٤٥.٣٢٪ من الوظائف ، ويقبضون ٤٠٪ من المرتبات .

فى حين أن نصيب المسلمين لم يتجاوز ٤٤٪ ، والأجانب ٦٪ .  
فمم كان الأقباط يشكون ؟

وأين انظلم النازل بهم من المسلمين قديماً أو حديثاً ؟

ومن الذى يظلب المساواة ويستصرخ من العدوان النازل به ؟

القلة المدننة ؟ أم الكثرة المهملة؟!

إن مؤتمر «أسيوط» هذا ، كان خيانة دنسة ، وغدرًا مركبًا .

وهو - مع ضميمته الأحداث السابقة فى التاريخ القديم - دلالة لا ريب فيها على

تعصب أعمى ضد الإسلام وأهله ، وضغينة صليبية لا يشفيها شىء .

\* \* \*

والواقع أن الإنكليز لما دخلوا مصر وجدوا الحالة نفسها التى وجدها الفرنسيون قبلاً .

استقبلهم المسلمون بسخط المقهور وذلة المغلوب على أمره .

وهرع غيرهم لاستقبالهم بنوع من الإيناس والليونة .

وبش الإنكليز فى وجوه من بشوا لهم .

ولكنهم لم ينسوا أنهم يريدون استغلال خيرات مصر لحسابهم الخاص ، وأنهم فى

هذه الحدود يقبلون العون ويرحبون بالخيانة .

ولا عليهم أن يضعوا أيديهم فى أيدي الخونة من المسلمين أو من النصارى .

وقد كان الأقباط فى ظل الدولة الإسلامية المضطربة ، والحكم الفردى العاثر

يحتازون الخير الكثير لأنفسهم أفراداً وطائفة .

وقد رفض «تابلين» هذا الوضع - كما بينا آنفاً - ورفض الإنكليز أيضاً هذا الوضع .

واعترف الكاتب الصليبي بهذه الحقيقة رغم أنه ، فقال ص ٢٤٧ : «ليس

الاحتلال البريطانى هو الذى ألغى احتكار الأقباط للأعمال الحسابية ، فإن إدخال

الطرق الحديثة فى العمل هو الذى أدى إلى إلغاء هذا الاحتكار .

وقد شكوا «هاملون» بحق من أن كل نظام كفيل بتسهيل العمل الإدارى كان

يرفضه الأقباط إذ كانوا يعيشون فى الفوضى ومن الفوضى» .

لكن . . هل أقصى أولئك الذين يعيشون فى الفوضى ومن الفوضى عن وظائف

الدولة بما أنطق ألسنتهم بالشكاية وظنب المساواة ؟

كلا كلا . . وما كان الإنكليز ليفعلوا ذلك .

فإن نسبة الأقباط - حتى انعقاد مؤتمر «أسيوط» وما تلاه - كانت ترجح على

المسلمين بشكل مروع .

غير أن هذه النسبة مهما عثت لن تشيع مظالم قوم يريدون إقصاء الإسلام بشكل حاسم عن كافة مظاهر الحكم .

وفد صرح الأستاذ «توفيق حبيب» بهذه التنية ، إذ قال في حديثه عن مؤتمر «أسبوط» القبطي :

«... نفذ أرباح رجال الاحتلال للمسلمين بل أعدوهم لدخول جميع الوظائف الكتابية والחסابية وغيرها مما كان محتكراً للأقباط قبلاً» .

\* \* \*

استرد المصريون صوابهم بعد الضربة الموجهة التي أنزلها الاستعمار الإنكليزي بهم ، ونشط الأحرار لمقاومة اللصوص الحمر ، وتفسير مقامهم في أرض الوادي ، فتألف «الحزب الوطني» لتنظيم الجهود وإعلان الجهاد .

وكان مؤسس هذا الحزب شاباً صادق الرغبة في خدمة المصريين جميعاً ورفع شأنهم<sup>(١)</sup> .

وقد أفهم الأقباط أنهم والمسلمين سواء ، وأن اتحادهم مع مسلمي مصر في مواجهة العدو المحتل عليه واجبات الشرف والرجولة .

وقد نص الزعيم الشاب في برنامج حزبه على أن الدين لا يفرق بين مصري ومصري في الحقوق والواجبات .

وقد انضم إلى هذا الحزب أول تكوينه نفر من الأقباط المعقولين ، وساهموا في أداء الواجب القومي ، وإنالة البلاد وأهلها الخيرية المنشودة .

غير أن الحزب الوطني اهتم في سياسته الخارجية بالوحدة الإسلامية : واهتم في سياسته الداخلية بشئون المسلمين باعتبارهم كثرة كبرى .

فأقر الإسلام ديناً رسمياً للبلاد ، واعترف بحق معتنقيه في نيل أنصبتهم كاملة في الإدارة والتوجيه العام<sup>(٢)</sup> .

وما إن رأى المتطرفون من الأقباط إخوانهم المسلمين يستمسكون بدينهم - على هذا النحو - حتى كفروا بالحزب ومبادئه ، وتواصوا بمقاطعته ، وصدر الأمر إلى الأقباط جميعاً بترك الحزب الوطني . . !

(١) مصطفى كامل .

(٢) كان مصطفى كامل يحسن الفكرة الإسلامية . . وقد أسس بفكرة الجامعة الإسلامية التي نادى بها الشيخ جمال الدين الأفغاني وأسس بها السلطان عبد الحميد الثاني سلطان الدولة الإسلامية العثمانية .

إننا نمتعض إذ نذكر أن رئاسة الحكومة المصرية أسندت في العصر الأخير إلى رجلين ليسا بمسلمين ، هما «توبار باشا» و «بطرس غالى باشا» .

فأما أولهما فقد مكن للأجانب فى البلاد ، ورسخ امتيازاتهم على حساب أهلها . فأصبح المسلم يقتل فى عقر داره فلا تمتد يد الحاكم إلى الجانى بعقاب ، لأنه من أصحاب الامتيازات !!

وأما الآخر فقد سلم السودان للإنجليز ، وعمل على مد امتياز ، قناة السويس ، ومضى فى سياسة طائشة لمل ، الوظائف العامة بالأقباط دون المسلمين ، فانتهى الأمر بقتله<sup>(١)</sup> .

ولما كان القتال شابا مسلما والقتيل رئيسا قبطيا ، فقد اعتبر الأقباط ذلك عدوانا دينيا على طائفتهم فى حين اعتبر الوطنيون ذلك عملا سياسيا بحتا .

\*\*\*

وإننا لنسخر كلما سمعنا هارفا يزعم أن اعتبار الإسلام ديناً رسمياً للدولة ، والعودة إلى شريعته فى الحكم ، والانصواء تحت جامعته الكبرى فى الخارج . . . إننا لنسخر إذ نسمع من يصف هذا بالرجعية (!) .

من قال : إننا نتأخر عن ملاحقة الحضارة الحديثة لأننا مسلمون ؟

هل تكون دولة أكثر رجالها من النصارى هو الذى يجعلنا تقدميين؟

وهل ترك الدولة فى حضانة الكنيسة - ترسم لهم سياسة القضاء على الإسلام - هو المسأيرة للحضارة الحديثة .

إننا نؤكد أن الدولة فى يد الأقباط أداة لنقضاء على الإسلام .

ونظرة واحدة إلى سلمى الحبشة تحت حكم الأقباط هناك تدل على هذه الحقيقة المرة .

سافرت بعثة من الأزهر مؤلفة من الأستاذين الفاضلين «عبد الله المشد»

و«محمود خليفة» الأستاذين بكلية الشريعة إلى بلاد «الصومال» و«أريتريا» و«عدن»

و«الحبشة» لدراسة أحوال المسلمين بهذه البلاد .

واستغرقت رحلة البعثة ثلاثة أشهر ما بين يوم ٢٦ من شعبان سنة ١٣٧٠هـ الموافق

أول يونيو سنة ١٩٥١ ويوم ٢٩ من ذى القعدة الموافق أول سبتمبر سنة ١٩٥١ .

(١) كان بطرس غالى أحد أعضاء المحكمة التى أعدمت أمضى دانسواى والنسب أفساها الإنجليز نكابة فى أهالى البندة المقهورة .

وكتبت تقريراً مفصلاً ويقع فى ستين ومائة صفحة كبيرة ، يتسم بالدقة والاعتدال والواقعية .

وسع هذا فقد حوى ذلك التقرير عجباً عجائباً عن الاضطهاد الدينى فى القرن العشرين .  
وهذه براعة الاستهلال :

«عقب انتهائنا من زيارة «بورما» من أعمال الصومال البريطانى ، رأينا أن نواصل الرحلة إلى «الحبشة» نظرًا لأن الميعاد المحدد لدخولنا فيها قد أوشك أن ينتهى فسافرنا يوم ٢٦ من يولييه سنة ١٩٥١ بالسيارة إلى «جيجيحا» وهى أول مدينة من مدن «الحبشة» فى جنوبها الشرقى ، وتعتبر عاصمة الصومال الأوجادينى .

وبعد أن نزلنا الفندق ومكثنا فيه ساعة ونصف الساعة أمرنا بمبارحة المدينة ، ولم يسمح لنا بالإقامة ، فاضطررنا للعودة إلى «هرجيسة» فى مساء اليوم الذى دخلنا فيه ، ثم برحنا «هرجيسة» إلى عدن ، ثم منها إلى «أسمر» .

وبعد أن أقمنا عشرة أيام أخطرنا من السفارة المصرية بأديس أبابا بأن وزارة خارجية أثيوبيا سمحت لنا من جديد بدخول الحبشة .

فسافرنا بالطائرة إلى «أديس أبابا» يوم الخميس ١٦ من أغسطس سنة ١٩٥١ وأقمنا بها اثنى عشر يومًا حاولنا فى خلالها أن نقوم بزيارة معاهد التعليم فى العاصمة والمدن الكبيرة ، وأن نتصل بالمسلمين ، فلم نستطع إلى ذلك سببًا لأسباب خارجة عن إرادتنا . ولم يمنعنا ذلك من الوقوف على كثير من شئون المسلمين فى «الحبشة» .

وسنذكر بعض ما يمكننا ذكره منها فى هذا التقرير متوخين الحقائق التى يهم أولى الأمر الاطلاع عليها» .

ثم يمضى التقرير فيذكر هذه الحقيقة الغربية التى لا يكاد يعرفها أحد .

وهى أن نسبة المسلمين فى «الحبشة» بصفة عامة لا تقل عن ٦٥ فى المائة من مجموع السكان ، وأنها ترتفع فى بعض المناطق إلى ٨٥٪ وتهبط فى بعضها إلى ٢٥٪ . وهى فى عمومها أغلبية أكيدة مع انقسام البقية من السكان إلى مسيحيين ويهود ووثنيين .

ويعتمد التقرير فى هذا على الإحصاء الإيطالى الدقيق الذى قام به الإيطاليون فى سنة ١٩٣٦ وإحصاءات الفصليات الأجنبية فى الحبشة .

وهى حقيقة غريبة كما قلت .



ويزيدها غرابة ما سنعرفه من إهمالك العنصر الإسلامي إهمالاً تاماً في الوظائف والتعليم والمعيشة وتجريده من سائر حقوق المواطين !!

ثم يذكر التقرير هذه الحقائق المفجعة العجيبة :

أولاً : أن الحكومة الحبشية بعد انتهاء الاستعمار الإيطالي ، قد اغتصبت من المسلمين ثلثي أملاكهم العقارية وسلمتها للمسيحيين من الرعايا ، مع بقاء الضريبة الفادحة على الرعايا المسلمين ، حرصاً على إفقارهم وانحلالهم .

ثانياً : أن الحكومة الحبشية تمنح إرساليات التبشير المسيحية كل العناية والرعاية في الوقت الذي تحرم فيه على المسلم أن ينتقل من محنته إلى محلة أخرى لإرشاد المسلمين ووعظهم ، وتقضى على كل محاولة ترمى إلى ذلك .

وقد جاء في تقرير لهذه الإرساليات ، أنه يمكن تنصير جميع المسلمين في هذه المناطق خلال خمس سنوات نظراً لجُهلهم وفقرهم ، وعدم وجود من يعلمهم دينهم ، أو يحثهم على التمسك بعقيدتهم<sup>(١)</sup> .

ثالثاً : أن أكثر المسلمين في الحبشة اهتماماً بنشر علوم الدين هم مسلمو مقاطعات كفا « جيمما » و « اللووهزر » ، وأنه في « جيمما » وحدها أكثر من ستين مدرسة لتعليم أبناء المسلمين .

ولكن بعد أن أعلن ضمها إلى الإمبراطورية الحبشية ، واعتقل سلطانها الأمير «عبد الله» ابن السلطان «محمود بن داود» المشهور باسم «أبي جفارا» وزج به في غيابة السجن . . استولت الحكومة الحبشية على هذه المدارس ثم أغلقت أكثرها ، وغيرت مناهج ما بقي منها .

ولم تجعل اللغة العربية ولا للدين الإسلامي أثراً فيها .

رابعاً : أن السلطة الحبشية جاهدة في سبيل نشر التعليم بين أبناء المسيحيين في البلاد بقدر ما تسمح لها مواردها .

وأنها أنشأت لذلك حوالي مائتي مدرسة ابتدائية وثانوية للبنين والبنات .

ليس بين تلاميذها وتلميذاتها أكثر من ثلاثة في المائة من مسلمي الحبشة الذين لم تجد الحكومة بدءاً من قبولهم لظروف خاصة .

(١) عن الخازن وأساليب القمع وسياسة التنجير التي مارسها العرب الصليبي في الحبشة وأرتريا انظر : محمد الخزالي - الاستعمار أحقاد وأطماع - طبعة دار نهضة مصر .

وأنة على الرغم من زيادة عدد المسلمين على المسيحيين لا تقوم الحكومة بالإففاق على تعليمهم بأكثر من خمسة في المائة من ميزانية التعليم .

هذا إلى أن برنامج المدارس الحكومية ليس للغة العربية ولا للدين الإسلامي نصيب منها ، حتى في المناطق الإسلامية المختصة .

خامساً : إن المسلمين قد أخوا على وزارة المعارف في هذه المناطق بتقرير دراسة الدين الإسلامي ، واللغة العربية في المدارس التي بها .

فعينت مدرسين في بعض هذه المدارس باسم تعليم الدين الإسلامي ، ورفضت طلب تدريس اللغة العربية .

واختارت مدرس الدين الإسلامي من بعض الجهلة الذين لا يدرون شيئاً من تعاليم الإسلام ، ولم تحدد لخصه الدين زماناً خاصاً كغيرها من حصص الأمهيرة والإنجليزية وسائر العلوم التي تعلم في المدرسة .

بل كلفت مدرس الدين الإسلامي أن يجمع التلاميذ في الأوقات المخصصة لراحتهم ليعلمهم فيها المبادئ التي لا نخرج عن أوقات الصلاة المفروضة وعدد ركعاتها وأركانها وشروطها ، وما شاكل ذلك .

فكان ذلك المدرس لا يجد من أوقات راحة التلاميذ ما يسمح بتعليمهم ، وبمر العام كنه دون أن يلقى عليهم درساً واحداً .

سادساً : أن الحكومة اختارت في العام الماضي بعثات من المتخرجين في بعض المدارس وأوفدتها إلى المعاهد المختلفة في الخارج ليعودوا فيتلوا المناصب الكبيرة في الدولة .

وقد كان من بين المبعوثين اثنان من المسلمين بحكم تفوقهما البارز .

ولكن بعد أن تمت إجراءات سفرهما حيل بينهما وبين السفر لأسباب غير معروفة .

سابعاً : أنه كان للمسلمين ثمانى مدارس ، وكانت الدراسة فيها قائمة على أساس اللغة العربية والدين الإسلامي .

ومواردها تأتي من التبرعات والهبات بواسطة جمعيات لهذا الغرض ، وكانت تقوم بتعليم ثلاثة آلاف من أبناء المسلمين .

وقد ظلت تؤدي مهمتها رغم جميع المتاعب إلى سنة ١٩٤٩ .

ولكن الحكومة أرادت إخضاعها لبرامجها الخالية من اللغة العربية والدين .

فلما رفض القائمون عليها هذا الأمر سلكت الحكومة مع هذه الجمعيات مسلكاً اضطر أعضاؤها بسببه إلى التخلي عن مساعدة هذه المدارس والتنازل للمعارف عن ثلاث مدارس منها .

وعندئذ حذفنا منها مادتي اللغة العربية والدين الإسلامي .

ثامناً : أن المدارس الباقية في طريقها إلى هذا المصير اليائس .

لأن الوسائل التي اتبعت بشأن المدارس الثلاث ماضية في طريقها .

وقد تركت البعثة الحبشة ومدرسة رابعة تلاقى مصيرها !

تاسعاً : إحدى المدارس الباقية طلبت من المعارف أن تسمح لبعض المدرسين

المصريين بالحبشة أن يقوموا بتدريس بعض العلوم في أثناء فراغهم نظراً لحاجة المدرسة إلى بعض المدرسين الأكفاء .

ولكن وزارة المعارف الحبشية رفضت هذا الطلب .

هاشراً : أن الكتب العربية لا يسمح بدخولها إلى «أثيوبيا» ولا تداولها .

أما الجرائد والمجلات العربية فيسمح بدخولها تحت المراقبة الشديدة !» .

والحق أننا - في مصر - نتوجس من اتجاه القلة القبطية إلى التأسى بأختها في الحبشة .

أى أننا نتوجس من زوال الإسلام وأقول نجمة ، لو تركنا النصراني يتولون المناصب الكبرى ويتصرفون كما يحلو لهم .

وننقل هذا التقرير<sup>(١)</sup> الناطق بأحزان المسلمين وآلامهم ليكون شاهد عدل على

الفروق بين حكم وحكم ، ودين ودين .

### كلمة أخيرة :

لا ضرورة لخداع أو مواربة .

إننا سنكشف عن نوايانا كلها ، لأنه ليس لدينا ما نستحي من إعلانه ، لقد رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ورسولاً ، والتزمنا - يوم أسلمنا - أن ننفذ تعاليم كتابنا وسنة نبينا ، وليس في هذه التعاليم ولا في تلك السنة ما يضير امرءاً يؤثر الكفر بها ، ويرغب في العيش بعيداً عنها .

(١) تلخيص للاستاذ سيد قطب .

إنه سيعيش في بلادنا مثلنا ، له مالنا وعنيه ما علينا .  
فإذا اشترط أن نرتد عن ديننا حتى يرضى عنا ، فسندعه يموت بغيظه ، ولا يلومنا  
على ذلك إلا أحقق أو منافق .  
ومن تعاليم كتابنا ووصايا رسولنا أن نتحاكم إلى قانون بعينه ، وأن نحارب منكرات  
بعينها ، وأن نعرف في الدنيا بهذه الوجهة البينة .  
والأ فتحن - إن فرطنا في ذلك - كافرون بما أنزل الله .  
ومن تعاليم كتابنا ووصايا نبينا أن نهتم بأمور المسلمين حيث كانوا ، وأن نكره  
الأذى لهم ، وندفع الضر عنهم ما استطعنا .  
ونحن - إن فرطنا في ذلك - كافرون بما أنزل الله .  
وقد أحسنا إلى جيراننا من أهل الكتاب .  
فمن قدر منهم حسن عشرتنا له ، شكرنا له جميل تقديره .  
ومن غلبته ضغينته عدلنا مع أنفسنا .  
وإذا وقع منا خطأ نحو أحد ، فلسنا الذى يصر على هفوة بدرت منه .  
ومن حق كل إنسان أن يجادلنا بالحق ، وأن ينزلنا على حكمه .  
ذلك ، ولن ندخر وسعاً في محاربة الاستعمار الأوروبى ، حتى نظرد من بلادنا آخر  
جندى من جنود الغزو الصليبي الحديث .  
ولن نقبل مهادنة لهذا الاحتلال الماكر .  
فمن والاه أو سالمه فهو يستعلن بخصومتنا ويستهدف عداوتنا .

\* \* \*

## المراجع

النصوص والشواهد المدونة في هذا الكتاب مقتبسة من :

- ١- القرآن الكريم .
- ٢- كتب السنَّة المعتمدة .
- ٣- قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام للدكتور توفيق الطويل .
- ٤- أهل الذمة في الإسلام للدكتور أ.س . ترتون .
- ٥- الإسلام سوانح وخواطر للكونت هنري دي كاسترو .
- ٦- خالد بن الوليد للأستاذ أبي زيد شلبي .
- ٧- إمام الوفاء في سيرة الخلفاء للأستاذ محمد الخضري .
- ٨- مصر الإسلامية للدكتور محمد عبد الله عنان .
- ٩- محاكم التفتيش للدكتور علي مظهر .
- ١٠- كلمة سواء . مناقشات بين القس ألفريد نيلسون وبعض العلماء .
- ١١- العهد القديم والعهد الجديد .
- ١٢- السلوك في معرفة دول الملوك - المقريزي .
- ١٣- تاريخ الرسل والملوك - للطبري .
- ١٤- الصديق أبو بكر - محمد حسين هيكل .

\* \* \*

## الفهرس

| الصفحة | الموضوع                                      | الصفحة | الموضوع                                                |
|--------|----------------------------------------------|--------|--------------------------------------------------------|
|        | النصارى وأنجوس يتحالفون ضد الإسلام .         | ٣      | مقدمة في سبب تأليف هذا الكتاب .                        |
| ١٤٧    |                                              | ٧      | ١- الإسلام بين عدويه: العصبية والتعصب .                |
|        | ٤- كيف دخلت المسيحية مصر وكيف دخلها الإسلام؟ | ٨      | هذه العصبيات .                                         |
| ١٦٣    |                                              | ٩      | الدين والعصبيات .                                      |
| ١٧٣    | الإسلام يدخل مصر .                           | ١٤     | عودة أجاهلية . . . . .                                 |
| ١٧٥    | جيش عمرو . . . . .                           | ١٨     | الإسلام والوطنية .                                     |
|        |                                              | ٢٢     | غارة على الإسلام . . . . .                             |
| ١٨١    | ٥- هل أضرت بالمسلمين سماحتهم؟                | ٣٣     | ٢- المسلمون وأهل الذمة . . . . .                       |
| ٢١٣    | ٦- اقتراء من الألف إلى الياء . . . . .       | ٤٠     | مسلك عمر نحو الذميين . . . . .                         |
| ٢٢٤    | دلائل فارغة ونقول باطلة .                    | ٥٠     | بين المسيحية والإسلام .                                |
| ٢٤٣    | ٧- حقائق لا مندوحة عن ذكرها .                | ٦٣     | اليهودية والمسيحية في الإسلام . . . . .                |
| ٢٥٤    | بطل المنطلين . . . . .                       | ٦٦     | علاقة الإسلام بغيره من الأديان .                       |
| ٢٦٠    | الصابليون ونصارى المشرق .                    | ٧٨     | الفتح الإسلامى فى العصر الأول . . . . .                |
|        | موقف الأقباط من الاحتلال الفرنسى . . . . .   | ٨١     | مضالم متبادلة . . . . .                                |
| ٢٧١    |                                              | ٨٤     | قبل بعثة محمد ﷺ . . . . .                              |
| ٢٩١    | ٨- بين ملوك النصرانية وممالك الإسلام .       | ٨٥     | أثر الاضطهاد فى النصرانية نفسها . . . . .              |
| ٣١٣    | ٩- ماذا يريدون؟                              | ٨٨     | حول مؤتمر «نيقية» . . . . .                            |
| ٣٢٣    | كلمة أخيرة . . . . .                         | ٩٠     | اضطهاد الموحدين فى العالم المسيحى .                    |
| ٣٢٥    | المراجع . . . . .                            | ٩٢     | من نتائج الاستبداد . . . . .                           |
| ٣٢٦    | الفهرس . . . . .                             | ٩٦     | حرمان المسيحيين من الحكم . . . . .                     |
|        |                                              |        | ٣- أسلوب التوسع والمعاملة فى تاريخ الديانتين . . . . . |
|        |                                              | ١٠١    | الإسلام وحرب الأجناس . . . . .                         |
|        |                                              | ١١٧    | مع آلوية المنتصرين . . . . .                           |
|        |                                              | ١٢٦    |                                                        |